منشورات المجلس العلمي المحلي لمراكش (13)

الفتوة والشباب

محمد البايك

تقديم

الدكتور محمد عزالدين المعيار الإدريسي

بسم الله الرحمن الرحيم

الفتوة والشباب

الكتـــاب

الفتوة والشباب

المؤلــف

ذ. محمد البايـك

تقديم

الدكتور محمد عزالديـن المعيار الإدريسي

الطبعة الأولى 2013

الغلاف

السعيد لعنيبي

رقــم الإيداع

2013 MO 3629

ردمـــــك

978 – 9954 – 32 -883 -5

الطبــــع

المطبعـة والوراقـة الوطنيـة

IMPRIMERIE PAPETERIE EL WATANYA

زنقة أبو عبيدة الحي المحمدي الداوديات

مراكش – الهاتف ، 74 37 30 24 05 - 91 25 30 24 05

الفاكس ، 23 49 30 24 05 e-mail: iwatanya@gmail.com

الفتـــوة والشبـــاب

المؤلـــف

ذ. محمد البايك

تقديـــم

الدكتور محمد عزالدين المعيار الإدريســـي

تقديـــم

بسم الله الرحمن الرحيم، الحمد لله رب العالمين، وصلى الله وسلم، على سيدنا محمد النبي الكريم، المبعوث رحمة للعالمين، وعلى آله و صحبه و التابعين، ومن سار على نهجهم القويم إلى يوم الدين

أما بعد فتتوزع الحديث عن الشباب والفتوة، في التراث العربي الإسلامي القديم، شتى المصادر والمراجع، وتجمعه - اليوم - وتتوسع فيه، عدة مصنفات و رسائل، بشكل مستقل قائم الذات، لعل منها — فيما نحسب - هذا الكتاب اللطيف الطريف، من تأليف عالم جليل وأستاذ مبرز، عرف كيف يجمع المواد المتفرقة، ويربط بين الخيوط الدقيقة، فجاء العمل على الرغم من صغر حجمه، جامعا لأطراف الموضوع ، من أبرز جوانبه و أهم قضاياه، عبر رحلة طويلة ماتعة، و وقفات مفيدة رائعة، على أهم محطاته التاريخية، ومناراته المختلفة المتميزة ...

كانت الانطلاقة من معاني الفتوة في لسان العرب، واستعمالاتها في القرآن الكريم، والحديث النبوي الشريف، و في التراث العربي شعره ونثره، حيث نجد أن الفتى من الناس في كلام العرب، هو واحد الفتيان، والفتاء : الشباب، وأن هناك - في الوقت ذاته - فرقا بين الشباب والفتوة، ومن ثم قالوا : إن الشباب، هو من جاوز البلوغ، والفتوة هي متوسط الشباب... و نقلوا في هذا السياق قول القتيبي : ليس الفتى بمعنى الشاب و الحدث، إنما هو بمعنى الكامل الجزل من الرجال، يدلك على ذلك قول الشاعر :

إن الفتى حمال كل ملمة . . . ليس الفتى بمنعم الشبان

وانتقل معنى الفتوة عند أهل الحقيقة، إلى معاني روحية سامية فغدت "هي أن توثر الخلق على نفسك بالدنيا والآخرة" وأصبح الفتى هو من كسر الصنم ، قال الله تعالى : { سمعنا فتى يذكرهم يقال له إبراهيم } وقال سبحانه: { فجعلهم جذاذا } وصنم كل إنسان نفسه، فمن خالف هواه، فهو فتى في الحقيقة ...

وعقد محيي الدين بن عربي الحاتمي، فصلًا طويلًا في الفتوة، في كتابه الفتوحات المكية بعنوان : " **معرفة مقام الفتوة و أسراره**" قدمه كعادته بأبيات من الشعر فيها :

إن الفتوة ما ينفك صاحبـــها . . . مقدما عند رب الناس و النـــاس

إن الفتى من له الإيثار تحليـــة . . . فحيث كان فمحمول على الراس

وللشبان والفتيان في رسول الله صلى الله عليه وسلم، وفي أصحابه رضي الله عنهم من بعده، القدوة والمثال { لقد كان لكم في رسول الله إسوة حسنة لمن كان يرجو لقاء الله واليوم الآخر وذكر الله كثيرا }

وقد عُرف صلى الله عليه وسلم، بين قومه قبل البعثة وبعدها، بالصدق والأمانة والطهر والنقاء، الشيء الذي لفت انتباه امرأة حسيبة نسيبة، كالسيدة خديجة بنت خويلد رضي الله عنها، فلم تتردد لحظة واحدة، في أن تعرض عليه نفسها " زوجا له وأما لأولاده. كما لم تتأخر عن مساندته وتهدئة روعه، يوم نزل عليه الوحي لأول مرة في غار حراء قائلة : "إنك لتصل الرحم، وتقري الضيف، وتحمل الكل، وتكسب المعدوم،

وتعين على نوائب الحق" بل إن الحق سبحانه ليصف رسوله الكريم بأنه بلغ نهاية الكمال في الأخلاق فيقول عز من قائل : {وإنك لعلى خلق عظيم}

وما كاد النبي الخاتم "يبدأ رسالته، ويدعو إلى مبادئ الإسلام الكريمة السمحة، حتى تجاوب معها الشباب، بشكل فريد متميز، في إخلاص وتفان لا مثيل لهما.

يقول أبو حمزة الخارجي واصفا أصحابه: " تقولون : إنهم شباب، وهل كان أصحاب محمد " إلا شبابا، شباب – والله – مكتهلون في شبابهم، عَمِيَّة عن الشر أعينهم ، بطيئة عن الباطل أرجلهم، إذا مر أحدهم بآية فيها ذكر الجنة بكى شوقا إليها، وإذا مر بآية فيها ذكر النار شهق شهقة، كأن زفير جهنم في أذنيه، قد أكلت الأرض جباههم وأبدانهم وركبانهم من كثرة السجود ... "

في أحضان النبوة تربى الصحابة الكرام، فضربوا أروع الأمثال في التشبث بمنهج الحق المتعال، وفي ظل المدرسة المحمدية، نشأ جيل من الشباب و الفتيان، هم خيرة الشباب و الفتيان بعد الرسل والأنبياء إلى آخر الزمان.

{محمد رسول الله والذين معه أشداء على الكفار رحماء بينهم تراهم ركعا سجدا يبتغون فضلا من الله ورضوانا سيماهم في وجوههم من أثر السجود، ذلك مثلهم في التوراة، ومثلهم في الإنجيل كزرع أخرج شطأه فآزره فاستغلظ فاستوى على سوقه، تعجب الزراع.}

ولا شك أن الشباب أكثر الناس عرضة للانحراف، وإتباع الشهوات لما يطبع – عادة – هذه المرحلة من العمر، من فورة الغرائز، وتأجج

العواطف، مما ضاقت به أمم، فأطلقت له العنان، وتزمتت فيه أخرى، فوضعت له مجموعة من القيود والأغلال، وبين الموقفين، تقف تعاليم الإسلام سامقة متفردة، تقدم للبشرية أنجع الحلول وأسلم السبل، لاستثمار طاقات الشباب و الفتيان، و توظيفها في الخير و النماء ...

ولا عجب فالصبا جنون، وفي الحديث الذي رواه الإمام أحمد في المسند : " إن الله ليعجب من شاب لا صبوة له "

وتبعا لما حدث بعد القرون الأولى من الإسلام، من تحولات سياسية واجتماعية، و ما تلاها في العصور المتأخرة، من تغيرات في مفهوم الفتوة، حتى كادت تعود إلى سيرتها الأولى قبل الإسلام، من حيث أخلاق الشهامة والنجدة والكرامة، بعيدا عن الالتزام بأخلاق الإسلام في نبذ العصبية القبلية، وترك شرب الخمر، والتشبيب بالنساء واللهو والمجون وكل المحرمات، مع اعتبار العيارة و الشطارة وقطع الطرقات من مرادفات الفتوة ، كما ظهرت جمعيات و تنظيمات حركية، شكلت خطرا على الأمن والاستقرار، وتميزت في فترات من التاريخ بمظاهر واختيارات في حياتها الخاصة، وسلوكها الاجتماعي المختلف عن السلوك العام ...

وهي أمور لم تغب عن المؤلف، فتتبعها في مختلف العصور والأمصار، في إيجابياتها وسلبياتها، في المشرق والمغرب على حد سواء، مقدما منها جميعها، نماذج مختارة، وأمثلة ناصعة، مما نسأل الله تعالى أن ينفع به، ويكشف عن خبايا وأسرار، ما أحوج الناس إلى معرفتها

والاستفادة منها، في توجيه الناشئة، و إعدادها لتحمل مختلف المسؤوليات في المستقبل بما يخدم الأمة، ويرقى بها إلى مصاف الأمم الراقية المتقدمة، داعين الله عز وجل لمؤلفه الأخ العلامة الأستاذ محمد البايك - عضو المجلس العلمي المحلي لمراكش - بدوام الصحة والعافية، واطراد العطاء السخي والإنتاج النافع، شاكرين له ما أنفق من وقت، في جمع شتاته، وترتيب مواده قبل صياغته و نسج خيوطه ...

و الله و لي التوفيق

الدكتور محمد عزالدين المعيار الإدريسي

رئيس المجلس العلمي المحلي لمراكش

فهرست المحتويات

مذهبهم ودفعها على ضرب المثل في التفاني والمغالاة وقول الشعر الحماسي – دفـع الشـباب إلى التهلكـة – اشـتهارهم بالاهتمـام بالتقـاط الأحاديـث المكفـرة والمبدعة والمفسقة بعيدا عن أحاديث السماحة والوسطية والعدل.

ثانيا : فتوة القرامطة والزنج على خطى الخوارج (47 – 48)

استغلال المتهنيـن من الرقيـق مـن عبيـد وزط وغجـر – استغلال المناطق الوعرة المسالك جنوبي العراق في منطقة موحلة خصبة وعـرة المسالك – مقامهم بمنطقـة الأهـوار وفـرَّ لهـم المزيـد مـن الكـر والفـر علـى الدولـة – محاولـة الخلفـاء العباسيين القضاء عليهم بتجفيف منابع الأهوار قصد الوصول إليهم – تشريدهم واستغلالهم في الجيش النظامي وتهجيرهم إلى بلاد الأناضـول ثـم أوربـا ليتحولـوا إلى أقلية من الغجر لا تزال إلى اليوم – ثـورات القرامطة بمنـاطق مـن شبه الجزيـرة العربيـة امتـداد لمـن تقـدم – اعتمـاد القرامطـة علـى مـنهج التأويـل البـاطني البعيـد للقرآن أباح لهم الثورة والإفساد في الجزيرة والهجوم على أقدس المقدسات بمكة وسـرقة الحجـر الأسـود – ثـورة القرامطـة بـدأت بشـعارات مـن الحريـة والتحريـر وانتهت بالاصطدام بالجدار وبالمجتمع والدولة.

ثالثا : فتوة جماعات الباطنية أتباع الحسن بن الصباح صاحب قلعة الموت على خطى القرامطة (49 – 55)

اتخـاذ قلعـة " ألمـوت " [1] عنـد منطقـة قـزوين بفـارس منطلقـا للإعـداد للاغتيالات المخططة المدروسة بواسطة شباب متحمس معد إعدادا إيديولوجيا خاصـا للمهـام القـذرة والانتحـار – برنـامج اختيـار الأتبـاع وإعـدادهم برنـامج إسماعيل فاطمي من وضع دعاة الشيعة المجرب في شمال إفريقيا والشرق عامة –

[1] – الموت بفتح الهمزة واللام

اغتيال الرموز القوية المضادة في الدولة العباسية بمن فيهم الوزراء الكبار كنظام الملك – اغتيال الملوك الأقوياء والحكام العباقرة : ملكشاه السلجوقي – محاولة اغتيال القائد الاستثنائي من أهل السنة صلاح الدين الأيوبي – تفصيلات عن مؤطري ومبادئ حركة الباطنية الإسماعيلية وخطورة البرنامج الانتحاري الذي يمكن أن يقلد في أي زمان ومكان.

رابعا : فتوة العيارين والشطار واستعادة فتوة الصعاليك الجاهلية ببغداد وما حولها (55 – 60)

الأسباب الاقتصادية لنشأة مهمشي العواصم والمدن خلال العصر العباسي خاصة – انكماش دور الدولة الاجتماعي والتكافلي وانتشار الفساد الإداري من أهم الأسباب – محاولات الدولة لاستخدام العيارين والشطار في الخلافات بين المواقع السياسية والنفوذ المتصارع عليه – استغلال العيارين للفتن المصطنعة بين الحنابلة والأشاعرة والشيعة – اختراع العيارين للحيل والوسائل الذكية للوصول إلى أموال الأغنياء الأشحاء مانعي الزكاة للتوسعة على المهمشين من أفراد المجتمع الإسلامي ؛ صنيع الصعاليك في العصر الجاهلي – استخدام الدولة النبهاء منهم سرا في المخابرات وكشف الجرائم والأحوال المستورة- تثقيف الشباب عند أصحاب العيارة والشطارة على تحمل الضرب والاستنطاقات عند الوقوع بين أيدي الشرط والحرس – حفظ أهل العيارة للأمثال والآداب والأشعار تظاهرا بثقافتهم الشعبية التي لا تقل قيمة عن ثقافة النخب - تجنب العيارين لسرقة الجار والمرأة والحرمات، والشره عند شحة الأموال - اشتهار فتيان منهم بالظرف وتلقيبهم باللص الظريف – حروب مضحكة وفتن وتعصبات بين أهل المذاهب الفقهية صراعا على المواقع والنفوذ أفقدت ثقة المجتمع في النخبة الدينية إلى حين وجعلته معجبا بالنماذج الشعبية من فتوات العيارة والشطارة.

خامسا : مصر ترث الخلافة العباسية وترث معها فكرة العيارة والشطارة في ما سمي بـ "الفتوات " والحرافيش و " الزعار " و"البلطجية " إلى اليوم (61 – 64)

الرحالة المغربي ابن بطوطة من أهل القرنين الثامن والتاسع الهجري يصف حرافيش القاهرة ونفوذهم وقوتهم وإجماعهم عند الشدائد وتحديهم لسلطات المماليك والعثمانيين – الجبرتي يحكي عن كثرة الفتوات والحرافيش في القاهرة العثمانية بالملايين – نابليون يصادف عنتا من فتوات الحسينية وغيرها – انتهاء فتوات القاهرة بنصرة المهيض المظلوم والمرأة والضعيف وظهور أسماء لامعة في هذا المجال الشعبي – أهل البلطجية فرقة من فرق الجيش العثماني ثم استعملت في الفتوة المنحرفة إلى اليوم – نماذج من الفتوات في أدب الكاتب العالمي نجيب محفوظ.

سادسا: فتوات الحرب والغناء والكرم والرماية والصيد من صدى الجمع بين الفتوة الجاهلية والفتوة الإسلامية في العصر الأموي

(65 – 68)

فتيان الحجاز وتعاطي الغناء والشعر الرقيق من إرث بيئي قديم – انتقال الظاهرة إلى الأمصار الأخرى بالعراق وغيره – الفتيان يضيفون الضيفان ويغيثون اللهفان – ويتدربون على الرمي بالسهام – الفتوة والصيد والفروسية الرياضية.

سابعا : فتوة الغلمان الأتراك في عصر المعتصم العباسي تخفيفا من سيطرة العنصر العربي على الجيش النظامي – الفتوة هنا لا تنازع المشروعية العباسية في الشرف ولا في الحكم (69 – 70)

معاولات لتوجيه الفتوة وجهة بناءة عبر العصــور بـــين المشـــرق والمغرب (282 – 71)

أولا - فتوة الناصر العباسي وشعاراتها الرسمية وامتداداتها الواسعة عبر الأقاليم ونتائجها الوحدوية الإيجابية في الشعور الوجداني ضدا على روح التجزئة والأنانيات في الحكم (77- 80)

ثانيا - الفتوة العسكرية والإدارية والسياسية عند الأيوبيين المماليك وعوائدها على الأمة ضدا على العدوان الخارجي الساحق والانقسامات الداخلية (80 – 84)

ثالثا - فتوة تنظيم "الأَخِيَات"[1] في الأناضول وعوائدها على المجتمع المدني والتماسك الاقتصادي ومكافحة الفساد في الحكم والإدارة والتعاضد بين طوائف أهل الحرف والصناعات (85– 91)

رابعا - الفتوة الصوفية واستعادة الأدوار المضيئة من الفتوة المحمدية على صعيد الأخلاق والجمع بين الظاهر والباطن والتفاني في خدمة الجميع ونكران الذات وحفظ الأمة من الهزائم النفسية والأخلاقية في استقلال عن الدولة والتنظيمات الرسمية غالبا مع نماذج (93 – 281)

مقدمـــة (95)

- **النموذج الأول** : الفتى الأول المتخرج في مدرسة سيدات بيت النبوة وبيوتات الخلفاء (ص96–137).
- **النموذج الثاني** : تنظيم مصطلحات الفتوة والتصوف وتحديدها في كلام سيد الطائفتين من الفقهاء والصوفية الإمام الجنيد ببغداد. (ص138– 151)

---

[1] – بفتح اللام والهمزة وكسر الخاء.

• **النموذج الثالث** : أبو العباس السبتي وإنشاء مذهب جديد في الإنفاق والإحسان في عصر الأزمات الاقتصادية بمراكش إحياءًا وتجديدًا لمذهب الصحابي أبي ذر الغفاري بنجاح وفلاح واستمراريته نموذجا للمؤسسات الخيرية المهتمة بالأشخاص ذوي الحاجات الخاصة لا يزال أثره إلى اليوم ماديا ومعنويا كرامة له (ص**152– 189**).

• **النموذج الرابع** : الفتوة في صورة بطل خارق متصالح مع الطبيعة : وحيشها وهوائها ونباتها ومع الإنسان، ومتفاعل مع الكون كله، ووارث لأسرار ولايات المشرق والمغرب بالخدمة فأصبح المتصرف الأول في خدمة الجميع بحسب حاجات كل واحد مع كرامات وفيوضات رحمانية : " أبو يعزى إلى النور " من أعماق المغرب الموحدي شأن أبي العباس السبتي آنف الذكر (ص **190–229**)

• **النمـــوذج الخـــامس** : الفتـوة فـي مؤسسـة للتكويـن والـذكـر والإجتهاد والخدمة والجهاد عند الحدود من أنجب مريدي مدرسة الإمام الجزولي في شخص عبد العزيز التباع صانع الفتيان وناسج خطوط الحرير ومنشئ الأحرار. (ص**230- 248**)

• **النموذج الســادس** : الفتوة في شكل مشروع حضاري دفاعي عن الوجود والحدود عند الشيخ عبد القادر الجيلاني أستاذ الجميع ورائد أهل السنة والجماعة في نشر أخلاق الفتوة في الآفاق والأقطار حياته وبعد وفاته في مدارس ونماذج ورجالات حملوا مشروعه إلى الناس (ص**249–281**).

• **خاتمــة**

• **بيليوغــرافــيا** (ص**285–291**).

تمهيـد:

يبدو موضوع رفع الهمة والفتوة والشباب موضوعا مشوقا للقارئ والباحث والسامع، ومنذ زمان وذكريات الشباب وأمجاد الفتوة تطوف بالقلوب وترفع الهمم الراكدة وتضخ مزيدا من الدماء بمجرد تمثل هذه الفترة من تاريخ الأفراد والأمم والشعوب، حيث لاحظ حكماء التاريخ وأدباء العصور ومربو الأفراد والجماعات بأن أخصب فترات الأفراد والشعوب والأمم هي فترات النهوض والقفزات والتغلب على الصعاب والأزمات، وتحدي الضربات والنكسات وهي فترات شباب الأمة نفسها ونهوضها جماعات جماعات.

وكان للعرب عامة وللمسلمين خاصة من روح الفتوة والشباب ونفحات الرحمة التي تهب على قلوب المتذكرين لهذه الروح والمستعيدين عبر الأزمان لأسرارها ونفحاتها؛ من ذلك أحاديث وأحداث وتقلبات على مختلف الصعوبات وانتصارًا على عوامل الضعف والركون والإخلاد إلى الأرض، فترات مضيئة بالانتصارات على النفوس والشهوات والعقبات والتحديات، بما توفر من وقائع الوحي وخلاصة سيرة سيد البشر وسير صحابته ومن بعدهم أوصلت الأفراد والجماعات إلى أعلى الإنتاجات وأزكى العطاءات، بدلا من إهدار الطاقات الشابة في مسارب ومشارب ظاهرها إصلاحات ومنجزات وباطنها إفساد وانتهاكات، وهذا العمل يحاول ان يقتطف من هذه النهضات عبر تاريخ الأمة في مشرقها ومغربها بعد ذلك في نماذج وسلوكات من شأنها أن تعيد للقارئ الرغبة في الانضمام إلى هذه الأمثولات المباركات بحسب الشعبة من الإيمان التي ينطلق منها وبحسب استعداداته وتوفيق الله له إلى أعلى شعب الإسلام والإيمان والإحسان، متجنبا السقوط في نماذج أخرى من شعب الضلال والغواية وإن

بدت ظاهرة الاقتصاد في الجهد والوصول بأيسر الطرقات، والتي تطرق الكتاب إلى نماذج منها سارت في مسارب غير ذات جدوى في المآل؛ جعل الله هذا الجهد خالصا من كل شائبة نفسية شائنة ومحضه للنفع العام آمين.

الشباب والفتوة التي تمشي على الأرض هونا!
أو فتوة الصحابة بعد فتوات الجاهلية
في صحبته صلى الله عليه وسلم وتزكيته

❖ **من حديث اللغة العربية الفصحى عن الفتوة قديما :**

لفتت نظر الإنسان العربي هذه الفترة من الشباب والفتوة التغيرات التي تحدث أثناء المراهقة وبعدها في الخلقة والنشاط والذكاء والمبادرة فاستعملوا المادة (ف ت ي / ف ت و) في مختلف الاستعمالات شعرا ونثرا للذكور والإناث من الحيوان والإنسان :

- ففي الحيوان جاءت الأفتاء من الدواب خلاف المَسَانِّ واحده فتي مثل يتيم وأيتام .
- وفي الإنسان تفننوا في ذلك شعرا ونثرا في مثل ما أنشدوا للربيع ابن ضبع الفزاري :

إذا بلغ الفتى مائتين عاما ❖❖ فقد ذهب اللذاذة والفتاء

فقصر الفتى أولا ثم مده أخيرا

- و بملحظ الفتوة في الجسم والنضج في العقل والتجربة قال الشاعر :

ويل بزيد فتى شيخ ألوذ به فلا أعشَّى لدى زيد ولا أَرِدُ [1]

ففسر بمعنى : هو في حزم المشايخ .

- وفي معنى اكتمال صفات المروءة والنجدة استعملوا الفتى في قول شاعرهم :

إن الفتى حمال كل ملمة ليس الفتى بمنعم الشبان

- وبهذا المعنى الاكتمالي في الأخلاق قال الشاعر ابن هرمة آخر من يستشهد بشعره من المولدين في الإسلام :

---

[1] - قارن باللسان وتاج العروس مادة : ف ت ي

قد يدرك الشرف الفتى ورداؤه   خلق وجيب قميصه مرقوع [1]

- واستعملوا للأنثى الفتاة بالتاء في نحو قول الأسود بن يعفر يتحدث عن قوم خطب إليهم بعض الملوك فتاتهم فأبوا عليه فغزاهم وأجلاهم وقتل منهم :

ما بعد زيد في فتاة فرقوا   قتلا وسبيا بعد طول تآدي

فتخيروا الأرض الفضاء لعزهم   ويزيد رافدهم على الرُّفّاد

فلما وقع ذلك قال والد الفتاة متحديا :

أبيت أبيت نكاح المل   ـوك كأني امرؤ من تميم بن مرّ

أبيت اللئام وأقليهم   وهل ينكح العبد حر بن حر [2]

- ثم استعملوا هذه المادة في مختلف المجازات في نحو قول الشاعر :

❖ الحرب أول ما تكون فتية ❖

- واستعمل عليه السلام الفتى والفتاة للعبد والأمة على سبيل الابتعاد عن الاعتراف بالعبودية لغير الله وإن كانا في عمر الكهولة : فقال :

← " لا يقولن أحدكم عبدي وأمتي ولكن ليقل فتاي وفتاتي " أي غلامي وجاريتي كأنه كره ذلك [3].

- وسمى الله عز وجل خادم موسى بذلك أيضا في قوله تعالى (وإذا قال موسى لفتاه لا أبرح حتى أبلغ مجمع البحرين أو أمضي حقبا) [4].

---

[1] – قارن باللسان وتاج العروس مادة : ف ت ي.

[2] – قارن باللسان وتاج العروس مادة : ف ت ي.

[3] – الصحيحان : البخاري 2434 ومسلم 4275 وغيرهما بألفاظ متنوعة.

[4] – سورة الكهف : 60.

ودليل إرادة الخدمة قوله تعالى (آتنا غداءنا لقد لقينا من سفرنا هذا نصبا) [1].

- وسمى الله عز وجل الإماء بالفتيات في قوله تعالى (ومن لم يستطع منكم طولا أن ينكح المحصنات المومنات فمما ملكت أيمانكم من فتياتكم المومنات) [2]

- ومن هذه الاستعمالات المجازية للفتى بمعنى الكريم قالت ليلى الأخيلية :

فإن تكن القتلى بواءً [3] فإنكم   فتًى ما قتلتم آل عوف بن عامر

- وقالوا لليل والنهار من هذا القبيل في تجددهما وتعاقبهما :

« لا أفعل هذا الأمر ما اختلف الفتيان ».

❖ ثم ارتقوا بهذه المادة إلى معنى الإبانة الواضحة للأمر المبهم بملحظ هذا الوضوح والإشراق بعد الإبهام والغموض :

أفتى الرجل في هذه المسألة، وأنا استفتيته فيها فأفتاني إفتاءً وفتيا وفتوى، وأفتيت فلانا رؤيا رآها عبرتها له.

- وفي غريب الحديث : إن قوما تفاتوا إليه بمعنى تحاكموا إليه وارتفعوا إليه في الفتيا [4] قال الطرماح :

أنخ بفناء أشدق من عدي   ومن جرم وهم أهل التفاتي

---

[1] - سورة الكهف : 62.

[2] - سورة النساء : 25.

[3] - أي سواء والبواء أيضا يقال دم فلان بواء بدم فلان إذا كان كفؤا له (مختار الصحاح بوأ) وهو بفتح الباء.

[4] - لسان العـرب : فتى.

أي التحاكم والإفتاء، واصل ذلك من الفتى للشاب الحدث الذي شب وقوي فكأنه يقوي ما أشكل بيانه فيشب ويصير فتيا قويا ومنه في الحديث « والإثم ما حاك في النفس وإن أفتاك الناس وأفتوك »[1].

* ومن حديث الفتوة قبل الإسلام :

اختلطت الفتوة في الجاهلية بمعاني الشباب والصبا والطيش أحيانا في نحو قول طرفة يعرف الفتى :

ولولا ثلاث هن من لذة الفتى　　وَجَدِّكَ لم أحفل متى قام عودي
فمنهن سبقي العاذلات بشربة　　كميت متى ما تعل بالماء تزبد[2]

فذكر من ذلك أمورا من قبيل النجدة والفروسية ومعها أمور من قبيل البطالة والرَّفتْ واللهو المجون !

أما عروة ابن الورد سيد فتيان الجاهلية وصعاليكها فكان؛ إلى جانب الفروسية والعدو الشديد على الأحياء للغارة عليها عند الضرورة مما كان مصدر فخار عنده ومصدر عار عند ذوي المروءة؛ قد أضاف إلى ذلك من صفات الكرم والعطف على الفقراء والتضحية ونكران الذات وإيواء الفقراء الصعاليك عندما يفشلون في غاراتهم وسرقاتهم، فكان مصدر إعجاب رغم ذلك الوصف بالصعلكة حتى عند أمثال معاوية رضي الله عنه، حيث نقل عنه قوله : « لو كان

---

[1] - من أحاديث الأربعين النووية ورواه أحمد 17545 وحسنه المنذري والشوكاني والنووي وغيرهم.

[2] - تتممهما: وتقصير يوم الدجن والدجن معجب.·. ببهكنة تحت الخباء المعمد إلى آخر الأبيات الأربع.

لعروة بن الورد ولد لأحببت أن أتزوج إليه » [1] ولما سأل عمر بن الخطاب الحطيئة عن كيف كانت حروبهم! قال الحطيئة : كنا نأتم بشعر عروة في الحرب! [2]

ولا غرابة فقد كان عروة يأوي المهمشين المهددين بالبرد والجوع والمرض يحفر لهم الأسراب ويكنف عليهم الكن ويكسبهم، ومن قوي منهم بعد مرض أو ضعف خرج به فأغار حتى إذا أخصب الناس ألحق كل إنسان بأهله وقسَّم لهم ما غنموا، فربما أتى أحدهم أهله وقد استغنى! ومن شعر الشنفري الفتى الصعلوك في لاميته المسماة بلامية العرب قوله منوها بهذه الصفات :

وإن مدت الأيدي إلى الزاد لم أكـن ... بأعجلهم إذ أجشع القوم أعجـل

ومـا ذاك إلا بسطـة عـن تفضـل ... عليهم وكان الأفضل المتفضـل

أديم مطال الجـوع حتى أميتـه ... وأضرب عنه الذكر صفحا فأذهـل

وأستفُّ ترب الأرض كي لا يرى له ... علي من الطول[3] أمر متطـاول

ولكن نفسا حرة لا تقيـم بي ... على الضيم إلا ريثما أتحـول

❖ ومن مشاهير فتيان الجاهلية وفقرائها ذوي النجدة والفتوة واحترام الحرم المكي واستضافة الحجاج وعدم التعرض لركب الحاج من قبيلة هذيل أبو خراش[4] المخضرم الذي عاش طرفا من جاهليته والذي أجبرته الظروف بمقتل عدد من إخوته على أيدي كنانة وفهم وثمالة فانبعث يغزو، مع شجاعة وكرم وعفة وشدة

---

[1] – انظر في الأغاني : أخبار عروة بن الورد ونسبه.

[2] – انظر في الأغاني : أخبار عروة بن الورد ونسبه.

[3] – بفتح الطاء وهو الغنى والقدرة على العطاء.

[4] – أبو خراش الهذلي خويلد بن مرة.

اصطبار، وسط قبيلة هذيل وله أبيات شعرية في الفخار ببصره وفتوته وتحمله الكل وقراه الضيوف، مما هو من كمال الفتوة الجاهلية والمروءة والقبلية.

❖ وإلى جانب هذه الفتوة المتشردة، إن صح التعبير، هناك الفتوة التي تحاول ان تسمو فوق هذا النوع من الشعور بالدونية مثلما يصوره عنترة العبسي وأضرابه من النزعة الفروسية ومعها الشهامة والنجدة وغض الطرف عن الجارة والإخلاص للحبيبة الأولى مما تصوره معلقته أحسن تصوير تختلط فيها صفات الانعتاق من العبودية النسبية إلى التحلي بفضائل الفروسية التي اشتهر بها الحر الكريم المنجد الباذل نفسه في خدمة الحمى والحريم والقبيلة في نحو قوله :

واغض طرفي ما بدت لي جارتي　　　حتى يواري جارتي مأواها

وقوله :

هلا سألت الخيل يا بنة مالك　　　إن كنت جاهلة بما لم تعلمي

يخبرك من شهد الوقيعة إنني　　　أغشى الوغى وأعف عند المغنم

❖ وإلى جانب هذا كله هنالك الفتوة الممزوجة بالمروءة والوفاء والكرم والنجدة عند الفتيان الشرفاء الذين استطاعوا أن يجمعوا خصال المروءة من جوانبها أمثال حاتم الطائي والسموأل بن عاديا مع شيء من أخلاق بقايا الحنيفية السمحة واليهودية الشريفة، وقد اشتهرت قصيدة السموأل بن عاديا في رسم هذا العمود من المكارم في أحلك ساعات الاختيار وأشدها إحراجا إلى درجة التضحية بأعز فلذات كبده وفاءً بوعد قطعه على نفسه حتى قال فيه الشاعر الفحل الأعشى (629م) وقد اتخذه النموذج الأعلى في السماحة والصفح والوفاء :

كن كالسموأل إذا طاف الهمام به ... في جحفل كسواد الليل جرَّار
بالأبلق الفرد من تيمآء منزله ... حصن حصين وجار غير غدار
فقال ثُكْل وغدر انت بينهما ... فاختر! فما فيهما حظ لمختار
فشك غير طويل! ثم قال له ... اقتل أسيرك إني مانع جاري
وقال لا أشتري عارا بمكرمة ... واختار مكرمة الدنيا على العار
والصبر منه قديما شيمة خلق ... وزَنْدُه في الوفاء الثاقب الواري[1]

وقد اشتهرت قصيدته في مكارم الأخلاق ومحاسن الشيم عند الفتى العربي الشريف الناشئ في أحضان المكارم ومنه قوله (بتصرف)

إذا المرء لم يدنس من اللؤم عرضه ... فكل رداء يرتديه جميل
إذا سيد منا خلا قام سيد ... قؤول لما قال الكرام فعول
وما خمدت نار لنا دون طارق ... ولا ذمنا في النازلين نزيل
تعيرنا أنا قليل عديدنا ... فقلت لها : إن الكرام قليل

[1] – انظر ديوان الأعشى تحقيق محمد محمد حسين : حرف الراء.

ومـا قـل مـن كـانـت بقاياه مثلنا شبـــاب تـسامـــى للعـــلى وكهـــول
صفـونا فلـم نكدر وأخلص سرنا إنـــاث أطـابـــت حملنـــا وفحـــول
إذا سيـد منـــا خــلا قـــام سيـــد قـــؤول لمـــا قـــال الكــــرام فعـــول[1]

<u>خياركم في الجاهلية خياركم في الإسلام إذا فقهوا</u> [2]:

جـاء الله بالإسـلام إلى هـذا المجتمـع الـذي اعتصـرته الأحـداث والوقـائع والأزمات فاستخلصت أحسن ما فيه من الفضائل وأردأ ما فيه من الرذائل في ازدواجية أحيانا متناقضة وفي استصفاءات أخرى متكاملة تسعى نحو الخيرة والانسجام و تترقب التغيير؛ و ذلك ما حصل باختيار الله عز و جل هذا الشعب الأمي الفطري الطباع المصهور بفعل القهرَ الداخلي و الخارجي الذي عاش على هامش الحضارتين العالميتين في عصرهما قريبا منهما بعيدا عنهما يستخلص أجمل ما عندهما من الإنتاج وأفضله ويزودهما بأفضل ما ينتخبه ذوقه الشاعري المرهف في ذوق عروبي رفيع وكلام قريب من الإعجاز بيانا وصورا وتركيزا وحياة أشبه بحياة الزهاد في الممتلكات والأدوات والسكنى والأجسام الرشيقة والملامح الجمالية النموذجية والفروسية النافذة وسرعة البديهة التي تقتضيها تقلبات البيئة من حوله في كل لحظة!

وهكذا أقر الإسلام كثيرا من أخلاق الفتوة الجاهلية ولكن بعد أن هذبها وحولها من فضائل فردية أو قبلية دنيوية إلى أخلاق ربانية عبودية، فأخذ مفهوم الفتوة بالإسلام منعطفا متميزا، حيث أبقى أخلاق الشهامة والكرم وحماية

---

[1] – ديوان السموأل تحقيق وشرح عيسى سابا مكتبة صادر حرف اللام.

[2] – حديث شريف أخرجه الشيخان وغيرها عن أبي هريرة عبد الرحمان بن صخر.

الضعيف واندثرت تدريجيا أخلاق العنجهية الجاهلية والفخار بالآباء والانتفاج بالعطاء والفروسية الجوفاء!

بعض أوجه صرف الفتوة في عهد الرسول صلى الله عليه وسلم :

اعتمد عليه السلام في دعوته مثل سائر من تقدمه من الأنبياء والرسل ذوي الفتوة والشباب في قولة ابن عباس : ما بعث الله نبيا إلا وهو شاب ولا أوتي العلم عالم إلا وهو شاب وقرأ ﴿ قالوا سمعنا فتى يذكرهم يقال له إبراهيم ﴾ [1] و﴿ إذ قال موسى لفتاه ﴾ [2] و ﴿ إنهم فتية آمنوا بربهم[3] ﴾ [4] ، وهكذا نبئ يوسف في السجن وهو فتى وأتى الله الحكم ليحيى في عهد الصبا وجاء الإنجيل لعيسى عليه السلام فتى يجادل علماء الهيكل وهو في سن الثلاثين أوحي إليه ثم رفعه الله إليه فرآه عليه السلام في المعراج شابا أبيض [5] ، وهكذا بعث الله الرسول عليه السلام في كمال الفتوة وقمة الشباب : فعن أنس : « أقبل نبي الله صلى الله عليه وسلم وهو مردف أبا بكر – أي عند الدخول إلى المدينة في الهجرة وأبو بكر شيخ يعرف ، ونبي الله صلى الله عليه وسلم شاب لا يعرف» [6].

❖ **أما صحابته الأولون البارزون واللاحقون فكان معظمهم شبابا** : بدءا بعلي بن أبي طالب الذي بقي شاب النفس والأخلاق فتى المروءة والشجاعة إلى حين

---

[1] – سورة الأنبياء : 60.

[2] – سورة الكهف : 80.

[3] – سورة الكهف : 13.

[4] – الدر المنثور 371/5.

[5] – مسند أحمد 274/1.

[6] – صحيح البخاري : كتاب مناقب الأنصار حديث رقم 3911.

استشهاده أسلم وهو ابن ست عشرة سنة وسعد بـن أبي وقـاص ابـن سبع عشـرة وعامر بن فهيرة الذي استشهد يوم بئر معونة سنة أربع وهـو ابـن الأربعـين في تمـام الفتوة [1] وكذلك سعد بن معاذ استشهد يوم الخندق سنة **15** للهجرة وهو لا يـزال فتى في السبع والثلاثين سنة مـن عمـره! وتـولى أسـامة بـن زيـد قيـادة الجيش وهـو دون العشرين!

❖ <u>الرسول يحول الفتوة الجاهلية إلى فتوة منضبطة بناءة</u> :

عرف عليه السلام معدن الشباب الحار ونفسه الفوارة وطموحه العالي وشهوته الجبارة فأخذ بزمامها وصرفها إلى اعالي المكارم ومعالي الأمور حتى لا تنتظر كثيرا فتتحول إلى مسارب اللهو والفراغ والترف ومهابط الشهوات :

فبالإضافة إلى ما تقدم من فرسان الشباب وقادتهم في مختلف الميادين البناءة والمناقب الجديدة والإبداع في العلم والاستنباط والقول والفروسية والتعليم والمهمات الصعبة، حرص عليه السلام على :

❖ توجيه غرائزهم القوية نحو الزواج في ندائه المشهور : « يا معشر الشباب من استطاع منكم الباءة فليتزوج الحديث .... » [2]

❖ كما حرص على ابتعاثهم لتعليم القرآن والأحكام في نحو ما فعل مع الشاب القرشي الشريف مصعب بن عمير الذي كان سببا في فتح المدينة بالقرآن والإمامة والتعليم.

❖ كما حرص على إبعادهم من التغالي في العبادات مثلما فعل مع الشباب الثلاثة الذين كأنهم تقالوا عبادته عليه السلام فنهاهم وردهم إلى الوسطية والاعتدال.

---

[1] – ابن سعد : الطبقات الكبرى 231/2.

[2] – أخرجه البخاري برقم 1905 وغيره.

❖ كما حرص على عدم استغلال حماس المراهقين من الشباب وردهم عن المشاركة في الحروب رغم الحاجة إليهم بعد استعراضهم واختبار قوتهم واصطبارهم وتحملهم حتى بقي في نفس بعضهم شيء من ذلك الرد.

❖ وحرص على تعليم الفتيان أنواع الرياضات إعدادا لهم وتدريبا وامتصاصا لمزيد طاقاتهم في الإيجابيات من الاعمال، في نحو ما قال لجماعة منهم " ارموا بني اسماعيل !فإن أباكم كان راميا، ارموا وأنا مع بني فلان! فأمسك أحد الفريقين بأيديهم! فقال عليه السلام : ما لكم لا ترمون! قالوا : كيف نرمي وانت معهم؟ قال : ارموا فأنا معكم ومعهم "[1].

❖ وعامل عليه السلام الشباب بالمزيد من الرفق والرحمة في تربيتهم وإعدادهم لتعليم أقوامهم وقد أقاموا عنده بالمدينة عشرين ليلة كما في حديث مالك بن الحويرث عند مسلم[2].

❖ وآوى مجموعة منهم للتعلم والتأدب والعبادة في صفة المسجد حتى تميزوا عن غيرهم بصفات اقتبسوها من كثرة ملازمتهم له صلى الله عليه وسلم وإطلاعهم على أحواله الخاصة ونقلهم حديثه إلى الناس بعد ذلك أوعية للعلم والحكم والسلوك المحمدي المثالي والعبادة والتهجد والنظافة والمدنية بعد أن جاء كل واحد منهم بأخلاق البادية وما فيها من صبو وفجاجة مهاجرا بها إلى أخلاق المدينة السمحة المعطاء الباذلة من كرمها ومحاسن شيمها ومكارم أخلاق نبيها الكثير.

❖ توجيهه عليه السلام بعض شباب الأنصار السبعين إلى التدارس والعبادة في ناحية خارج المسجد فإذا قرب الصباح استعذبوا من مياه آبار المدينة واحتطبوا من

---

[1] - البخاري كتاب الجهاد باب التحريض على الرمي.

[2] - صحيح مسلم 466/1.

حطبها ثم قدموا بذلك فأسندوه إلى حجرته صلى الله عليه وسلم وعندما ناداهم منادي الجهاد ذهبوا إليه رغبة واشتياقا فحصلوا جميعا على الشهادة يوم بئر[1] معونة ودعا رسول الله صلى الله عليه وسلم على قاتلهم خمسة عشر يوما في صلاة الغداة بسبب الغدر بهم وقد بعثوا قراء في الأصل ومعلمين!

❖ حرصه عليه السلام على عدم إجهاد الشباب وتعمقه في الأمور في مثل ما وقع للفتى عبد الله بن عمرو بن العاص المتوقد ذكاء والذي جمع القرآن وبدأ يقرأ به كل ليلة فلما بلغه صلى الله عليه وسلم من أمره قال له : إني أخشى أن يطول عليك زمان تمل! اقرأه في كل شهر!

- فقلت يا رسول الله : دعني أستمتع من قوتي وشبابي! فقال : اقرأه في عشر!

- فقلت يا رسول الله : دعني أستمتع من قوتي وشبابي!

- اقرأه في كل سبع!

- فقلت : يارسول الله! دعني أستمتع من قوتي وشبابي! فأبى[2]

❖ وحرص عليه السلام على إخضاع الشباب لحكم الأغلبية ولو كانت على شيء من الخطأ في نحو ما وقع في غزوة أحد قبل الخروج من المدينة إلى جهة أحد فاختار الشباب الخروج وكانوا أغلبية فنزل عليه السلام عند اختيارهم ولو ظهر له أنه كان رأيا مرجوحا وذلك تعليما وتأديبا واعتبارا بالخسائر ومرارة الهزيمة واستيعابا لدرس الاختيار وعواقبه في الأمور المحتاجة إلى ترجيح .

---

[1] – يوم بئر معونة من أيام الإسلام في المدينة على رأس ستة وثلاثين شهرا بعد الهجرة.

[2] – مسند أحمد 163/2 وهو في الصحيحين مطولا.

❖ وكما حرص عليه السلام على هذا التوجيه إلى معالي الأمور حرص على ملء فراغ الشباب بالإيجابي من الأقوال والأعمال وأمر باغتنام فرصة الشباب في تحقيق المنجزات في حديثه المشهور " اغتنم خمسا قبل خمس "[1]
وحديثه الآخر « لا تزول قدما عبد يوم القيامة حتى يسأل عن أربع .... وعن شبابه فيما أبلاه الحديث »[2]

❖ وفي الاعتماد على الخالق في العبودية والسؤال والاستعانة اشتهر حديث ابن عباس وتوجيهاته عليه السلام له وكان فتى شابا رديفا له عليه السلام كما عند الإمام أحمد وغيره " يا غلام! إني أعلمك كلمات : احفظ الله يحفظك احفظ الله تجده تجاهك! إذا سألت فاسأل الله! وإذا استعنت فاستعن بالله"[3].

❖ ويختار عليه السلام بعض الشباب اليقظ الشجاع المستعد لتنفيذ بعض المهمات الاستثنائية المحمودة العواقب فيعطي الإذن لعلي رضي الله عنه في المبيت مكانه عند الهجرة، ومثلما فعل عقب أحد مباشرة واندفاع الشباب فيها حيث وجه مجموعة قليلة من شباب القراء إلى قبائل عضل والقارة ليفقهوهم في الدين ويعلموهم شرائع الإسلام فلما انفردوا بهم قتلوهم غدرا شهداء العلم والتعليم والمجاهدة بالقرآن وانخداعا بحسن كلام القبيلتين حتى نزل في ذلك قرآن يتلى إلى قيام الساعة ﴿ومن الناس من يعجبك قوله في الحياة الدنيا ويشهد الله على ما في قلبه وهو ألد الخصام وإذا تولى سعى في الأرض ليفسد فيها ويهلك الحرث والنسل والله لا يحب الفساد﴾[4].

---

[1] – صحيح على شرط الشيخين وهو عند الحاكم في المستدرك 7846 وابن أبي شيبة 34319 وغيرهما.

[2] – الترمذي كتاب القيامة: 1، وسنده صحيح.

[3] – الحديث بطوله في المسند وهو صحيح.

[4] – البقرة 204–206.

❖ **جمعه صلى الله عليه وسلم لما تفرق في غيره من خصال الفتوة ومكارمهما**

المتتبع لشمائله عليه السلام في عيون الواصفين والواصفات له يبدو له عليه السلام أتم الفتيان وأكملهم خصالا وأعلاهم شمائل وأكثرهم جمعا لما تفرق في غيره من الفتيان.

وقد جمعت السيدة الذكية الوصافة خديجة زوجه عليه السلام هذه الأوصاف عندما أشعرته بذلك عندما نزل عليه الوحي وخاف على نفسه قائلة : « أبشر يا ابن العم واثبت ! فو الذي نفس خديجة بيدها إني لأرجو أن تكون نَبيَّ هذه الأمة ! والله لا يخزيك الله أبدا !

- إنك لتصل الرحم
- وتصدق الحديث
- وتحمل الكَلَّ
- وتقري الضيف
- وتعين على نوائب الحق» [1].

أما رفيقه المعجب بشخصه وابن عمه وربيبه في بيته الشاب الفتى علي بن أبي طالب فيصف من علامات فتوته الظاهرية مثل قوله عنه :

- جليل المشاش والكتد [2]
- شثن الكفين والقدمين [3]

---

[1] – ساقته كتب السيرة وهو عند البخاري في بدء الوحي عن عائشة رضي الله عنها وعند مسلم وأحمد وغيرها.

[2] – والمشاش العضام وملتقاها، والكتد مجتمع الكتفين. والأول بضم الميم والثاني بفتح الكاف وهو بتسكين الشيـــن.

[3] – أي غليظهما دليلا على القوة.

- أجود الناس كفا.
- وأجرأ الناس صدرا!
- وأصدق الناس لهجة!
- وأوفى الناس ذمة!
- وألينهم عريكة!
- وأكرمهم عشرة!
- من رآه بديهة هابه ! !
- ومن خالطه أحبه ! وتواترت هذه الأوصاف في كتب الشمائل من جانب أناس شاهدوا منه هذه الخصال المميزة صلى الله عليه وسلم [1] .

❖ وهذه شهادة أخرى لجعفر بن أبي طالب أمام النجاشي في وصفه صلى الله عليه وسلم وما تميزت به بعثته من المكارم المحببة إلى الناس :

« أيها الملك! كنا قوما أهل جاهلية :

- نعبد الأصنام !
- ونأكل الميتة !
- ونأتي الفواحش !
- ونقطع الأرحام !
- ونسيء الجوار !
- ويأكل القوي منا الضعيف !

.... فكنا على ذلك حتى بعث الله إلينا رسولا منا :

---

[1] – راجع مسند أحمد 1067– 1069 و مصنف ابن أبي شيبة 32340.

- نعرف نسبه !
- وصدقه !
- وأمانته !
- وعفافه ...
- فدعانا إلى الله لنوحده ،
- ونعبده
- ونخلع ما كنا نعبد نحن وآباؤنا من الحجارة والأوثان!
- وأمرنا بصدق الحديث
- وأداء الأمانة
- وصلة الرحم
- وحسن الجوار
- والكف عن المحارم والدماء
- ونهانا عن الفواحش
- وقول الزور
- وأكل مال اليتيم !

وقذف المحصنات! »[1]

❖ وجمعت السيدة عائشة أم المؤمنين كمال فتوته صلى الله عليه وسلم في كلمة واحدة عندما سئلت عن خلقه فقالت : « كان خلقه القرآن »! مشيرة إلى معنى قول الله عز وجل ﴿ وإنك لعلى خلق عظيم[2] ﴾[3].

[1] - راجع ابن هشام 415/1.

[2] - سورة القلم : 4 .

[3] - و الحديث أخرجه احمد 118/6 والنسائي وراجع تحفة الأشراف 16049/11.

الشباب والفتوة
بعيد وفاته صلى الله عليه وسلم وما بعدها
في عصر الفتنة في مسارب أخرى

<u>أولا</u> : فتوة التكفير عند الخوارج على الجماعة.

<u>ثانيا</u> : فتوة القرامطة والزنج على خطى الخوارج.

<u>ثالثا</u> : فتوة جماعة الباطنية أتباع الحسن بن الصباح.

<u>رابعا</u> : فتوة العيارين والشطار واستعادة فتوة الصعاليك.

<u>خامسا</u> : فتوة الفتوات والحرافيش والزعار والبلطجية بمصر.

<u>سادسا</u> : فتوة الغناء والطرب والكرم والرماية والصيد.

<u>سابعا</u> : فتوة إدماج الغلمان الأتراك بديلا عن الجنود عند المعتصم العباسي.

* الفتوة بعد وفاته عليه السلام في مسارب ومشارب :

يأبى الله إلا أن تبتلى هذه الامة بعد وفاته عليه السلام وتمتحن مكوناتها اول مرة و تنقدح للأمة من الأحداث والفتن بعد عصر الخليفتين الراشدين وفي عصرهما ما جعل الجميع تحت أوضاع جديدة وتحديات كبرى وفتوحات ومعارك ومشكلات جدت وآراء انقدحت من الميدان وتكوين الأشخاص فتباينت واختلفت والتقت وائتلفت، مما أخبر به عليه السلام في حياته وحذر من اتساع شقته وهو الذي وصفه ربه بأنه الحريص على الأمة العزيز عليه ما أصابها أو يصيبها من العنت والمحنة أو ما من شأنه أن يحرف اتجاهها : في رحمة بكل مومن ورأفة به كرأفة الأم بوليدها الجاسر على محيطه المشاكس لمن حوله حتى قال عنه ربه ﴿ لقد جاءكم رسول من أنفسكم عزيز عليه ما عنتم حريص عليكم بالمؤمنين رءوف رحيم﴾[1].

* المسرب الشرود عن الجماعة والعامة والوسط والعدل :

*أولا : فتوة الخوارج المكفرة والفتية الشجعان المتهالكين على الموت:

بدأت بوادر هذا المسرب في خلافة الشهيد ذي النورين بعدما وقع من انهدام باب التحصين والحماية باستشهاد عمر رضي الله عنه على يد احد الخارجين عن الخط الوسط العدل فكثر في عهد عثمان في هوامش العاصمة بين البصرة والكوفة ومصر حتى بلغ إلى المدينة فكان من ذلك استشهاده على يد معارضة من شباب القراء وأتباعهم أصيبوا بداء النقد والانتقاد ونظرة النقص إلى الآخر وجعلوا من أنفسهم محاسبين ومحاكمين للنظام العام الممزوج بالرغبات

---

[1] – سورة التوبة : 128.

البشرية والأخطاء الاجتهادية ونزعات التخفف من الشطف والزهد عند آخرين، فكان ما كان وشبت نار الشباب حتى التوت في أحضان الخليفة الفتو القارئ الأول علي بن أبي طالب فترة قبل أن تنشب بعيدا عنه في أنحاء الخلافة مستغلة الانقسام الواقع بعد استشهاد عثمان بين أنصاره بدمشق ومصر وأنصار الإمام بالكوفة وأنصار السيدة عائشة رضي الله عنها بالمدينة، فكان ما كان من هؤلاء الفتيان الفرسان بالنهار والرهبان بالليل الذين أخبر الرسول صلى الله عليه وسلم عنهم في قصة ذي الخويصرة الذي سيخرج من صنفه في التشدد أناس يحقر أحدنا صلاتهم إلى صلاته وصيامه إلى صيامهم على جباههم كأثافي الإبل يقرؤون القرآن كأحسن ما تكون القراءة لا يتجاوز حناجرهم ولكنهم مع كل هذا سيمرقون من الدين كما يمرق السهم من الرمية كما في الحديث الصحيح [1].

هذا نوع من الفتوة الجامحة المتمردة على الخلفاء الراشدين ومن بعدهم عانى منها العالم الإسلامي قرونا وقرونا ولا يزال، يرون لأنفسهم الحق كل الحق في إصدار الأحكام على الخلق معتقدين الكمال والفتوة والشهامة والحق فيهم والفسوق والفجور والعصيان والكفر في غيرهم، عزلوا أنفسهم عن الجماعة في الشعاب والغيران والجبال والبيوت وصنعوا لأنفسهم رؤوسا و قادة وموجهين على مقياس اعتقادهم وأعمالهم، وأنتجوا أدبا مليئا بمعاني الثورة والنضال والجهاد ضد خصومهم من الموحدين من أهل القبلة.

فكانت فتوتهم هذه مضرب المثل في التفاني ونكران الذات والتضحية بالنفس والنفيس في سبيل خدمة المبدأ مع آداب وأخلاق وشهامة وكرم واستماتة

---

[1] – الحديث في الصحيحين وغيرهما عن عدد من الصحابة أشهرهم أبو هريرة وابن عباس وقارن بمسند أحمد رقم 12376 و 12204.

سجلها ديوان العرب وتاريخ الشعر والنثر رغم ما هم عليه من شرود عن الجماعة!

* **ولكن هذه الفتوة والشهامة إلى جانب مساوئهم الاعتقادية والعملية تبدو مجرد غرور وانتفاش وانتفاضة من الشباب ضد الجماعة مع تبني الآراء الشاذة في:**

1/ البراءة من الخليفتين الراشدين : عثمان وعلي رضي الله عنهما.

2/ والخروج بالتالي على من بعدهم ومعهم من الحكام إذا خالفوا معتقدهم التكفيري.

3/ وتكفير أصحاب الذنوب والكبائر.

4/ وتجويز الإمامة العظمى بقطع النظر عن الشروط المجمع عليها ونفي بعضهم الحاجة إلى الإمام.

5/ وأسقطوا بعض الحدود كالرجم والقذف على المحصنين من الرجال.

6/ وأنكر بعضهم سورة يوسف لاستبعادهم أن يكون القرآن فيه حديث عن العشق والحب.

7/ وأوجبوا قضاء الصلاة على الحائض فخالفوا النص والإجماع.

8/ وأجازوا قتل أهل الإسلام وتركوا المشركين متأولين للآية ﴿ **وإن أحد من المشركين استجارك فأجره حتى يسمع كلام الله ثم أبلغه مأمنه** ﴾[1]

فكان المسلم يضطر عند الوقوع بين أيديهم إلى إعلان شركه حتى ينجو من القتل!!!

---

[1] - سورة التوبة : 6.

9/ وحرصوا على حلق رؤوسهم وترك الدنانير وحفرها على جباههم كما في حديث أبي سعيد في الصحيح.

10/ فانطبق عليهم حديثه عليه السلام بأنهم شر قتلى تحت أديم السماء [1].

* ومن أشهر أشعارهم في الفروسية والصبر على القتال أبيات شـاعرهم قطري بن الفجاءة ومنها :

أقـول لهـا وقـد طارت شعاعـا   مـن الأبطـال: ويحـك لـن تراعـي!؟

فـإنـك لـو سألـت بقـاء يـوم   عـن الأجـل الـذي لـك لـم تطـاعي

فصـبرا في مجـال المـوت صـبرا   فمـا نيـل الخلـود بمستطـاع [2]

❖ ومن أشهر أشعارهم في الترامي إلى الموت والتفاني في الاستعداد له شعر أم حكيم الخارجية وهي القائلة ويا للعجب ! (ونعوذ بالله من تمني الموت)

أحمل رأسا قد سئمت حملها   وقـد مللت دهنها وغسلها

ألا فتى يحمل عني ثقلها ؟

* كما اشتهروا بالغلو في العبادة اعتقادا منهم بأن ذلك سبيل التفوق على غيرهم وداعية إلى التميز حتى قال شاعرهم عمرو بن عميرة العنبري:

معي كل أواه [3] برى الصوم جسمه   ففي الوجه منه نكهة وشحوب

---

[1] – كما عند الطبراني مرفوعا وأنهم كلاب أهل النار كما في حديث أحمد.

[2] – اسمه غير المشهور جعونة بن مازن الكلبي ولقب بقطري نسبة إلى قطر ويسمى بأمير المومنين عند أصحابه من رؤساء الأزارقة وأبطالهم.

[3] – الأواه الكثير التفجع والتأوه من أثر العبادة والقراءة كما وصف به إبراهيم عليه السلام.

وقال شاعرهم قيس اللاحم :

صلـى الإله علـى قـوم شهـدتهـم كانوا إذا ذكروا أو ذُكِّرُوا شَهِقوا !

❖ ولم يكونوا مع ذلك وبسبب هذا الحرص على الزهادة يتكسبون بشعرهم حتى انتقد عمران بن حطان الشاعر المشهور الفرزدق فقال :

أيهـــا المـــادح العبــاد لتعطـــى إن للـــه مـــا بـأيـــدي العبـــاد

فاســـأل الله مـــن طلبـــت إلـيهم وارج فضـــل المقســـم العـــواد

لا تقــل في الجــواد مــا لـيس فيـه وتـسمـــي البخيـــل باســـم الجـــواد

* استهواء النساء والمرأة إلى مذهبهم وصقل مواهبهن لقـول الشـعر والافتخار بالموت، وقد اشتهرت من بين النساء الخارجيات أم حكيم التي تشبب بها قطري بن الفجاءة لجمال وجهها رغم شحوبه وقد عظمها الخوارج وطبلوا لها وشهروها.

وكذلك مريم الجعيداء امرأة أبي حمزة الخارجي والتي قالت مرتجزة :

من سال عن إسمي فإسمي مريم بعت سـواري بسيـف مخـذمْ [1]

* ومن أفقه شعرائهم وأكثـرهم طلبـا للحـديث بالبصـرة قبـل الانضمام إليهم: عمران بن حطان

- ولعل هذا مما جعله ذا طبع خاص يميل إلى النكوص عن الموت — الشاعر الخطيب المتواري عن الحجاج وقواد الدولة ؛ عمران بن حطان، وكان قد التقى بابنة عمه حمزة فأحبها وتزوج بها فجذبته إلى مذهبهم، ومع ذلك كان يحب

[1] – المخذم من السيوف القاطع السريع (انظر اللسان : خذم) ووزنه مفعل بكسر الميم اسم آلة. وأضيفت الهمزة إلـى الإسم للضرورة

الحياة حبا جما، فجاء شعره قلقا صادقا تخترق جمود العقيدة فيه خيوط من حرارة الحياة وتناقضاتها، ولما اشتهر أمره طلبه الحجاج وطارده من بلد إلى آخر، تارة بالشام عند روح بن زنباع الجذامي وقد ترك له بعد فراره قصيدة اعتذار ومنها :

يا رَوْحُ ! كم من أخي مثوى نزلت به　　قد ظن ظنك من لخم وغسان

إلى أن قال :

لو كنت مستغفرا يوما لطاغية　　كنت المقدم في سري وإعلاني

ونزل بالجزيرة عند زفر بن الحارث الكلابي زعيم قرقسيا [1] وادعى أنه صَحَّ أوزاعي ثم انكشف أمره ففر وقال :

إن التي أصبحت يعيا بها زفر　　أعيت عياء على روح بن زنباع [2]

❖ ثم ارتحل إلى عمان واستقر أخيرا بالكوفة ونزل على قوم من الأزد فلم يسألوه عن حقيقة أمره وبقي عندهم إلى أن مات! ولذلك كان شعره مصورا لهذه المخاوف والعواطف المشبوبة والعقيدة التي أشربها من زوجه، فجاء متين السبك، حتى اقترب به من مذاهب القدماء على خلاف معظم شهر الخوارج الذي جاء وسطا حينا وعاديا مكررا أحيانا! إلا ما استثني مما تقدم! [3]

---

[1] – موضع عند مصب الخابور على الفرات والقرية الآن أطلال.

[2] – صاحب الشرطة أيام عبد الملك مروان تفرس في مهارة الحجاج فقدمه إلى الخليفة.

[3] – انظر أخبار الخوارج في الكامل للمبرد وفي كتب تاريخ الإسلام للذهبي وغيره وخاصة وقعة صفين لنصر بن مزاحم المنقري ت 212 هـ ، وطبقات ابن سعد ت 230 هـ وتاريخ خليفة بن خياط العصفري ت 240 هـ والإمامة والسياسة للدينوري ت 276 هـ وأنساب الأشراف للبلاذري ت 279 هـ والكامل للمبرد ت 286هـ.

وهو نموذج للمحدث المنظاهر بالسنة وأقوال الرسول ولكنه تورط في حب خارجية فأهدم دمه فتقلب بين النفاق والكذب خوف الموت والشهادة والعياذ بالله !!

*ثانيا: فتوة القرامطة[1] والزنج على خطى الخوارج :

وقد اشتهرت بذلك تجربة القرامطة الزنج والعبيد المنضمين إليهم والزط والغجر برئاسة حمدان بن الأشعث الملقب بـ " قرمط " لقصر قامته وساقيه من خوزستان في الأهواز قبل أن يرحل إلى الكوفة.

وفي سنة 278هـ في عصر العباسيين نهض للدعوة وبنى دار الهجرة وغير في بعض الشعائر واعتبر أهل السنة والعباسيين والذين خذلوا عليًّا أعداء!

والقرامطة والزط والغجر، بسبب لون بشرتهم الداكن، من الهند والسند واستؤجروا منذ القديم تارة في الجيوش المرتزقة وأخرى في الشرطة وحراسة السجون بالبصرة واختصوا بالعمل في الفلاحة البحرية واستعان بهم الخلفاء تارة في اللفيف المساعد وكانوا في وقعة الجمل مثلا من أشياع علي كرم الله وجهه، واستعان بهم معاوية في ثغور الشام أيضا لاختصاصهم البحري وبسبب جلدهم وتحرسهم في القتال حتى تولى المامون 201هـ فثاروا وقطعوا الطرقات، وكانوا قد اتخذوا من أهوار العراق الصعبة المسالك والمياه والمرجات، فعاثوا بالبصرة ونهبوا الغلال وانضم إليهم نفر من العبيد حتى استحكموا سنة 205هـ من المنطقة جنوب العراق كله وقطعوا بين واسط و العراق وجنوبه وحاربهم المامون! ومع ذلك استمروا إلى زمن المعتصم الذي كلف القائد عجيف بن عنبسة[2] عام 219هـ بحربهم بعد أن جمع عديد المعلومات الدقيقة عن أماكنهم فقطع عنهم المياه وسد تفرعات الأنهار حتى جفت المواقع ثم هاجمهم

---

[1] – ينظر في أخبارهم كتاب " الجامع في أخبار القرامطة " لسهيل زكار.

[2] –قائد بحري من كنافة تَتَصَّبع حركات القرامطة "بالبريد" بدقة حتى عرف مداخلهم ومخارجهم.

فاستسلموا وأسروا ونقلوا إلى بغداد وهم حوالي 1200 مقاتل و15000 امرأة وطفل ثم إلى الأناضول ثم استاقهم الروم عام 241هـ وممتلكاتهم إلى أوروبا، وبقي قليل منهم وفيهم أبو حاتم الزطي عام 295هـ فالتحق ببقايا القرامطة وتزعمهم [1].

وهكذا استمرت ثورة القرامطة تتوسع في جيوب الخلافة العباسية لكثرة أتباعها من الفلاحين والعمال بسبب الأحوال الاقتصادية المتردية والثورات، متحدية بشر الإرهاب والقتل العشوائي ومحاولة الاستيلاء على المسجد الحرام واقتلاع الحجر في سابقة محمولا إلى الأحساء بقيادة أبي طاهر سليمان الجنابي مدة اثنتين وعشرين عاما، في معتقد إيديلوجي متطرف تجمع من عدة معتقدات تسربت من الشرق متفننين في تأويل القرآن الكريم بما يتناسب مع هذه العناصر في أمور من الصيام والصلاة والحج والجهاد وغيرها [2] وبذلك اصطدمت هذه العناصر؛ الباحثة عن الاستقلال عن جسم الدولة والخلافة بطريق العنف؛ بالحائط وأفسدت أكثر مما أصلحت ولم تستطع أن تتحرر من الرواسب الطبقية القديمة والخصائص الفلاحية والحرفية والتخصصية بسبب شعورها من جهة بالاستغلال الشبيه بالاستعباد في الأجور والمساكن والمعاملات والمشاعر، كما لم تستطع أن تتخذ من عقيدة الأمة الغالبة السنية مذهبا للمطالبة بالحقوق فارتطمت مع المشروعية الوقتية ومست الوحدة وهددت المسؤولين عن الشأن العام ومشاعر الشعب والأمة في الصميم وإن كانت تعتقد أنها أرادت الحرية ورفضت العبودية ودعت إلى الخير فقد أخطأته، وكم من باغ للحق يخطئه !!

---

[1] - موقع الحوار المتمدن على الأنترنت بقلم نبيل عبد الأمير الربيعي.

[2] - موقع: منتدى الثلاثاء الثقافي: اشكالية التداخل التاريخي: قرامطة البحرين نموذجا: محاضرة الدكتور عبد الله العسكر بالنادي الثقافي للقطيف 22 يناير 14/2008 محرم 1429.

*ثالثا: الشباب وفتوة جماعـات الباطنيـة أتبـاع الحسـن بـن الصباح[1] صاحب قلعة " ألموت " وامتداداته:

مـن أقـوى تنظيمـات الفتـوة وأكثرهـا تركيـزا علـى تكـوين الأتبـاع وإخضـاعهم لتـداريب الإعـداد والإنجاز جماعـة التنظيم الإسمـاعيلي والـدعوة السرية ضدا على الدول السائدة ببغداد والشام وما وراء النهر من أهل السنة ولـو باستعمال وسائل الاغتيال والتصفيات لكبار المسؤولين المباشـرين للتنفيـذ : خلفـاء ووزراء وسلاطين وغيرهم ، وصولا إلى إقامة أنظمـة شيعية في العـالم الإسـلامي من شرقه إلى غربه ومن شماله على جنوبه.

وإن كـان هـذا التنظـيم القـوي والصـعب علـى المواجهـة ، بسـبب اعتمـاد السرية وعنصر المفاجأة والاغتيالات ، قد امتد إلى حين القضاء عليه نهائيا عنـدما اجتـاح المغـول الخلافـة العباسـية ونوابهـا عـبر الشـام وغـيره فـإن الفكـرة والمبـادئ والتكوينـات لا تـزال إلى اليـوم قابلـة للإحيـاء والتنفيـذ وضـرب العـدو بشـباب مسـتعدين للتضـحية بأنفسـهم أفـرادا وجماعـات ولـو بالانتحـار والتهلكـة وبأيـة وسيلة ، مثلـهم في ذلـك مثـل الخـوارج في العصـور المختلفة وإن اختلفـت العقيـدة والأسلوب واتحد الهدف!

وتتيح اليوم وسائل التواصل ووسائل التدمير ووسائل أخرى أكثر فاعلية وأدق إصابة لتنفيذ أمثال هذه المهمات بشباب متحمسـين مـن مختلـف بقـاع العـالم يتواصـلون بسـهولة عـن طريـق الأنترنـت والشـبكة العنكبوتيـة دونمـا حاجـة إلى الحضـور المباشـر في عـين المكـان لتلقـي العقيـدة والتعليمـات والتـدريب كمـا هـو مشـاهد اليـوم في أنحـاء مختلفـة مـن العـالم وبمجـرد الـدخول إلى هـذه المواقـع الـتي

[1] – مؤسس طائفة " الحشاشين " ولد تقريبا 430 هـ/ 1037م ومات 515هـ/1124 من غير أولاد لقب بالسيد وبشيخ الجبل.

تعرض بأساليب في غاية الذكاء والألمعية والجاذبية على كل شباب ثوري بطبعه تغيير العالم الرسمالي الطابع المتعدد المشارب والعقائد وتحويله إلى عالم منسجم مع الأهداف التي يرسمها شيوخ رابضون من بعيد يعرضون بضاعتهم الفكرية والإعدادية من مواقع بعيدة عن الأنظار أو معروفة ومن منطلقات تكفيرية خارجية أو منطلقات تكفيرية باطنية شيعية!

لـذلك كانـت فكـرة الحسـن الصـباح والـدعوة النزاريـة الإسماعيليـة « الحشيشية» ؛ انطلاقا من قلعة محصنة : قلعة « ألموت » عند منطقة قزوين بفارس وإيران بعد وفاة الخليفة الفاطمي المستنصر بالقاهرة دون أن يبايع لابنه الأكبر نزار ؛ قد تعصبت لهذا الأخير، وكان الحسن ابن الصباح لهذا قد زار مصر والتقى بالدعوة ورجالاتها فأقام بها زهاء ثمانية عشر شهرا وأخذ من الخليفة المذكور الأموال ودعا له ثم بعد الوفاة رآى ان تولية ابنه نزار تتفق مع التعاليم الإسماعيلية في استحقاقه منذ 467هـ[1] ؛ ولما بلغ أصفهان 473هـ باشر دعوته السرية ولما ضيق عليه الخناق رحل إلى قزوين حيث استولى على قلعة الموت الحصينة وحولها إلى مقر للجماعة[2].

وضع الحسن بن الصباح مراتب ودرجات للأعضاء وأقام عددا من القلاع المتناثرة عبر المنطقة سنة 483هـ معتمدا على الإغراء والعنف معا.

ثم شرع في التخطيط لتنفيذ المشروع الإسماعيلي للسيطرة على الخلافة السنية العباسية فكان من اول ضحاياه الوزير العبقري السلجوقي صاحب المشاريع الكبرى لإمداد الخلافة بالأطر الفكرية والإدارية والعسكرية وصاحب التخطيط الستراتيجي لمقاومة الأعداء وتلميذ الإمام الغزالي ومؤسس المدارس

1 – حركة الحشاشين : محمد عثمان الخشت 65.

2 – حركة الحشاشين محمد عثمان الخشت الصفحة أعلاه.

الكبرى المسماة (بالمدارس النظامية)[1] عبر العراق والشام وغيرهما بإدارة الإمام الغزالي صاحب الأطروحات الكبرى في نقض أفكار المعارضين للمشروع الأكبر لأهل السنة : حيث نقض مشروع الفلاسفة المتعاضد مع المشروع الإسماعيلي وخاصة في شقه الإشراقي بكتابه (تهافت الفلاسفة) ومشروع نشر علم الكلام في أوساط العوام بكتابه (إلجام العوام عن علم الكلام) ومشروع الحنابلة الجامد المشاغب في شوارع بغداد ومساجدها وعلى علماء الأشاعرة وأهل السنة بكتابه الفريد (إحياء علوم الدين) فكان ان استهدف ابن الصباح أقوى عقل تنفيذي لهذا المشروع المنطلق من منبعين أحدهما العالم السلفي المجدد مولانا عبد القادر الجيلانـــي (ت 561هــ) والثـاني العـالم الأشـعري المناصـر الإمـام الغزالـي (ت505هـ) والذين دفعا بالمشروع السني إلى الأمام مئات السنين رغم الضربات الإسماعيلية المتواطئة مع الحركة الصليبية في حرص على التخلص من هذا المشروع الخلافي الكبير.

وهكذا اغتيل من قبل شباب التطرف التابعين لابن الصباح أقوى وزراء الخلافة.

❖ <u>نظام الملك</u> : (408 – 485 / 1018–1092) وهو أبو علي الحسن بن علي الطوسي قوام الدين الوزير الحازم العالي الحكمة من طوس سمع الحديث واتصل بالسلطان ألب ارسلان فاستوزره عشر سنين ثم ولاه ملكشاه فصار الأمر إليه عشرين سنة وكانت أيامه دولة لأهل العلم ؛ اغتاله ديلمي على مقربة من

---

[1] – مشروع تجديدي دفاعي كبير لإنشاء نخبة من العلماء الأكفاء القادرين على المواكبة والدفاع عن مشروع الخلافة ووحدة الأمة ضدا على نزعات الانفصال والمشاريع المضادة الأخرى والمذاهب المتعصبة باطنية وظاهرية.

نهاوند، ودفن بأصفهان وله كتاب مطبوع (أمالي نظام الملك في الحديث) [1] ومن أعظم وزراء الدولة السلجوقية السنية التي تولت أمر الخلافة العباسية التنفيذي حيث خلع الخليفة على طغرل بك اسم السلطان إلى عهد ألب أرسلان.

ثم تابع أتباع ابن الصباح محاولات الاغتيال للقادة الأقوياء الحكام العباقرة أمثال:

❖ ملكشاه السلجوقي : (472 – 498) معز الدين، بن بركيا روق حكم ببغداد وهو دون الخمس سنوات بعد وفاة والده فكفله الأمير إياز، ووصى والده وزيره نظام الملك على تفرقة البلاد بين أولاده، على أن يكون مرجعهم " ملك شاه " ففعل وعبر بهم جيحون راجعا، وصنع به نظام الملك ما جعل الجنود تطمئن إليه إلا عمه الذي خنقه فاستقرت الأمور له، وتوسعت الفتوح ولم يكن ذلك لملك قبله: حيث خضع له جميع ما وراء النهر وبلاد الهياطلة وباب الأبواب والروم وديار بكر والجزيرة والعراق والشام وخطب له على جميع منابر الإسلام سوى المغرب: من كاشغر إلى بيت المقدس طولا ومن القسطنطينية إلى بلاد الخزر وبحر الهند عرضا، وهو من أحسنهم سيرة، لقب بالسلطان العادل، ونصر في الحروب وأغرم بالعمارة وحفر الأنهار وإقامة الأسوار وإنشاء القناطر والرباطات في المفاوز، وعمر كلية الإمام الأعظم ببغداد ووضع بطريق مكة مصانع وأبطل المكوس والخفارات [2]! ولهج بالصيد ثم كفَّ عنه! وله في ذلك "

---

[1] – ترجمته في الأعلام لخير الدين الزركلي مختصرة.

[2] – الخفارات : ما يعطى للحرس والفرسان المعترضين في الطريق للحماية والمرور. وهي بكسر الخاء وتخفيف الفاء جمع خفارة من الخفر.

"منارة القرون"[1] قرون الظباء في طريق الحاج عند العذيب سنة 480 هـ. وأمن السبل مما وراء النهر إلى أقصى الشام يسافر الواحد وليس معه خفير!

❖ وصلاح الدين الأيوبي : البطل المشهور الملقب بالناصر (ت 579 هـ) بطل معركة حطين ؛ كردي، كان والده عند ولادته بقلعة تكريت واليا للسلطان مسعود بن ملكشاه آنف الذكر بها ثم انتقل به إلى الموصل فبعلبك، فحبب إليه الجهاد في سبيل الله! وكان عمه أسد الدين شيركوه قائد قواد حلب وأبوه قائد قوات دمشق فشب سيد القواد والفرسان وتفرس وتفقه وتأدب وروى الحديث، ودخل مع الأئمة في خدمة السلطان القوي نورالدين زنكي في عصر الإمارات المزقة بالصليبيين، فشرع زنكي في توحيدها بالقوة وسير رجله أسد الدين شيركوه وعمه صلاح الدين إلى مصر سنة 955هـ وكان صلاح الدين معه، فواجها الوزير الفاطمي " شاوور "الذي استعان بالصليبيين عليهما وبعد وفاة شيركوه انتقلت إليه الوزارة بمصر، فألغى الخلافة الفاطمية ودعا للعباسيين!، ثم دعا لنور الدين محمود، وبعد وفاة هذا الأخير سنة 569هـ طمع الأمراء ووجدها الصليبيون فرصة فأرسلوا أساطيلهم إلى الإسكندرية ودمياط فأغرق صلاح الدين ذلك وأبطل الخطط واستدعي إلى الشام فدخل دمشق سنة 570هـ فأقام الدولة الأيوبية القوية وحطم التيار الصليبي " بحطين " وأسر الملوك وعفا عنهم، ثم حرر الشام وفلسطين وخمسين بلدا.

❖ وهكذا أتيح لهذه الدعوة السرية الخطيرة دعوة الحسن بن الصباح المضادة للمشروع التوحيدي هذا إقامة شبكة من المنظرين والمنفذين في رقعة واسعة من العالم الإسلامي أمثال :

---

[1] – **علامات على المنازل والمراحل بواسطة قرون الظباء والمقاومة للتلاشي والتهالك فيما يظهر من السياق.**

- شيخ الجبل ببلاد الشام.
- وكبير الدعاة.
- وعدد من الدعاة.
- وعدد من الرفاق.
- وعدد من (الضراوية) وهي الفئة المسلحة التي تضرب بقوة أخطر القادة ولو أدى بها ذلك إلى الموت الذي يعتبر شرفا وسعادة في جنة الإمام الأكبر!
- ومجموعة أخرى من اللاصقين!
- وأخرى من المستجيبين من العامة المؤيدين للدعوة [1]

❖ وأسندت مختلف المهمات إلى هذه الفئات ومن أخطرها مهمة الإقناع عند رجال الدعاة والحرص على هدم المعتقدات السابقة للعضو وأهمها تعاليم أهل السنة والجماعة في مجموعة من الخطوات السرية سبق بها هؤلاء التنظيمات السرية التي نشأت فيما بعد بأوروبا [2] معتمدة على أمور ومصطلحات ومراحل من :

1- التفرس والقدرة على التلبس ومعرفة كل شيء عن المدعو.
2- والتانيس ببعث الأمن والطمأنينة في نفس المدعو والإجابة عن أسئلته.
3- ثم التشكيك في عقيدته السابقة بإلقاء الأسئلة عليه!
4- ثم التعليق بترك المدعو مترددا بين عقيدته وبين ما يدعى إليه مؤقتا !
5- ثم الربط للسان المدعو بالأيمان المغلظة والعهود على الكتمان.
6- ثم التدليس بالتمويه والإغراء وتزييف ظواهر الشرع وتحسين بواطنه.
7- ثم التأسيس : بتثبت المعلومات والحقائق وترسيخها حتى تتحول إلى قناعات إيمانية مستقرة في القلب بعيدا عن المحاكمة العقلية!
8- وأخير الخلع والنسخ : بإقصاء المدعو تماما عن المذهب السابق الذي كان يعتنقه.

[1] – الخلافة العباسية 190/2.

[2] – الحركات الباطنية د. الخطيب 129.

وقد اعتمد منهج الدعوة على خطوات نفسية ومبادئ عامة في الإعلام والغزو الفكري مثل :

- الشمولية والتلفيق من عقائد شتى.
- وكذلك انتقاء الدعاة الفطناء الأذكياء.
- وكذلك وجوب التمييز بين من يطمع في استدراجهم.
- واختيار الذكي الخاطر القوي الدين .
- مع دراسة عقيدة المدعو قبل دعوته [1]
- وبالإضافة إلى كل هذا هناك أولا وأخيرا عنصر السرية [2] بما في ذلك سرية الوسائل [3].

*رابعا: الشباب وفتوة العيارين[4] الشطار واستعادة فتوة الصعاليك الجاهلية ...

أدت الظروف الاقتصادية والاجتماعية والسياسية التي مرت بها بلاد الشام خلال القرون الثاني والثالث والرابع الهجرية من شدة وطأة الحكم العباسي على الفلاحين وغيرهم مع اختيار الولاة غير المناسبين والمتصارعين فيما بينهم، أدى هذا إلى ظهور حركة « الشطار[5] والعيارين »، وبالرغم من اختلاف العناصر المكونة لهم من طوائف فيها : السني، والشيعي، والعلوي، والكردي،

---

[1] – حسن ابراهيم حسن : عبد الله المهدي 58.

[2] – التسلسل الباطني 129.

[3] – المصدر نفسه : .129

[4] – العيار في اللغة الرجل أو الفرس الذي يعيث في الأرض (تاج العروس: ع ي ر)

[5] – جمع شاطر وهو الداهية الماكر جمعه شاطرون وشطار وكذا الفهم المتصرف (محيط المحيط ش ط ر).

والعباسـي، والبغـدادي، فقـد اتسـعت تحركـاتهم الاجتماعيـة لما عانتـه العاصـمة بغداد من أوضاع اقتصادية وسياسية [1].

ويظهر أن حركة الفتيان والشباب التي تكونت في الشام في العصر الأموي الآتي ذكرها والتي كانت مشتغلة بالصيد والغناء واللهو وشيء من السكر قد تحولت بفعل الأوضاع المتقدمة من حالة الشهامة والشجاعة والصبر والمحافظة على الحرمات إلى حركة رعاع وعامة وعيارين وشطار.

ويعبر ابن الأثير في حوادث سنة 361هـ عن بعض تحركاتهم حيث «ظهر العيارون وأظهروا الفساد، وأخذوا أموال الناس، وكان سبب ذلك هو استنفار العامة إلى الغزو!

فعندما اجتمع الناس وتكاثروا تولد بينهم من أصناف "النبوية" و "الفتيان" و"السنة" و "الشيعة" و "العيارين"! فنهبت الأموال وقتل الرجال، وأحرقت الدور، ومن جملة الأماكن التي احترقت "محلة الكرخ"، وقد كانت مركزا للتجار والشيعة» [2]

❖ ❖ ❖ ❖ ❖ ❖ ❖

وقد ذكر الشطار والعيار والفتيان في الحرب التي دارت بين الأخوين الأمين والمامون حيث انضموا إلى الأول وذكر المسعودي من بطولاتهم ثم انتشرت حركتهم في تكتلات شيعية لا تلتزم بنظام أخلاقي، حيث يذكر من رؤسائهم الخارجين عن الطاعة المسمى بالعندي الذي كان يقود جماعة منهم حتى طلبه

---

[1] – **بغداد في القرن 4 هـ مجلة المورد، مج2، ع2، 1973 ص 21.**

[2] – **الكامل في التاريخ ج 7 ص 45، ومصطفى جواد: الفتوة وأطوارها، مجلة المجمع العلمي العراقي، مج 5، (1958) (ص 55-56).**

أيبـك الحلـبي فهـرب إلى همـذان فقتلتـه "شـحنة المدينـة" [1] وحمـل رأسـه إلى بغداد، فعلق بظاهر السوق سنة 645هـ [2].

وقد نشطت حركتهم في خلافة المستعصم ببغداد بسبب الفتن الدائرة بين الطوائف الدينية من حنابلة وأشاعرة وغيرهم، فاستغلوا الفرصة وعاثوا فسادا بسرقة الأموال ونهب البيوت، وبلغت الجرأة بهم أن هاجموا دور الأمراء [3]

❖ ❖ ❖ ❖ ❖ ❖ ❖

وهذا الاستغلال للفتن القائمة بين الشيعة والأشاعرة والحنابلة كثيرا ما فعله الشطار والعيارون بعد أن رأوا أحوال المجتمع الاقتصادية بسبب هذه الفتن في تدهور مستمر، فصار لهم من المبررات ما جعل لسان حالهم يقول: «إن هؤلاء خانوا أماناتهم، ومنعوا زكاة أموالهم، فصارت أموالهم مستهلكة بها، واللصوص فقراء إليها! فإذا أخذوا أموالهم – وإن كرهوا أخذها – كان ذلك مباحا لهم!! لأن عين المال مستهلكة بالزكاة، وهؤلاء يستحقون أخذ الزكاة بالفقر؛ شاء أرباب الأموال أم كرهوا» [4].

وكان من أخبارهم في هذا الصدد ما يعجب منه الإنسان من اختراع الحيل للوصول إلى الأموال، ووصل بهم الأمر أن فرضوا لزعيمهم خطبة الجمعة سنة 424هـ مستغلين الفراغ الحاصل في بعض المنابر بسبب تدافع الطوائف المتقدم ذكرها على المساجد وكذا ثورات وشغب العامة ومعهم الحنابلة على العلماء والخلفاء لإخضاعهم و خاصة في عهد الأتراك والبويهيين! ابتداء من

---

[1] – بكسر الشين في البلد: من فيه الكفاية لضبطها من جهة السلطان (محيط المحيط ش ح ن).

[2] – ابن الساعي: الجامع المختصر في عنوان التواريخ وعيون السير ص221–222.

[3] – ابن الفوطي، الحوادث الجامعة والتجارب النافعة في المائة السابعة ص 254.

[4] – محمد رجب النجار: حكايات الشطار، القاهرة دون تاريخ وقارن بعده أماكن منه وكذا الفرج بعد الشدة للتنوخي 231/4–232.

عصر المستنصر بالله سنة 248هـ إلى عهد المستظهر بالله سنة 487هـ حيث شاهد العالم الإسلامي التلاعب بالخلفاء، فقتل منهم أربعة وخلع ثلاثة أو سمموا! وأجبر الآخرون على الخلع طوعا أو كرها، وقتل اثنان بالسم، كما تم عزل الوزراء وصودرت أموالهم! مما جرأ العامة والشاحنين لهم على الشغب، وفي ساقتهم العيارون والشطار !!

ولما رأت الشرطة الدولة العباسية قدرة هؤلاء على الحصول على أموال الناس تآمرت معهم فاستخدمتهم سرا في كشف المستور من الأموال، وقد تميزوا بالخبرة الدقيقة والجرأة التي لا حدود لها والثقافة العسكرية والتكيف مع السجون وقد أوصاهم زعيمهم عثمان الخياط وصيته فقال لهم:

« جسروا صبيانكم على المخارجات

وعلموهم الثقافة !!

وأحضروهم ضرب الأمراء أصحاب تصوير الجرائم لئلا يجزعوا إذا ابتلوا بذلك!

وخذوهم برواية الأشعار من الفرسان!

وحدثوهم بمناقب الفتيان أهل السجون!»[1]

وكان هذا الزعيم عثمان الخياط يقول لأصحابه:

«اضمنوا لي ثلاثا أضمن لكم السلامة: لا تسرقوا الجيران، واتقوا الحرم! ولا تكونوا أكثر من شريك مناصف» وسمي بالخياط لأنه نقب على أحذق الناس في صناعة التلصص فأخذ ما في بيته! ثم خرج وشد النقب على أحسن وجه، فكأنه خاطه!

---

[1] – الراغب: محاضرات الأدباء 189/9.

❖ وذكر القاضي التنوخي من شطارهم الكبار ببغداد ابن حمدين، عرف بالفتوة والظرافة ولقب بلص بغداد الظريف، لأنه لم يفتش امرأة ولم يسلب أحدا من العامة، وأعيا الدولة! وتعصبت له العامة، ثم أمنه أبو جعفر شيرزاد سنة 332 هـ/943 وخلع عليه ليأمن شره! وجعله على إمرة الجند! لكنه مع ذلك ما لبث أن خرج عن أمرهم وعاد لما ألفه!

❖ ومن شواطر النساء في هذا العصر الشهيرات دليلة وقد عاصرت اثنين من كبارهم، علي الزئبق وأحمد الدنف، وعرفها العامة بدليلة المحتالة وجاء عند ابن الأثير في حوادث سنة 444هـ قال : وفيها حدثت فتنة، وانتشر العيارون، وتسلطوا وجبوا الأسواق، فأخذوا ما كان يأخذه أرباب الأعمال: وكان في مقدمتهم الطقطقي، والزئبق، ومنهم أبو القاسم أحمد التميمي (ق 4 هـ) وهو القائل :

« أنا الموجع الكدر، أنا القفل العسر، أنا النار، أنا العيار، أنا الرحا إذا استدار»[1]

❖ ❖ ❖ ❖ ❖ ❖ ❖

وهذا الفراغ والتخلخل الاقتصادي والسياسي والديني يشجع أمثال هذه النزعات الفوضوية على استغلال الفرصة في العواصم الكبرى وضعف القبضة والحراسة على النهب والسلب واللصوصية بطريقة شبه منظمة يتقدمها زعماء أكفاء، وتشهد حوادث الاقتتال المذهبي ببغداد وغيرها بالآثار المدمرة التي أحدثتها وسط المجتمع الذي أصبح جسمه المضطرب يصدم بعضه بعضا تبعا

[1] – يذكر ابن الأثير في حوادث عام 444 هـ انتشار العيارين ببغداد وتسلطهم وأخذهم الجبايات وفي مقدمتهم الطقطقي والزئبق.

لاستهواء هذا الفريق أوهذا ضدا على الآخر، فبالإضافة إلى الفتن التي وقعت بين الحنابلة والأشاعرة وامتدت زمانا بين بغداد وفارس والشام آنذاك حدثت فتن اخرى مثلا بين الحنفية والشافعية سنة 468هـ سببها تحول إمام حنفي إلى الشافعية، فروى السبكي في طبقات الشافعية الكبرى ابن ابن السمعاني تحول إلى المذهب الشافعي فقامت الحرب حتى كادت تملأ ما بين خراسان والعراق!

وهكذا ففي عام 469هـ مثلا قدم أبو نصر القشيري إلى بغداد للوعظ في المدرسة النظامية فنصر الأشاعرة وحط من التيار السائد من الحنابلة فهاج العامة! وهيجوا وهجموا على المدرسة النظامية وحصل قتل بين الفريقين وفي سنة 476هـ مثلا حدثت فتنة أخرى بين الفريقين وامتدت هذه الفتن إلى آخر القرن السادس الهجري.

ويصف ياقوت نتائج هذه التعصبات المذهبية أحسن وصف إذ يقول :

« فشا الخراب في نواحيها – أي أصفهان – لكثرة الفتن، والتعصب بين الحنفية والشافعية، والحروب المتصلة بين الحزبين، فكلما ظهرت طائفة نهبت الأخرى، وجرى مثل ذلك في مدن أخرى كالري وساوة »[1].

ويذكر السبكي آنف الذكر في طبقات الشافعية الكبرى أن مسعود بن علي وزير خوارزم شاه؛ وكان متعصبا للشافعية بنى جامعا بمدينة مرو فتعصب عليه الأحناف وأحرقوا الجامع، فقامت بسببه ذلك فتنة هائلة! وكادت الجماجم تطير على الغلاصم ![2]

❖ ❖ ❖ ❖ ❖ ❖ ❖

[1] – وانظر حوادث 671 من معجم البلدان 209/1.

[2] – طبقات الشافعية 7/ ص ص 42-43.

*خامسا: مصر ترث الخلافة العباسية وترث معها هذه الخبرة إلى اليوم فيما سمي "بالفتوات" و"الحرافيش" و"الزعـار" و"البلطجيـة"، فيما بعد و"البطالية" و"العشاشين" الخ

يظهر أن الفتوة الممتدة من العيارين والشطار العباسيين نالت مصر منذ أن أصبحت القاهرة عاصمة عوضت بغداد بعد السقوط : وهكذا يحكي لنا الرحالة المغربـي ابـن بطوطـة خـلال القـرن الثـامن الهجـري وجـود جماعـة من « الحرافيش » يجتمعون كلما حدث أمر مهم في القاهرة يدعو إلى الاجتماع وخاصة إذا مس فرداً من أفراد الطائفة سوء أو سجن قائد منهم ! بحيث كانوا يخرجون جميعا إلى قلعة صلاح الدين مقر الحكم ويظلون بها واقفين بنبابيتهم [1] القوية والغليظة وهيأتهم المميزة وينادون بشكل جماعي على الحاكم حتى يستجيب لمطالبهم [2].

وهكذا في أواخر العصر المملوكي مثلا انتشرت هذه الطوائف بشكل لافت بعد أن تآكل " نظام الحرف " وطوائفها الشهيرة، وكان له دور في التوازن الاجتماعي والعمران وتحديث الدولة، فانحاز العامة إلى هذه الجماعات الهامشية مقابل قبضة السلطة ! وانضم هؤلاء بدورهم إلى ثورات العامة في شعارات دالة نحو قولهم :

- " شرع الله بيننا وبين الباشا الظالم ".

---

[1] - النبابيت جمع نبوت وهو هراوة أو عصا غليظة مستقيمة ضخمة قصيرة لها في طرفها جزء مدور مكثـل (مصرية).

[2] - رحلة ابن بطوطة 1/14-15.

- " يارب يا متجلي أهلك العثملي " [1]

ولم يخل الحكام أنفسهم من تسخير هذه الجماعات عند تعرض البلاد لبعض الهجمات من الخارج، مثلا : حدث مع السلطان "طومان باي" زمن الفتح العثماني لمصر : أن استعان بهم في الحرب ضد العثمانيين : مما جعلهم موضع تنكيل بعد هزيمة "طومان باي" [2].

هذا ولجأت هذه الجماعات الهامشية زمن المجاعات إلى النهب للبيوت والدكاكين وغيرها بحثا عن مصادر سهلة للرزق ! !.

وقد ذكر الجبرتي من أعداد هذه الجماعات ما يتجاوز المعقول، في نحو مليوني شخص، واتخذ لهم من الأسماء القدحية نحو " الغوغاء " و "النهابة" و"العياق" و"الفتوات" و"الحرافيش" و "الخلابيص" و"الأوغاش" و"العيارين" و"الفلاتية " و" العصبجية " وغيرها!

وأشار علي مبارك في الخطط التوفيقية إلى ان نابليون ضاق بشغب هؤلاء "الفتوات"، وكانوا يسمون "بالبطالين" و "الحشاشين" وأصدر منشورات إلى الشعب يناشده ألا يسمع إلى كلامهم، كما استعان الأمراء المماليك على "بونابرت" بهم، فخرج له أولاد "الحسينية"، يتقدمهم الفتوات ونازلوا جيش بونابرت بعصيهم حتى حصدتهم المدافع ! [3].

[1] – فتوات تحت الطلب موقع " الأصدقاء المصريون، والعثملي : الحاكم العثماني أو المنتسب إلى الأتراك عامة من الحكام المماليك (عامية مصرية).

[2] – نفس الموقع السابق.

[3] – موقع " الأصدقاء المصريون " على الانترنت : فتوات تحت الطلب.

كمـا اشـتهر مـن فتـوات النجـدة بالقـاهرة بنصـرة المهـيض وخاصـة المسـمى "عتريس " و" حكورة " و " كم العري" و "الملط" و " يوسف بن مستهم " و"طيلـون بلحـة "و " الفـولي " و " ممبـوكس "و "خليـل بطيخـة " و "عفيـف القـرد" و " المعلـم حسـن كسـلة" و " المعلمـة عزيـزة الفحلـة "و ابنهـا " محمـد علـي" وذلـك في أحيـاء الخليفة وقلعة الكبش وحي السيدة وحي الكحكيين و السيدة زينـب وحـي بـولاق وحي الدراسة وحي المغربلين! [1] واشـتهر فتـوات مصـر "بفنـون الخنـاق " وهـو فـن مصري قديم يتباهى به أولاد البلد ولكل حـي فتواتـه وزعيمهم لا يعصـى أمره ، ولا يخـالف حكمـه ، يتقـدمهم في المعـارك الكـبرى أو يكلـف مـنهم مـن شـاء في الخناقات الصغرى ، أما البلطجية الـذين تـردد اسمهـم في هـذه الأيـام فهـي تسـمية تدل على حامل " البلطة" [2] باللغـة التركيـة ، وكانـت في عهـد العثمـانيين فرقـة مـن البلطجيـة فتقـدموا القـوات لقطـع الأشـجار بالبلطـة وشـق الطرقـات ، وعمـل فتوحات هدم ، في أجزاء من جدران الحصون ، ثم أصبحت مرادفة لبعض أعمـال الإجـرام بواسـطة " المطـواة " أو " قـرن الغـزال " أو " السـيف " أو " الخنجـر " أو "السلاح الناري" أو " ماء النـار الحـارق " أو " البخـاخ المخـدر" او " العـض والـردح " ، وظهـر " البلطجيـون " في الانتخابـات والمصـارعات والاعتـداء علـى النـاخبين وتمزيـق اللافتـات وإفسـاد الاجتماعـات وانتهـاء بقيـادة سـيارات مسـرعة لصـدام أنصار المرشحين! وارتفعت نسبتهم عام 2000م باستخدام العنـف والزجاجـات الحارقة والذخيرة الحية [3].

[1] – الموقع آنف الذكر.

[2] – وهي نوع من الفؤوس جمع فأس وفي نـهر النيل سمك يشبه البلطة يسمونه البلطي (عامية مصر).

[3] – الموقع السابق على الأنترنت.

وللكاتب العالمي نجيب محفوظ ملحمة " الحرافيش " يصور فيها بدقة عالم الشطار والعيارين وأضرابهم، أدخل فيها حكايات حقيقية تضمنت من أخبار فتوات الحسينية الذين واجهوا الإنجليز وأقاموا حفرة أسقطوا فيها سيارات العدو ! ذكرهم محفوظ في ثلاثية " بين القصرين " ؛ ثم ردمها بطل الرواية السيد أحمد عبد الجواد. وقد أطال الوصف في سيرة عاشور " فتوة روايته الحرافيش " الذي انتصر على فتوات الحارة المجاورة فأضفى على حارته مهابة لم تحظ بها من قبل ! فحق لها الإجلال خارج الميدان، كما سعدت في داخلها بالعدل والكرامة والطمأنينة، وهو الذي ساوى بين الحرافيش والوجهاء وفرض الإتاوات وحتم على الحرافيش ان يعتاشوا من الحرفة، وعمل بنفسه في بيع الفاكهة وأقام في شقة صغيرة مع أمه [1].

[1] – أنظر الموقع أعلاه.

*سادسا: الشباب وفتوة الطرب والغناء والكرم والرماية والصيد :

ظهر لون من الفتوة في العصر الأموي أفرغ فيه طائفة من شباب المدن بعض قواهم في مناشط ذوقية ورياضية ومناقبية، صرفا لهم عن الانخراط في النزاعات الطرفية المتطرفة التي أكلت من شباب الخوارج من أكلت، فكأنها النقيض المؤقت والمسكن المدمن لهم حتى لا ينفلتوا إلى الخروج عن العامة والخاصة.

❖ وكان من مظهر ذلك ظهور طائفة من فتيان الحجاز تعاطوا الغناء والألحان وقالة الشعر من أحفاد الصحابة ومن بعدهم خلال هذا العصر؛ حتى عد ذلك في الذوق العام من صفات الفتوة عند أهل الحجاز خاصة، وإن كان أهل العراق وأهل الشام قد اعتبروه من المحرمات لاختلاطهم أحيانا ببعض التجاوزات كالشراب والقيان والفتيان المخنثين!

❖ ومع ذلك لم تخل بلاد من البلدان الثلاثة من اختراق المجتمعات الخاصة في مثل ما رواه أبو الفرج صاحب الأغاني من أخبار الفتى حنين الحيري وكان من كبار الفتيان المطربين وكان « غلاما يحمل الفاكهة بالحيرة، وكان لطيفا في عمل التمنيات [1]، فكان إذا حمل إلى بيوت " الفتيان" الرياحين وإلى مياسير أهل الكوفة وأصحاب القيان والمطربين فرأوا حركاته الرشيقة وحلاوة شمائله وخفة روحه استمالوه وطلبوه » [2]

[1] – التمنيات كما يفيد معناها هدايا تحمل بشارات بالمرغوب المأمول وإن لم أعثر لها على إشارة تاريخية.

[2] – قارن عبد العزيز الدوري: نشوء الأصناف والحرف في الإسلام؛ مجلة كلية الآداب 14 (1959) ص 29 وما بعدها.

❖ وهذا خالد بن عبد الله القسري والي بني أمية على العراق لما حرم الغناء بها دخل عليه يوما حنين هذا ومعه عود خبأه تحت ثيابه فقال للوالي :

- أصلح الله الأمير، كانت لي صناعة أعود بها على عيالي فحرمها الأمير فأضر ذلك بي وبهم!

- فقال له خالد : وما صناعتك يا حنين!؟

- قال ؛ وقد كشف عن عوده ؛ هذا العود !

- فقال له خالد : غن! فحرك أوتاره وغنى أبياتا لعدي بن زيد العبادي : حتى بكى خالد وقال له :

- قد أذنت لك في الغناء وحدك ! واشترط عليه عدم مجالسة السفيه أو المعربد!

فكان حنين الحيري إذا دعي إلى الغناء قال للحضور : أفيكم سفيه أو معربد ؟!

وفي هذه الصناعة الفنية وما يحيط بها من اللهو يقول :

أنا حنين ومنزلي النجف ... وما نديمي إلا الفتى القصف [1]

أقرع بالكأس ثغر باطية [2] ... مترعة تارة واغترف [3]

* الفتيان يضيفون الضيفان ويغيثون اللهفان :

ومن أوصاف هؤلاء الفتيان كما حكى عنهم المغني آنف الذكر حنين الحيري ؛ وقد دخل على صنف منهم في مدينة حمص وقد اجتمعوا بالقبة الخارجية المعدة للجلوس والاستراحة والشراب بإحدى حماماتها ؛ فلما دخل عليهم أنس بهم وانبسط ، ثم خرجوا به إلى منزل أحدهم فأتوا بالطعام والشراب

[1] – الفتى القصف : من قصف الغصن من الشجرة على سبيل اللعب والمرح والتجمل.

[2] – الباطية : خابية الشراب العظيمة من الزجاج.

[3] – الصعلكة والفتوة بالإسلام ص 50، أحمد أمين، سلسلة اقرأ.

وسألهم عن الغناء؟ فلم يجد عندهم شيئا ! فطلب عودا فلما أحضر أخذ يغني لهم ثم قال « وليس لهؤلاء مزية سوى إضافة الضيفان وإغاثة اللهفان»[1]

* الفتيان يتدربون على الرمي بالسهام :

ومن صفات الفتوة في هذا العصر التدرب على الرمي بالسهام والقسي في وسط فتيان أهل المدينة حتى انتشرت هذه الرياضة بين الناس، فأخذ بعض الخلفاء الأمويين يقضي مع حاشيته أوقاتا في الرمي إلى هدف معلق في الهواء للتريض والتسلية والترويح.

ومن طريف هذه الرياضة أن الخليفة هشام بن عبد الملك لما أمر بإشخاص الإمام محمد الباقر وابنه جعفر الصادق إليه أعد عند دخولهما رماة من مشايخ الرمي ونصب أمامهم (البرجاس[2]) المعد للرمي في الهواء على رأس رمح طويل وكان هدفه أن يظهر للجميع فسولة الإمام وابنه وعجزهما! فطلب منهما أن يدخلا في هذه الرياضة فاستعفاه الإمام! ولكن امام إلحاح هشام تناول الإمام قوس أحد الشيوح وأخذ سهما فوضعه في كبد القوس ثم انتزع ورمى وسط الهدف فنصب السهم فيه ثم رمى ثانية ثم كرر ذلك! عندها اضطرب الخليفة فقال: أجدت يا محمد! وأنت أرمى العرب والعجم! ![3].

---

[1] - الأغاني 358/2 ومصطفى جواد : الفتوة والفتيان قديما مجلة لغة العرب مج 8 (1930) ص 243-244، الصعلكة والفتوة بالإسلام ص 51.

[2] - البرجاس (يونانية) هدف ينصب على رمح أو سارية للرمي والجمع براجيس (المعجم الوسيط) وهو بضم الباء.

[3] مصطفى جواد : الفتوة والفتيان قديما، مجلة لغة العرب مج 8 (1930) ص 245 – 246.

* الفتوة والصيد ومباريات الفروسية :

من كمال الفتوة في هذا العصر الخروج إلى الصيد، فكانت في بوادي الأردن قصور أموية للتربع والصيد والقنص وركوب الخيل واللهو ومباريات الفروسية وما يصحب ذلك من حركات راقصة وألعاب بهلوانية وحركات رياضية [1].

[1] – آثار الأردن ص 183 وما بعدها؛ تاريخ التمدن الإسلامي ج 3 ص 697.

*سابعا: الشباب وفتوة الغلمـــان الأتــراك في عهـــد المعتصـــم العباسي:

* تجربة المعتصم العباسي إدماج الغلمـــان الأتــراك لشـــجاعتهم بديلا عن الجنود الرسميين لكثرة قيامهم على الخلفاء وعصبياتهم القبلية:

رأى المعتصم العباسي أن يجرب من غير العناصر العربية الحرة المستبدة طيلة قرون عناصر أعجمية قابلة للتجربة والتربية والتجنيد والمسؤوليات في توازن مع الجيش النظامي الموروث عن الدولتين فاستكثر من غلمان الأتراك وأحضر عددا عظيما إلى العاصمة وكانت فيهم طبيعة متسرعة واندفاع وشيء من الجفاء فإذا ركبوا الدواب ركضوا وصدموا الناس حتى تأذى منهم السكان فنقلهم المعتصم إلى خارج بغداد في معسكر سماه (سر من رأى) تفاؤلا.

ثم اختار فيهم القواد المسؤولين المعتمد عليهم في الشأن العام:

- كالأفشين حيدر بن كاووس التركي الأصول من اشر وسنة
- وايتاخ
- وأشناس
- وعجيف بن عنبة
- ووصيف
- وبغا الكبير أبي موسى
- وغيرهم...

وكانوا شجعانا وصالحين لقيادة الجيش بدل القواد العرب الذين أسقط أسماءهم من الدواوين.

ورغم قيامهم بالواجب فقد جعل المعتصم من حيث لا يحتسب أبناءه تحت خبرة ورحمة هؤلاء القادة، وكان المعتصم معجبا بالشجاعة والجسارة يحب

الشـجعان ويعتـز بهـم مهمـا كـان لـونهم وجنسـهم وأحـوالهم في الاسـترقاق والعبودية ، فكسر بذلك هذه الحلقة من النخبوية الاستعلائية العربية الموروثة ذات الأنساب والأحساب وكانت النتيجة ردة الفعل من العرب وساكنة العراق حتى هددوا المعتصم بأن يحول عنهم هذا الجيش وإلا قاتلوه!!

- فقال المعتصم مستغربا : كيف تقاتلونني وفي عسكري ثمانون ألف دراع ؟

- قالوا : نقاتلك بسهام الليل وسهام الأسحار!!

فقال : أما هذه فلا طاقة لي بها [1]

وهكذا وبعد ضعف الخلافة اضطر القادة إلى أن يتقدموا في الشأن العام وبدلا من أن ينازعوا الخلافة العباسية في المشروعية وهم يعلمون أن الشرط الأساس غير متوفر لهم وهو المشروعية السنية والمشروعية التاريخية والحضارية رشحوا للخلافة وعزلوا بل وعاقبوا بطريقة دموية أحيانا خلفاء امتنعوا أو قاوموا! ولله الأمر من قبل ومن بعد!.

وقد يناسلت في هذه المساة أشكال من الفتوة وانتظمت في أنظمة حرفية خاصة في بلاد العجم ، فألف محمد بن سيدي علاء الدين الرضوي (ت931) منْ ذلك وكذا الحسين الواعظ الكاثيفي(ت 910) ن فارس مفصلاً طبقات وأصناف أهل الحرف وتدريباتهم وحملهم السلاح وعن عمال البناء وحاملي القصاع من الطين منهم مِما يذكر ببعض شعارات البنائين في الغرب فيما بعد وكأنها اقتباس لهذه التنظيمات[2]

---

[1] - موقع: شباب أهل السنة: الدولة العباسية وتاريخ الخلافة www.sunwah.com.ولم أجد لهذه الحكاية عزوا إلى مصدر معروف وهي على كل حال أقل عدوانية مما نرى ونسمع من الترامي إلى التهلكة عند الشباب الفائر المترامي الآمال والعواطف والنوازع.

[2] موقع أهل القرآن: أحمد صبحي منصور، الخميس 2009/14/10 عبر الأنترنيت.

محاولات لتوجيه الفتوة والشباب
وجهة إيجابية بناءة عبر العصور
بين المشرق والمغرب

أولا : فتوة الناصر العباسي وشعاراته الرسمية وامتداداتها الواسعة ونتائجها الإيجابية في الشعور الوحداني بالوحدة ضدا على التجزئة.

ثانيا : الفتوة العسكرية والإدارية السياسية عند الأيوبيين والمماليك وعوائدها على الأمة ضدا على العدوان الخارجي والانقسامات الخارجية.

ثالثا : فتوة تنظيمات " الأخيات " في الأناضول والمجتمع المدني والتماسك الاقتصادي ومكافحة الفساد.

رابعا : الفتوة الصوفية واستعادة الأدوار الأولى للفتوة المحمدية على صعيد الأخلاق والجمع بين إصلاح الظاهر والباطن وخدمة الكل والتفاني ونكران الذات وحفظ المجتمع من الانحلال والتردي والهزائم في استقلال عن التنظيمات الرسمية للدولة غالبا مع نماذج!

- **النموذج الأول** : الحسن البصري الفتى الأول المتخرج في مدرسة سيدات بيت النبوة.
- **النموذج الثاني** : تنظيم مفاهيم الفتوة ومشروعيتها في كلام سيد الطائفتين من القراء والصوفية الإمام الجنيد.
- **النموذج الثالث** : أبو العباس السبتي واختراع مذهب في الانفاق والإحسان في عصر الأزمات الاقتصادية إحياء لمذهب أبي ذر الغفاري في أسلوب جديد مقبول من الجميع.
- **النموذج الرابع**: الفتوة في صورة بطل خارق للعادة متصالح مع الطبيعة والوحيش والإنسان متفاعل ومنفعل مع الكون كله ووارث لأبرز شيوخ الفتوة في المشرق والمغرب ومتصرف في البيئة بالحفاظ والصون أبي يعزى إلى النور.

- <u>النمـوذج الخـامس</u> : الفتـوة في صـورة مدرسـة في التكـوين والعطـاء والاجتهـاد والجهـاد عنـد أنجـب مريـدي الجزولـي في شـخص عبـد العزيـز التباع.
- <u>النموذج السادس</u> : الفتوة في مشروع مدرسي حضاري دفاعي عن الأمة عند الشيخ عبد القادر الجيلاني وامتداداته في المشرق والمغرب.

الفتوة عنصر من عناصر تقوية الدولة بين تجربة الناصر العباسي والمماليك وتجربة الأيوبيين بمصر في إدماجهم

<u>أولا</u> : فتوة الناصر العباسي وشعاراته الرسمية ونتائجها.

<u>ثانيا</u> : الفتوة العسكرية والإدارية والسياسية عند الأيوبيين والمماليك

أولا : فتوة الناصر العباسي وشعاراته الرسمية ونتائجها.

ينقل الأستاذ أحمد أمين جوانب من هذه الفتوة الرسمية التي نظمها ونشرها الخليفة العباسي الناصر لدين الله (553 هـ - 622 هـ) وكان يميل بطبعه إلى التريض ورمي البندق والطيور، ولبس أزياء الفتوة، حتى انه وصف بأنه شيد بنيانها، ومهد أركانها، وأوضح برهانها وبسبب ذلك غطى على اشكل الفتوة المعاصرة له والسابقة عليه، فكان أن ميز أهل الفتوة عن سواهم وكانوا فرقا من هنا وهناك ! [1].

لذلك بحث الناصر لدين الله عن شيخ الفتوة الوارث لمحاسنها وأسرارها في عصره وهو الشيخ عبد الجبار فأحضره وأعطاه 500 دينار، وخلع عليه وعلى ولده وتبنى بذلك هذا النظام الذي كان حرا، وكان هذا الشيخ حسن السلوك ذا أتباع كثر، فتنازل للخليفة الناصر العباسي عن هذا المنصب.

قام الناصر، وكان شابا مرحا ذا رجولة مهيب الجانب قوي الشخصية وأراد إضافة نفوذ معنوي آخر إلى الخلافة، فنظم الفتوة تنظيما رسميا وسعى إلى نشره فانتسب إليه الأكابر !

وقام الناصر في عام 607 هـ/1210م بمحاولات نشر هذا التنظيم في أكبر عدد ممكن من الملوك الأكابر ورجال الدولة فقوبلت دعوته بكثير من القبول لما يزيدهم ذلك من قوة معنوية إضافية دون أن يكلفهم تنازلا عن شيء.

وهكذا انتشر التنظيم في الآفاق أعتمادا على مبادئ وشعارات محببة إلى النفس داعية إلى الشهامة ومكارم الأخلاق معتمدة على الاستشهادات من السنة والكتاب وآداب العرب ملتصقة بالنفس البشرية مثل الايثار والشجاعة والطاعة

[1] – أحمد أمين: الصعلكة والفتوة بالإسلام ص 53–54 ط دار الكتب العلمية بيروت 2009.

والأمر بالمعروف ونصرة المظلوم وكتمان الأسرار وصدق اللهجة والعفة عن المحارم.

وساعد على هذا الانتشار أيضا الحفلات التي تصحب الانضمام إلى هذا السلك وما يحيط بها من الكلمات المشيدة بخصالها مع شرب كأس الفتوة بماء وملح دالين على الاشتراك في الطعام والأخوة يضاف إلى ذلك لف المنضم بلفائف الكتان الرقيق أو القطن الأبيض مع ارتداء سراويلات الفتوة وهي شعارها في طراز موحد ومميز! مع وضع طاقية على الرأس من الصوف الأبيض وعلى الكتف قباء من الكتان أو عباءة خفيفة، وانتعال خفين موحدي الشكل للجميع ! [1].

❖ ❖ ❖ ❖ ❖ ❖

وهكذا أرسل سنة 622 هـ مثلا رسله إلى كل من :

- نورالدين الأفضل بن علي بن صلاح الدين
- والملك العادل شقيق صلاح الدين
- وابنه الملك الصالح
- والملك شاه الدين حاكم غزة
- والى قاضي حماة برهان الدين أبي اليسر الملك المنصور ليلبسه سراويل الفتوة.
- وألبس سائر ملوك الآفاق سراويلات الفتوة [2].

❖ ❖ ❖ ❖ ❖ ❖

- وتجاوز ذلك إلى السلطان " ليخسروا "

---

[1] - قارن بالمرجع المذكور آنفا ص 54 – 55.

[2] - أحمد أمين 54 –55.

- وإلى سلطان الروم على سبيل الفروسية ومكارم الأخلاق
- فتولى الملوك بأنفسهم نشر هذا النظام بين أكابر الدولة!

❖ ❖ ❖ ❖ ❖ ❖

وكان من النتائج الإيجابية لهذه الصحوة المباركة إعظام الأقاليم النائية للخلافة وإعادة السيطرة على مناطق كانت خالية من نفوذها منذ الخليفة المعتصم، فخافه أهل :

- الهند
- ومصر
- واستولى على خوزستان وغيرها
- وملك همذان
- وكذلك أصفهان
- وكان له أصحاب أخبار في سائر الأطراف لصالح الخلافة.
- واستمر حوالي 47 سنة في الخلافة دون غيره من بني العباس، ولم يتفوق عليه في هذا إلا :
  1- المنتصر العبيدي حاكم مصر ستين سنة.
  2- والناصر المرواني الأموي بالأندلس خمسين سنة.

❖ ❖ ❖ ❖ ❖ ❖

ومع ذلك لم ينتبه الناصر إلى أمر تسخير هذا النظام لصالح الدفاع المباشر عن أطراف من بلاد الإسلام قريبة جدا بمصر، لما هدد الخطر الصليبي ثغر دمياط، حتى أنه رغم وجود رجاله في كل مكان لم يشعر بهذا الحرج الذي شعر به الملك الكامل الأيوبي وهو مرابط بدمياط، وبدلا من أن ينجده في هذا الموقف

بعث إليه وهو يقصد مصر للاستراحة والصيد بأن يقدم لمشاركته في لعبة البندق وصيد الطير! ! !

❖ ❖ ❖ ❖ ❖ ❖

ولكن هذا النظام تطور أيضا لغايات الفروسية والدفاع عن الثغور عند الأيـوبيين والمماليـك بمصـر والشـام والـيمن وغيرهـا في صـحوة عسـكرية ودينيـة وأخلاقية أيقظت الأمة من الغفلـة وفرضـت عليهـا الـدفاع عـن الحرمـات والثغـور فرضا استفاد المساهمون فيه من هـذه الخصـال الحميـدة فيمـا ترويـه كتـب التـاريخ والسير عن ملوك فرسان الإسلام النبيل أمام شراسة ووحشية الفرسـان الصـليبيين والذي كتـب لأحـد أبطـال هـذه المرحلـة أن يدبجـه في أول سـيرة ذاتيـة لفـارس مـن الشام والعراق عاش هذه الحروب هو أسامة بـن منقـذ صـاحب " كتـاب الاعتبـار" (توفي 584 / 1095).

- ومن نتائج الفتوة المنظمة على الصعيد الرسمي والخلافة أن ابن جبير لما زارت دمشق سنة 580هـ وجد هؤلاء الفتيان يتصدون للتنظيمات الشيعية الإسماعيلية آنفة الذكر وربما قتلوا منهم عند الاصطدام [1].

ثانيـا الفتوة العسكرية والفروسية عند الأيوبيين والمماليك :

ورثت الدولة الأيوبية مـن صـفات الشـجاعة والفتـوة والفروسـية المتقدمـة عنـد كـل مـن الدولـة الأخشـيدية والدولـة الفاطميـة وغيرهمـا أسـاليب في إعـداد الفتيان المماليك للمهمات الإدارية والعسكرية وحرصـت هـذه الدولـة وخاصـة في عصر الملك الصالح أيوب (603 – 647هـ) ومن جاء بعده على تقريب هـؤلاء

[1] – موقع أهل القرآن : جماعة الفتوة وصفحة من تاريخ المسلمين الاجتماعي أحمد صبحي منصور على الأنترنيت.

الفتيـان وتبنيهم حتـى يشـعروا أنهـم أبنـاء حقيقيـون للدولـة في رابطـة بـين المربـي والمتربي لا بين السيد والعبد ورابطة كـبير العائلـة ومـن تحتـه معتمـدين علـى الحـب والولاء الطوعي لا على القهر والمادة، حتى أطلقوا على السيد المُـقتَنِي للملـوك لقب " الأستاذ " بدلا من لقب " السيد " !

ويشرح المقريزي بتفصيل كيف يعد الطفل التلميذ منذ المراحل الأولى إذ يقول :

- " أول هذه المراحل في حياة المملوك هي :

1- أن يتعلم اللغة العربية قراءة وكتابة.

2- ثم بعد ذلك يدفع إلى من يعلمه القرآن الكريم.

3- ثم يبدأ في تعلم مبادئ الفقه الإسلامي وآداب الشريعة...

4- ويهتم جدا بتدريبه على الصلاة وكذلك على الأذكار النبوية.

5- ويراقب المملوك مراقبة شديدة من مؤدبيه ومعلميه، فإذا ارتكب خطأ يمس الآداب الإسلامية نبه إلى ذلك ثم عوقب" [1]

وكـان العلمـاء والمشرفون علـى التوجيـه العـالم في منتهـى الرسـوخ أمثـال النـووي والعز بن عبد السلام وابن كثير وابن جماعة وابن قدامة وابن حجر وغيرهـم مـن المشاهير في كل فن [2].

6- ثـم عنـد البلـوغ يـأتي معلـم الفروسـية ومـدرب القتـال فـيعلمهم فنـون الحرب والقتال وركوب الخيل والرمي بالسهام والضرب بالسيوف

---

[1] – موقع مماليك مصر : ويكيبيديا – الموسوعة الحرة

[2] – نفس الموقع أعلاه.

7- فـإذا وصلـوا إلى مستـويات عاليــة جدا في القـوى العقلية والأخلاقية والبدنيـة وتحمـل الصـعاب دربـوا علـى أمـور القيـادة والإدارة وضـبط الخطـط الحربية وحل المشكلات والتصرف في المآزق.

8- وكـان السـلطان الصـالح أيـوب يطمـئن بنفسـه علـى أمـورهم وطعـامهم وراحتهم ويجلس لمؤاكلتهم وينبسط معهم فأحبه المماليك ووالـوه الـولاء التام! !

9- فإذا أظهـر المملـوك نبوغـا ترقـى في المناصـب المختلفـة حتـى يصـل رتبـة القيادة.

10- فإذا بـرز أكثـر أعطـي بعـض الإقطاعـات في الدولـة لاسـتغلالها حتـى يصل على درجة أمير إقليم أو أمير فرق من الجيش.

11- مع تمييز المماليـك بألقـاب معروفـة كالصـالحية نسـبة إلى الصـالح أيـوب والكاملية نسبة إلى الملك الكامـل وهكـذا، وقـد بنـى الصـالح قلعـة إلى جـواره بقصره في منطقة " جزيرة الروضة " فسموا بالمماليك البحريـة لسـكناهم بجـوار النيل.

❖ وهكذا تولى مثلا القيادة العليا للجيش الأيـوبي في عهـد الصـالح أبـرز المماليـك فارس الدين " أقطاي " .

❖ وكان الذي جاء بعده المملوك الشهير ذو المناقب ركن الدين " بيبرس [1] " [2].

[1] – بيبرس البند قداري: الملك الظاهر ركن الدين برز في معركة المنصورة التي مني فيها الصليبيون في فلسطين وسوريا ومصر فحطم قواهم وفي معركة عين جالوت ومعارك أخرى ضد المغول.

[2] – نفس الموقع أعلاه.

وهكذا تنوعت مهمات هؤلاء الفتيان الفرسان ما بين مدنية وعسكرية وإدارية حتى نبغ من بينهم :

- الفقيه العارف
- والأديب الشاعر
- والحيسوبي الماهر

وبلغ العدد أيام الملك المنصور قلاوون في عصر الدولة المملوكية بعد ذلك ستة آلاف وسبعمائة، فأراد ابنه الأشرف خليل تكميل العدد عشرة آلاف وتقسيم الكل إلى طوائف.

وبلغت نفقات المماليك الشهرية سبعين ألف درهم وتزايدت حتى وصلت إلى 741 ألف درهم [1].

❖ ❖ ❖ ❖ ❖ ❖

وكان لهؤلاء المماليك أدوار حاسمة في تاريخ الصراع بين المسلمين والصليبيين والتتار والمغول، حيث وقفوا صفا منيعا وسدا قويا ضد امتداد التيارات الغازية إلى البلاد المسماة اليوم بالشرق الأوسط وكان لهم النصر في مواقع مشهورة بالمنصورة وعين جالوت والقدس وغيرها، رغم نظرة المؤرخين العرب إليهم أحيانا نظرة لا تخلو من غمز ولمز بسبب الانقلابات المتكررة وتوازن القوى والصراع على مراكز القرار الذي لم يكن من الممكن إخضاعه لقواعد الشورى في زمن الدفاع عن الوجود والحدود، حتى إنهم وبسبب هذه الديناميكية الحركية النشيطة قصروا مدة التسيير للدولة في أقصر مدة وبمعدل لا يتجاوز أربع

[1] – الموقع السابق.

سنوات او خمسا ، وبذلك أتاحوا الفرصة لإظهار نبوغ القادة ومناقبهم بدلا من السكون والإخلاد إلى كرسي الحكم مدة طويلة كانت الظروف العامة ضدا عليهما وبجميع المقاييس، في فوضى خلاقة وعنف منظم وقوة ناعمة أحيانا اقتضتها الظروف الاستثنائية ، وإن ركز المؤرخون على هذه التحولات والعمليات الانقلابية التي كانت ، إذا نظر إليها في سياقها التاريخي طريقة وحيدة للوصول إلى مراكز القرارت الكبرى بحسب الاستحقاق والتدافع والصراع على السلطة وفي صور تشابهها ترتكب فيها أحيانا أخف الضربات لاستقرار المتغلب الجديد على المنصب ويكفيهم أنهم هزموا المغول مرات وأخرجوا الصليبيين وأعادوا إحياء الخلافة العباسية.

❖ ❖ ❖ ❖ ❖ ❖

ثالثا : الفتوة عنصر من عناصر تماسك المجتمع الروحي والمادي في أشكال من المجتمع المدني والتربية الأخوية والتزكية الصوفية وأمثلة من ذلك

الشبـــــــــــــــاب

" وفتوة الأخيات " والإكرام في مجتمعات الأناضول في قلم مشاهد بعين مغربية لابن بطوطة الرحالة الصنجي خلال القرن الثامن الهجري ﴿ت 779 / 1377 م﴾ في زوايا ومؤسسات خاضعة لتنظيم أهل الحرف المنخرطين والمساهمين كوعاء في تماسك المجتمع

أسعفتنا رحلة ابن بطوطة بتفصيلات دقيقة عن جماعات الفتوة في آسيا الصغرى والأناضول.... وكانت المنطقة وقتئذ تنقسم إلى إمارات ضعيفة يحكمها سلاطين صغار من الأتراك وبقايا السلاجقة، وأدى الانقسام ومتاخمة الدولة البيزنطية إلى علو النزعة الحربية لدى السكان، وبينما ارتبط الفلاحون بالأرض وركنوا إلى السلبية فإن أرباب الحرف انتظموا في نقابات ومنظمات لها شيخ وزاوية وفقا للتقاليد الصوفية السائدة.

زوايا الفتوة وأدوارها الاجتماعية والسياسية :

قامت هذه التنظيمات والأخيات[1] بدورين مهمين متكاملين ؛ بالإضافة إلى التقوية النفسية والروحية والتضامن والتماسك المعروفة عن " الفقراء التابعين لشيخ وزاوية " بدورين متكاملين :

---

[1] – بفتح الهمـزة وكسـر الخـاء كلمة تركية الأصول.

أحدهما : اجتماعي تضامني معيشي خدمي واستقطابي للمسافرين والتجار.

والثاني : سياسي نقابي دفاعي ضد المظالم والسلطات التنفيذية المتجاوزة.

❖ أصل التسمية بالأخية وزان قضية من التركية وبنفس المعنى العربي ثم أطلقت على الفتيان والفتوة التابعة لكل من التنظيم الصوفي المحلي والحرف المنتظمين فيها.

ويقول ابن بطوطة خلال القرن الثامن الهجري عنهم " وهم بجميع البلاد التركمانية الرومية :

في كل بلد ومدينة وقرية

ولا يوجد في الدنيا مثلهم أشد احتفاء بالغرباء من الناس وأسرع إلى إطعام الطعام وقضاء الحوائج

والأخذ على أيدي الظلمة

وقتل الشرطة ومن لحق بهم من أهل الشر" [1]

* الفتوة كتنظيم للمجتمع المدني في غياب أو ضـعف أجهــزة الدولة:

وتمثل هذه التنظيمات، كما سيأتي في المجتمع عادة، أدوارا تتقوى كلما ضعفت أدوار الدولة وتتقلص كلما قويت الدولة، وهي بمثابة صمام ضروري لتجنب وصول الأمة إلى حالة من الضعف والاستسلام والتواكل والنكوص والهزيمة النفسية عن القيام بالأمر بالمعروف وإقامة مؤسساته والنهي عن المنكر وممارسة أنسب أساليبه إلى العصر والأعراف والعادات والمبادئ الدينية وروح الشعب.

[1] – رحلة ابن بطوطة 137/1 عن موقع الوراقة http://www.alwarraqa.com.

❖ صورة تقريبية لممارسة الوظائف والخدمات اليومية في نقطة وزاوية من نقاط تنظيم الأخية عبر الأناضول

يعتبر رئيس الحرفة في نقطة من بلاد الأناضول أو أمينها "آخي" الجميع، يجتمع إليه يوميا أهل حرفته في زاوية يقيمونها له ويجهزونها بالأثاث والمتاع، ويقوم برعاية الزاوية وخدمة الأصحاب أثناء غيابهم نهارا، فإذا رجعوا وجدوه قد جهز الطعام والفواكه من مساهماتهم، وإن ورد عليهم ضيف أو ضيوف أنزلهم الآخي في الزاوية وقام على خدمتهم..

وأما الفتيان منهم غير المتزوجين فيقضون بقية فراغهم في الزاوية في خدمة تشمل الأكل والشراب والترفيه والذكر والسماع وكذلك من شاء البقاء معهم قبل انصرافه إلى بيته [1]

تجربة ابن بطوطة مع الأخية في مدينة "أنطاليا [2] "

كان أول لقاء للرحالة المغربي معهم في مدينة أنطاليا، حيث جاءه رجل في ثياب رثة طالبا منه أن يضيفه أصحابه فتعجب ابن بطوطة منه! لذلك سأل عنه قاضي المدينة الشيخ شهاب الدين الحموي؟

- فقال له القاضي :

هذا أحد شيوخ الفتيان الأخية وهو من الخرازين؛ أي الأساكفة، وله كرم نفس، وأصحابه نحو المائتين من أهل الصنعة، وقد قدموه على أنفسهم وبنوا له زاوية للضيافة، وما يجتمع لهم بالنهار ينفقونه بالليل!

---

[1] – نفس الموقع آنف الذكر.

[2] – بجنوب غربي تركيا وميناء على البحر المتوسط ومركز لصناعة الحرير وبجواره خامات الكروم، عرفت قديما باسم اثاليا وهي على صخرة عالية وسورها القديم لا يزال قائما.

لذلك ذهب معه ابن بطوطة إلى زاوية " الخرازين الأساكفة " فوصف ما وجد بها من الناس والفراش والأثاث والسجاد والخدم ذوي الوظائف المتخصصة، ووصف زيهم، وان لباسهم الأقبية وفي أرجلهم الخفاف وكل واحد منهم متحزم وعلى وسطه سكين في طول ذراعين وعلى رؤوسهم القلانس البيض من الصوف، بأعلى كل قلنسوة قطعة في طول ذراع وعرض أصبعين.

كما ذكر من تقاليدهم في الجلوس والطعام، وأنه : لما استقر بهم المجلس أتوا بالطعام الكثير والفاكهة والحلواء، وأخذوا في الغناء والرقص والسماع بعد ذلك فرحا بالضيوف : وقد راقه حالهم وطال عجب ابن بطوطة من سماحتهم وكرم نفوسهم [1].

ابن بطوطة وركبه في مدينة "لاذق" [2] ضيوفا :

فوجئ ابن بطوطة بمجرد وصوله إلى مدينة " لاذق " برجال ينزلون من حوانيتهم، ويأخذون بأعنة الخيول، وتشاجر الفريقان على أخذ الخيول! حتى استل بعضهم السكاكين، وظن ابن بطوطة انهم قطاع طرق من طوائف "الجرمان"!

ثم تدخل رجل يعرف اللغة العربية، وأفهمهم بأن الفريقين من جماعتين مختلفتين من الفتيان، وكلاهما يريد الاستيثار بالضيافة!

وهكذا تشاجر أصحاب الفتى سنان مع أصحاب الفتى طومان، ثم اقترعوا ! ففاز فتيان سنان، فجاء فاصطحب الجماعة إلى الزاوية وقام بالخدمة : حيث ذكر ابن بطوطة أنه تولى الخدمة بنفسه وتولى أصحابه خدمة أصحاب

---

[1] – الموقع الآنف الذكر.

[2] – وتنطق اليوم بالصاد وتلقب بمدينة الألف مدفع.

الرحالـة، يخدم الثلاثـة والأربعـة منهم الواحـد من ضيفه، وبعـد دخـول الحمـام وأكل الفاكهة والطعام
قرؤوا القرآن
ثم أخذوا في السماع المصحوب بالإيقاع والحركات[1]
ثم أوصلوا خبر الركب إلى السلطان، فاستدعاهم السلطان بنفسه[2]

ولكن الفتى المسؤول طومان آنف الـذكر المتنـازع على الضـيافة أبى إلا أن يشارك في إكرام الرحالة! فأصر على أن يقيم له حفلا خاصا حـرص فيـه علـى أن يتفوق على غريمه سنان! حيث صبوا على الرحالة ماء الورد صبا بعد الخروج مـن الحمام وخدموهم أحسن مما كـان في زاويـة سنان! إضـمارا للهزيمـة وعـدم رضـى بالغلبة!!

ابن بطوطة وفتيان " قونية "[3] :

فـي " قونية " نزلوا في زاوية الفتى "ابن قلم شاه" وهو في الوقت نفسه قاضي المدينة ويذكر عنه الرحالة المغربي أنه « من الفتيان وزاويته من أعظم الزوايـا، ولـه طائفة كبيرة من التلاميذ، ولهم في الفتوة سند قوي، ولباسها عندهم السـراويل، كمـا تلـبس الصـوفية الخرقـة»[1] ممـا يـدخل الفتـوة ويقربهـا مـن التنظـيم الصـوفي الخالص.

---

[1] انظر مهذب رحلة ابن بطوطة ص 225-227 هذبه وضبط مَتْنَـــه وأعلامه أحمد العوامري ومحمد أحمد جاد المولى، دار الحداثة، ط2 لبنـــان 1985.

[2] – الموقع أعلاه.

[3] – وسط تركيا وعاصمة مقاطعة قونية؛ في بساط زراعي هام ينتج البسط والمنسوجات والجلديات بلغت أقصى مجدها زمن السلاطين السلاجقة؛ ثم صارت مركزا دينيا هاما بها قبر جلال الدين الرومي.

[1] – نفس الموقع أعلاه وانظر معه مهذب رحلة ابن بطوطة آنف الذكر ص 225-227.

وقد نقل أحمد أمين قائمة المصاريف السنوية نموذجا لإحدى الزوايا في فتوة الأخية، يتضح منها مدى الدقة والحرص على تسجيل الشاذة والفاذة من المداخيل والنفقات حرصا على استمرار الخدمات المتعددة التي تشمل حقولا اجتماعية ودينية وإصلاحية تضم :

1- الطعام والشراب والمواد الغذائية والتداوي والتجهيز والتكفين والصدقات اليومية.

2- وتشمل أجرة القراء للمناقب النبوية ومعاونة الواعظين والشرفاء والحرمين والشيوخ وإيقاد قناديل رمضان والليالي المباركة والختم الشريف وأجرة معلمي الصبيان وأجرة المؤذنين.

3- وتأمينات ضد حرائق الدكاكين وأخرى للأيتام والأرامل والعيدين وخبز فقراء رمضان، وفحما للشتاء يصرف لأهل الحرفة والفقراء، وأمور التعمير والترميم مع تبرعات وإعانات [1].

تقاليد ومراسيم وشارات وتدريبات للدخول والترقي في سلك الفتـوة الأخية :

فصل أحمد أمين في أمور قبول الشباب ضمن نظام الفتوة وما يصحب ذلك من شارات ولباس وحركات وتدخلات للمشايخ وترقيات في المناصب واحتفالات دقيقة تقدم الكثير منه عند الحديث عن نظام الفتوة عند الخليفة الناصر لدين الله العباسي أضاف إليه أهل فتوة الأخية تحسينات أخرى محلية تناسب الحرف وأهلها، في نظام هرمي يشبه او يتشابه مع التنظيمات الدقيقة في

[1] – أحمد أمين : الصعلكة والفتوة بالإسلام، صححه إبراهيم شمس الدين، دار الكتب العلمية ط 2009 ص 65 – 66.

بعض الجمعيات السرية الطابع كالإسماعيلية وغيرها وإن كان الأمر عند أهل فتوة الأخية علانية جهارا لا يوجد عندهم ما يخفونه عن الجمهور والمسؤولين؛ وقد رأينا القضاة يتولون أحيانا رئاسة هذه النقابات بأنفسهم، ويتساءل قنصل هولندا بدمشق بعد اطلاعه على هذه المراسيم عن سبب وجود تشابه كبير بينها وبين التقاليد المنسوبة إلى منظمات شبه سرية بأوربا ذكر من بينها " الماسونية [1]"، وهل أخــذت هـــذه المنظمات

فيما بعد من نظام الأخية هذه التقاليد فحولتها إلى اجتماعات سرية ؟ !(2).

---

[1] – الماسونية أو البناؤون الأحرار منظمة أخوية عالمية ذات تفسير للأخلاق والكون والحياة والإيمان خاص مع السرية والغموض في بدايات تأسيسها مما جعلها محط كثير من الأخبار حتى اتهمت بمحاربة الفكر الديني وهي ذات مراتب في العضوية والتنظيم مع وضع خمسة أناشيد تنشد عند كل اجتماع وهي لا تشترط دينـــا بعينه في العضو المشترك في الذكورية والحرية والإيمان و 18 سنة إلى 21 سنة والسمعة الحسنة وحمل لقب جامعي وهي ليست عبارة عن دين أو بديلا عن دين والمبتدئ توضع على عينه عصابة عند القسم رمزا للجهل السابق أما الحبل فرمز إلى الحبل السري الضروري للحياة قبل قطع القابلة له ثم يطوف المبتدئ حول الهيكل باتجاه عقارب الساعة رمزا لحركة الشمس ثم يتم بعد ذلك تحية الهيكل بالانحناء سجودا رمزا لنقطة التقاء الشخص مع الخالق بغض النظر عن نوع الدين السماوي للمبتدئ ثم يلي ذلك مرتبة أهل الصنعة أو مرحلة البلوغ والمسؤولية حتى يشرع في تحسين ظروف المجتمع مع الصعود إلى سلم وسط الهيكل المبني مع استعمال أداة =الزاوية القائمة =المرموز بها إلى بناء الجدار القوي المتزن هندسيا ثم مرتبة أُخرى وهي أعلاها وهي الوصول إلى حالة التوازن بين النوازع والروح وهي إشارة إلى الخبير حيرام آبيف أحد بنائي معبد القدس في عهد سليمان عليه السلام أما الخبير الأعظم فهو رئيس التنظيم في شبه حكومة مدنية كبيرة ذات مقرات كثيرة عبر العالم ويوجد المقر الأعظم في كل من إنجلترا واسكوتلاندا وأمريكا وفرنسا وتسمى بالمحافل أو معابد الفلسفة والفن ومن المحافل نادي ليونيـــز والروتاري. (الموسوعة المسيرة مادة: ماسونيـــة).

[2] – احمد أمين آنف الذكر 71 –72.

رابعا : فتوة الصوفية تقترب من النماذج الأخلاقية المحمدية والمدرسة الأولى للفتوة عند الرسول صلى الله عليه وسلم والصحابة على صعيد الأفراد من الفتيان وعند المؤسسات الخدمية المندمجة في المجتمع المدني المستقل في شكل زوايا وربط و مدارس...

مــقــدمــة :

بالحديث عن الفتوة عند الصوفية و الزهاد أفرادا نماذج أو مؤسسات مؤطرة للمجتمع المدني المستقل بأعمال التطوع والإحسان نكون قد اقتربنا من الفتوة المحمدية وفتوة الصحابة شيئا فشيئا عبر عصور الفتوة الصوفية وعلى اختلاف مدارسها ونماذجها وتلاوينها من الشرق إلى الغرب ومن الشمال إلى الجنوب في مؤسسات خيرية منظمة ومؤطرة أو أفراد نماذج ضربوا الرقم القياسي في النمذجة والمثال المقتدى به حتى ضربت حولهم هالة من الشهرة الاستحقاقية واتخذهم الجمهور المومن المعترف بالكرم والكرامة والولاية والصلاح والزهد الحقيقي غالبا، قبلتهم ومزارهم أحياء أو بعد وفياتهم في هيئة مناسبات سنوية وذكريات احتفائية تذكر الجميع بسيرهم التي ينبغي للأجيال أن تحييها وتنشر فضائلها ومناقبها إما في شكل محرر صحيح النقل والخبر عند الخاصة أو في صور إعلائية شعبية الطابع مضافا إليها من الألوان والبريق الذي يجذب قلوب الكافة إلى مناقبهم في عمل الخيرات والدلالة على الله من أقرب شعب الإيمان، وخاصة شعب العبادة والذكر والزهد ونشر الخير والنصيحة والتعليم والإحسان إلى الكافة وعلاج بعض الحالات والعاهات الجسدية إضافة إلى القيام بادوار أخرى أهم في الدفاع عن الحوزة وحماية الثغور وشحذ الناس إلى الجهاد والبذل عند اللزوم والقيام بالإصلاح بين الأفراد والقبائل، مما لا تستطيع إمكانيات السلطة المركزية أن تقوم به وحدها، ممثلين في ذلك دور المجتمع المدني المتطوع في أحوال السلم والحرب لسد الخلل وعلاج النفوس ونفي الهزائم النفسية عند الهزائم المادية والتخلف والانتكاسات الكبرى والانحسارات العظمى، وإضافة إلى ذلك كله القيام بأدوار التعبئة الاستثنائية عند الحاجة : من رفادة وإيواء للمسافر والحاج والمريض والفار من عقوبة أو قصاص إلى غير ذلك عبر عصور تاريخ الإسلام شرقا وغربا وشمالا وجنوبا، في اقتراب من السلطات وتعاون تارة وفي اتخاذ موقف الحياد والنصيحة تارة أخرى وفي الاعتراض عند الاقتضاء بوسائل سلمية غالبا، في توازنات دقيقة بين حاجة الكافة إلى التدخل وسد الخلل عند عجز أو ضعف المؤسسات الرسمية والخطط السلطانية أو القيام بدور الاحتياط عند قوة هذه المؤسسات كما توضحه الدراسات التي قام بها باحثون على صعيد المعاهد والجامعات وغيرهم ممن سبق إلى تراجم رجال التصوف وأعلامهم ومؤسسات التصوف عبر العصور.

شجرة الفتوة في امتداداتها المستمرة من مشكاة النبوة وسيرة الصحابة عبر العصور في مدارس الزهد والعبادة والأخلاق السامية والتزكية الروحية إلى قمم متسامية في التضحية والبذل والعطاء والإحسان والتحمل ونماذج فردية وجماعية منها عبر العصور في أمثــولات دالة

تمهيد :

من الدوحة المحمدية وسير الصحابة تربى التابعون ومن بعدهم، فكانوا مصابيح لغيرهم في الأقاليم المفتوحة ونماذج تحتذى في التضحية والبذل والعطاء والزهادة والفتوة بدءا بـ :

❖ الحسن بن ابي الحسن البصري " سيد الفتيان " والذي لقب بحق بهذا اللقب لاجتماع خصال الفتوة المتفرقة في غيره من جيل التابعين، ونعطر هذه الدراسة عن الفتوة بطرف من سيرته التي تشمل الأنموذج المؤثر فيمن بعده من الأجيال والقدوة التي سارت الركبان بكلامه الذي يكاد يشبه كلام المحويين كما قيل عنه.

❖ ❖ ❖ ❖ ❖ ❖

• النموذج الأول: الفتى الأول المتخرج في مدرسة سـيدات بيـت النبوة وبيوتات الخلفــاء

من سيرة الأغر رائد الفتوة والمدرسة الوسطية في الخطابة والوعظ والإرشاد والتوجيه الديني ورفيق ابن سيرين والمقول فيهما ﴿ جالس الحسن أو ابن سيرين ﴾

جعل الله هذه الأمة أمة وسطا، وإن تسلطت عليها نزعات الطرفية ذات اليمين وذات الشمال منذ عصر مبكر، وكلنا يذكر حديث ذي الخويصرة وقد أطلق غرائزه الأعرابية أمام نبي الوسطية والاعتدال صلى الله عليه وسلم وعندما انصرف مغضبا أشار عليه السلام إليه والى من سيتخرج من صلبه من محبي التشدد عبر العصور المبالغين في مظاهر العبادة المتجاوزين في ذلك الحد، حتى شبههم بمروق السهم من الرمية صلى الله على أفصح من نطق بالضاد [1].

فكان ما كان من النزاع حول أمور من القدر والإيمان والكفر والنفاق وأحكام ذلك؛ وكانت مظاهر الردة عصر الخليفة الأول واستشهاد الخليفة الثاني بيد أحد هؤلاء وبعده الخليفة الثالث عثمان الشهيد الذبيح رضي الله عنه وعامل محاصريه بما يستحقون عنده من العدل! وهكذا صار الأمر واضحا في عصر الخليفة الرابع الإمام علي وقد ضم إليه أول الأمر وانضم إليه من هؤلاء المسمون

---

[1] – تقدم تخريج هذا الحديث في الصحيحين وغيرهما.

"بالحرورية" [1] بعد ذلك من شباب الثورات القائمين على الفتنة التي أخرجت قرونها وأكلت من خيار الصحابة والخلفاء في سبيل أحلام شباب ضل طريق الوسطية واختار له خطباء ووعاظا تارة في البيوت خوفا وأخرى في ميادين المواجهات تحميسا، وتارة على أعواد المنابر لعنا لطرف من أطراف مسؤولي الشأن العام : عليا أو معاوية رضي الله عنهما.

فكان أن اجتهد الإمام علي، وقد رآى ما رآى من أصحابه وغيرهم من معارضيه، في استغلال المساجد والمنابر بأن منع استغلال المساجد على الأقل في مجال الوعظ والخطابة على كل مبالغ متشدد واستثنى صاحبنا الحسن بن أبي الحسن دون غيره من المختصين وخاصة في مجال الوعظ والقصص، وهكذا أصبحت المدرسة الوسطية المنطلقة من سلوك الحسن في مواعظه وخطبه هي المدرسة التي آل إليها اختيار جماعة المسلمين بعد ان ملوا الفتنة، لا تفضح ولا تقبح ولا تشتم ولا تلعن، وتسلك الوسطية في النصح والتقويم والتوجيه!.

ولعل أشهر خطباء هذه المدرسة على الإطلاق في البيان وحسن الصوغ والاختيار، وان اعتزل الحسن بعد ذلك، تلميذه واصل بن عطاء المشهور بخطبته الخالية من حرف الراء وقد كنا عرضنا نموذجا منها منذ سنوات على الخطباء في مجال توفر شروط إخراج الحروف من مخارجها عند الخطيب إلا أن يعجز عن إخراج بعضها كما وقع لواصل هذا.

---

[1] – سمو بذلك نسبة إلى بلدة حروراء في الكوفة وكانت مركز خروجهم على علي رضي الله عنه.

الحسن بن أبي الحسن البصري المولى الناشئ في بيت النبوة السيد والفتى النجم والململم للجماعة على الحب والسلم والتقوى والورع والتواضع ومحاسبة النفس قبل محاسبة الآخرين والواعظ الممتاز:

إنه نموذج العدل والوسطية والاعتدال ولحم الصفوف والحرص على اجتماع الشمل وتواضع النخب والأفراد والنظر إلى عيوب النفس قبل النبش في عيوب الآخرين، والذي كتب الله له محبة الخلق رغم اختلاف آرائهم وفرقهم وأحزابهم سواء أكانوا على صعيد النخبة حكاما ومسؤولين أم على صعيد العامة، والذي يذكرنا مصيره من مولى سبي والده من ناحية واسط قبل ان يقدم المدينة في ذمة مولاه[1] كعب بن عمرو الأسلمي أو مولي لصحابي آخر هو يزيد بن ثابت الأنصاري فيما يروي.

فكان أن تزوج والده بأمه التي كانت لحسن الصدف بدورها مولاة لأم سلمة رضي الله عنها وذلك بعد أن اعتق في خلافة عمر بن الخطاب رضي الله عنه[1].

وهذا يذكرنا بسلمان الفارسي الذي كان مولى بالمدينة لأحد يهودها قبل أن ينعتق ليصحب رسول الله صلى الله عليه وسلم وينضم إلى آل البيت كما سينضم إليهم بعد ذلك مترجمنا الحسن البصري ويهتدي بهم ويقتبس من أنوارهم وعلومهم وحكمتهم.

---

[1] انظر للمقارنة سير أعلام النبلاء 578/4.

[1] – ترجمته في كتب الطبقات ومثالا عليه : ابن سعد 156/7.

وهكذا ولد الحسن رضي الله عنه لسنتين بقيتا من خلافة عمر من أمه مولاة السيدة أم المؤمنين زوجة الرسول صلى الله عليه وسلم أم سلمة المخزومية.

* نشأته الأولى في بيت أم سلمة رضيعا وربيبا لها :

كانت أم سلمة رضي الله عنها إذا بعثت أمه في حاجة يبكي وهو طفل فتسكته ام سلمة بثديها وتخرجه إلى أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو صغير .... فكانوا يدعون له كلما رأوه، وذات مرة أخرجته إلى الخليفة عمر فلما رآه دعا له قائلا :

« اللهم فقهه في الدين وحببه إلى الناس »، فكان ذلك له من أثر الدعوة المباركة طيلة حياته»[1].

* انتقاله إلى وادي القرى بعد ذلك :

استكمل الحسن نشأته بالبادية على عادة اهل المدينة بوادي القرى ذي الجمال الأخاذ وكثرة المياه والنخيل والساكنة! ففصح لسانه بعيدا عن لهجة أهل المدينة المختلطة وعن لسان أمه وأبيه الأول من أثر الأصول العراقية الشمالية القريبة من لهجة الاكراد، وهذا ما يفسر لنا بعد ذلك نبوغه في اختراع محاسن الكلام والمواعظ والحكم والتشبيهات والأمثال فيما يظهر أو الكلام الوسط الذي يحفظ حفظا.

---

1 - أخبار القضاة 5/2.

* نبوغ الحسن في الفصاحة والبيان وإبـداع الكـلام المـوزون المسجوع الشبيه بكلام الحكماء والأنبياء من أثر نشـأته بـوادي القـرى

اشـتهر وادي القـرى بالشـعراء العـذريين الرقيقـي الحواشـي الجميلـي الطلعات المحبين للجمال ووصفه ونسيبه، فكان ان نبغ فهم أمثال عمر وجميل بثينة وغيره في عصر التابعين، وكان الحسن فيما يظهر ممن نالته حكمة وهدي أمهات المومنين مضافا إليها هذه اللغة العذرية الدقيقة المعجزة الشبيهة بالشعر! فنبغ من أثر ذلك في النثر الفني والإبداع الكلامي! حتى حفظت أقواله وحكمه، فيشهد له أمثال أبي عمرو بن العلاء أستاذ الفصحاء واللغويين بذلك فقال :

« ما رأيت أفصح من الحسن والحجاج » [1]

ومن هذا القبيل ما حكاه أبو جعفر الرازي عن الربيع عن أنس بن مالك والذي يظهر أنه معجب بكلام الحسن حريص على الاختلاف إليه ليسمع منه الجديد المبدع والطريف المخترع من الحكم قال :

« اختلفت إلى الحسن عشر سنين أو ما شاء الله، فليس من يوم إلا و أسمع منه ما لم أسمع قبل ذلك » [2]

---

[1] – سير أعلام النبلاء 578/4.

[2] – الذهبي 574/4-575.

* جمال منطقه ولفظه مضافاً إليه جمال صـورته فيلقـى القبـول واجتماع القلوب عليه أينما حل وارتحل:

اكتسب الحسن من أصوله الأولى لأبيه وأمه المولين ومن مشربه من مياه وادي القرى وأكله من تموره وفواكهه وتمليه من حسن سمت اهاليه ما جعله نموذجا للشاب النجم الذي تتوق إليه نفوس الجميع حتى وصف بأنه كان رجلا تام الشكل، مليح الصورة، بهيا، »[1]

كما اكتسب من محاسن النبوة وهو يتردد على أمه الثانية أم سلمة. ما جعله أشبه في شمائله كلها بالرسول صلى الله عليه وسلم وصحابته، فعن أبي بردة قال: « ما رأيت أحدا أشبه بأصحاب محمد منه »[2].

وأعجب به النساء أيضا وهن أكثر من الرجال خبرة في تمييز محاسن الخلق! حتى قالت أمة الحكم عنه « كان الحسن يجيء إلى حطان الرقاشي[3]، فما رأيت قط أحسن وجها منه »[4].

* الحسن البصري يتشرب كلام الناس والهدي النبوي وفصاحة القرآن وبلاغة البلغاء فيحول ذلك إلى معادل فني:

مما يفسر لنا جانبا من جوانب تشرب الحسن لفصاحة القرآن وبلاغة كلام الرسول صلى الله عليه وسلم والفصحاء من الناس أنه لم يكن يحرص على الببغائية في حفظ كلام الناس! بل كان ينسى ما سمع ويحوله إلى معادل فني من عنده حتى في الأحاديث النبوية التي يرويها ! فيغير اللفظ ويحافظ على المعنى أو

---

[1] – الذهبي 576/4.

[2] – ابن سعد 162/7.

[3] – مقرئ ومحدث قرأ عليه الحسن وكان ثقة قليل الحديث وهو بصري تابعي مات في ولاية بشر بن مروان على العراق انظر تهذيب التهذيب 396/2.

[4] – سير أعلام النبلاء 73/4.

يحول الهدي النبوي العام كله إلى حكمة وبيان ومواعظ وتشبيهات ! وقد حرص في ذلك على التعمق في المعاني وتوليدها قبل أن يحرص على الألفاظ وحفظها ! وبذلك كان يبده الناس المعجبين ببيانه وتجديد إهاب ألفاظه بعيدا عن الروايات والحكايات والنقل من كلام الناس.

وقد لفت ذلك نظر المحدثين الحريصين رغم ذلك على اللفظ والنقل فأعجبوا مثل غيرهم بكلامه البديع ! قال حماد بن سلمة سمعت أيوب يقول : «كان الحسن يتكلم الكلام كأنه الدر ! فتكلم قوم بعده بكلام يخرج من أفواههم كأنه القيء ! ! ! » [1].

● وقد لاحظ أبو زراعة من المحدثين والنقاد هذه الصفة في نقل معاني كلام النبوة بلفظه الخاص وإبداعه الشخصي فقال : "كل شيء قال الحسن قال رسول الله صلى الله عليه وسلم وجدت له أصلا ثابتا ما خلا أربعة أحاديث" [2].

* الحسن الفتى الشجاع البليغ في زمرة الفتيان الشجعان المجاهدين البلغاء :

لكي تتم للحسن المروءة العربية الإسلامية وهو فتى في كامل الأوصاف وربيب بيت أمهات المومنين ورضيع الرقة والشجاعة والفتوة من وادي القرى لم يلبث أن انضم إلى أمثال المهلب بن أبي صفرة وكان من أشجع الشجعان الذي أطفئوا نار فتنة الخروج عن خلفاء بني أمية ! ، كما صحب الزعيم الشجاع والشاعر الفتى قطري بن الفجاءة قبل الخروج عن صف الإمام علي ومن بعده ؛ فروى أبو عبيد الآجري ، عن أبي داوود قال : « لم يحج الحسن إلا حجتين ،

---

[1] – الذهبي 77/4.

[2] – سير أعلام النبلاء 576/4.

وكـان يكـون بخراسـان، وكـان يرافـق مثـل قطـري ابـن الفجـاءة والمهلـب بـن أبـي صفرة، وكان – أي الحسن – من الشجعان » وقال عنه هشام بن حسان « كـان الحسن أشجع أهل زمانه »[1].

ونقل الأصمعي عن أبيه قوله في متانة زند الحسن وقوته « ما رأيت أعرض من زند الحسن! كان عرضه شبرا !!!!»[2].

* شجاعة [3] الحسن رشحته للمهـام ذات الصـلة بالشـأن العـام فأضاف خبرة جديدة إلى مواهبه المتعددة في الحرب والسلم:

لفت الحسن نظر الولاة بخراسان فصاحة وهديا وشجاعة ! فولـوه وظائف ذات صلة بالشأن العام والدولة الإسلامية ! فساعد ذلك فيما بعد على اكتساب خبرة سياسية وإدارية وفقهية أضيفت إلى خبراته السابقة وبيانه وحسن إدراكه لأعماق المشكلات، فتولى من المناصب :

أولا : الكتابة بالديوان لأمير خراسان الربيع بن زياد.

ثانيا : كما تولى بعد ذلك الفتوى في مدينة البصرة بعد أن كان مفتيها الأول جابر بن زيد أبو الشعثاء [4].

ثالثا : وسيتولى بعد ذلك القضاء زمن عمر بن عبد العزيز! فتضاف هذه الخبرة العظمى في الشأن العام إلى خبراته الأخرى تمهيدا لما هو أهم وأعظم بعد ذلك من

---

[1] – نفسه 578/4.

[2] – 576/4. وعَضْمُ الزَّنْد: الممتد من المرفق إلى معصم اليد في الجهة المقابلة للإبهام عند البشر؛ وجمع الناظم بقية عظام اليد فقال: (وعضم يلي الإبهام كُوغ وما يلي لخِنْصِره الكُرسوغ والرُّسْغُ مَا وَسَطْ).

[3] – من كلام الحسن " كنا نجاري أصحاب رسول الله " أي نركب الخيل أعراءً دون سرج!

[4] – الذهبي 572/4.

أمر جمع كلمة الأمة على المقاصد الكبرى للدين ومكارم الأخلاق والسلم مع الغير والآخرين ومجاهدة النفس بدلا من جهاد أصبح مكتنفا بالفرق والأهواء والمنازعات والفتنة ! !

* **خبرة الحسن بأمور السياسة والاختلاف والحروب والثغـور ترشحه ليكون حكما جامعا وحكيما حليما وداعيا إلى مجاهدة النفس قبل الجهاد الآخر المخالف :**

هذه الخبرات العامة بالأمر والشأن والدولة والحكم، مع القول الفصل المتسم بإهاب من القبول والإجماع والإقتداء، مع السمت الجميل والمنطق البليغ ؛ من بين الأمور الأخرى التي أضفت على الحسن طابع المرجعية عند الاختلاف والتنازع، وجعلته أحد أعلام الجماعة والألفة وإطفاء أسباب ونيران الفتنة مع حياد تام وتجميع للصف وتعميم للكلام والخطاب ! حتى يكون مقبولا في جميع البيئات، وعند جميع الفرقاء ! مع البعد عن الجرح المباشر والطعن في الأشخاص والأمراء والبعد عن الدخول في الفتنة، حتى قيل عنه إنه « كان من رؤوس العلماء في الفتن والدماء والفروج – أي الثغور – »[1].

ويظهر أن هذا القبول من الجميع والإجماع عليه من قبل الرأي العام الذي مل من الفتنة وإراقة الدماء والاختلاف بين الصحابة والخلفاء عصرها ! جعل الفرقاء يجمعون على جاذبية شخصيته أينما كان ! وفي أي صف ظهر ! حتى إن الأمر ليتجاوز هذا الإعجاب إلى محاولة اختطاف نجوميته وإقبال الناس عليه إذا ظهر في أي مجال من مجالات السلم والحرب ! !

[1] – ابن سعد : طبقات 163/7.

● فهذا المهلب بن أبي صفرة يستغل وجوده في صف المجاهدين لأهل الشرك فيقدمه أمام الجند كما ذكر ذلك عنه جعفر بن سليمان فيما نقله الذهبي[1]

● وهذا الثائر على بني أمية وعلى الحجاج عبد الرحمان بن الأشعث ينصحه أحد التابعين بأن يخرج الحسن البصري في جنده للإنتصار على العدو قائلا له :

« إن سرك أن يقتلوا حولك كما قتلوا حول جمل عائشة فأخرج الحسن ! فأرسل إليه ، فأكرهه – أي على الخروج رغما عنه ونفوره من الخوض في دماء المسلمين»[2]

هذا مع إعجابه بهدي ابن الأشعث وجلوسه في أصل منبره يستمع إلى حديثه ويتأثر بزهده وعلمه وورعه ، قال سليم بن أخضر : حدثنا ابن عوف :

- قالوا لابن الأشعث : أخرج الحسن!
- قال ابن عوف : فنظرت إليه بين الجسرين ، وعليه عمامة سوداء ، فغفلوا عنه ، فألقى نفسه في نهر حتى نجا منه ، وكاد يهلك يومئذ ،[3] ! فانظر إلى هذا النفور من دماء المسلمين وإراقتها وما ينتج عن هذه الفتنة من انقسام الجماعة وضعف الأمة كيف حمل الحسن البصري على أن يفضل إلقاء نفسه في النهر نجاة من الفتنة على أن يقتحم الحرب وهو ابن بجدتها وأبو عذرتها ! كما تقدم عن شجاعته وبسالته وفصاحته وهديه وجاذبيته! !

---

[1] – نفسه 579/4 ووارده الفسوي في " المعرفة والتاريخ " 49/2 مطولا.

[2] – الذهبي 583/4.

[3] – نفسه 583/4.

* فما هي أسباب زهد الحسن ونفوره من طلب الولايـات واقتحـام الحروب بين الجيل الأول والثاني من المؤمنين المتأولين حتى أقبل عليه الكافة وأجمع عليه العامة والخاصة :؟

لقد أدرك الحسن في طفولته وبداية تعقله الأحداث من أمر الشغب على عثمان رضي الله عنه ما جعله بعد ذلك وقد رأى أوار الفتنة بعد مقتله يشتعل بين علي رضي الله عنه ومعه ابنه الحسين وبين بقية الصحابة من أصحاب الجمل تارة وأصحاب معاوية أخرى واستمرار ذلك إلى العهد الأموي حياته – نافرا من الفتن كارها لها داعية إلى الالتفات إلى الأمراض التي ترتبت عنها من حب للمال والجاه وإظهار للتعالم والاشتغال بنقص الآخرين والطعن عليهم بدلا من الاشتغال بالنفس واستكمال فضائلها وبالفتوة الحق والقيام بواجباتها والحكمة والتماس منابعها في التقوى ومخافة الله ومسالمة الجميع ! كيف لا وقد شاهد وهو طفل عثمان رضي الله عنه يوم الجمعة قائما يخطب « فقام إليه رجل فقال : أنشدك كتاب الله ! فقال عثمان رضي الله عنه : - اجلس !

- فجلس ثم قام أو قام رجل غيره فقال مثل مقالته !
- فقال له : اجلس ! أما لكتاب الله منشد غيرك ؟ ! فأبى أن يجلس !
- فبعث إليه الشرط ليجلسوه، فقام الناس ! فحالوا بينهم وبينه !
- ثم تراموا بالبطحاء – التراب اللين – حتى يقول القائل : ما أكاد أرى السماء من البطحاء !
- فنزل من منبره، ولم يصل الجمعة يومئذ !! » [1]

---

[1] - نفسه 568/4.

بل أن مشاهداته المأساوية لهذا الاختلاف والشغب وهو طفل بريء مسالم لتزداد رسوخا وهو يرى تفصيلات أخرى تكررت في هذا المشهد المأساوي ويرى عثمان رضي الله عنه بعد هذا التحاصب ينزله رجلان فيمشي يهادى بينهما وما يكاد يقيم عنقه من الحصباء حتى أدخل الدار : فقيل : « لو جئتم بأم المؤمنين عسى أن يكفوا عنه! قال : فجاءوا بأم حبيبة رضي الله عنها بنت أبي سفيان، فنظرت إليها وهي على بغلة بيضاء في محفة (مركب كالهودج إلا أنه لا قبة له) فلما جاءوا بها إلى الدار صرفوا وجه البغلة حتى ردوها ! ! ! »[1]

● وعاش الصبي في خلافة عثمان يدخل إلى بيوت رسول الله صلى الله عليه وسلم فيتناول سقفها بيده وهو غلام محتلم[2].

بل شاهد نهاية هذه المأساة بمقتل الخليفة وهو ابن أربع عشرة سنة مراهقا متحمسا وهو يسمع تعليقات أمهات المؤمنين وبكاءهن وتعليقات الشباب المتحمس و الواغل في الفتنة ! فيمنعه خلقه وانتماؤه إلى بيت النبوة من الانضمام إليه ! ! وهو الذي نقل في ذاكرته صورا عن عثمان رضي الله عنه تعبر عن زهد الخليفة وبساطة عيشه وهو يطعم الناس طعام الإمارة ويأكل هو الخل والزيت وينام في المسجد ويقوم وآثار الحصير على جنبه والناس يعجبون من ذلك : هذا عثمان ! هذا أمير المؤمنين !

❖ ❖ ❖ ❖ ❖ ❖

[1] - نفسه 569/4.

[2] - ابن سعد 161/7.

* الحسن يشهد فتى مراهقا وشابا يافعا تكالب الناس على الحروب والفتنة وإثارة الأحقاد و الانتقاد الشديد للكل فينطبع ذلك في نفسه الوديعة الورعة المحبة للخلق والراحمة الحادبة على الغير، فينبع من بين ضلوعه كراهية الحقد والغرور والإعجاب بالنفس والاختلاف، فيحول ذلك فيما بعد إلى نبع من المواعظ والسياط الحريري اللين المسلط على النفوس الوالغة في هذه الحمأة !

تحول الحسن تدريجيا من مجرد شاهد محايد تارة ومجاهد للشرك أخرى وميسر للشأن العام تارة من موقع المسؤولية ومعرفة بأخطارها وإكراهاتها أمام الشدة في الانتقادات وتكالب الناس على الأعراض والأموال وفساد الذمم بسبب الفتنة – تحول إلى سياط من حرير مستغلا ما أعطاه الله من المواهب التي اجتمعت فيه عندما تفرقت في غيره إلى معادل فني وسلوكي لفت إليه الجميع ! حتى اشرأبت إليه الأعناق وتملت بحسن حديثه وسمته المجالس تلو المجالس، فنقل الخاصة إلى العامة من أوصافه ومناقبه ما حبب إليه الجميع !

- **فمن هذه الشهادات الذهبية فيه :**

- قول العوام بن حوشب « ما أشبه الحسن إلا بنبي »[1].
- وقول أبي قتادة لطلابه والمتحلقين حوله « الزموا هذا الشيخ فما رأيت أحدا أشبه رأيا بعمر منه – يعني الحسن – »[2]

[1] – نفسه 572/4.
[2] – ابن سعد 161/7.

- وقال مطر الوراق: «لما ظهر الحسن جاء كأنما كان في الآخرة، فهو يخبر عما عاين» [1].

❖ **وعن تمام سيادته وكمال مروءته** يقول الشعبي « ما رأيت الذي كان أسود من الحسن» [2]، وقال قتادة « ما كان أحد أكمل مروءة من الحسن» [3]، وقال عنه كبار التابعين كابن المسيب وعروة والقاسم وغيرهم « ما رأيت مثل الحسن! ولو أدرك الصحابة وله مثل أسنانهم ما تقدموه » [4].

❖ **وعن إعجاب الخلق بسمته وشياته ولباسه** :

يقول سلام بن مسكين : رأيت على الحسن قباء مثل الذهب يتألق.

- وقال ابن علية : «كان الحسن يلبس في الشتاء قباء حبرة، وطيلسانا كرديا، وعمامة سوداء، وفي الصيف : إزار كتان، وقميصا وبردا حبرة » [5]

❖ **اجتماع أوصاف الكمال فيه حببه إلى الخلق أجمعين** :

وكأنما رأى فيه الناس نموذج الكمال الأمثل بعد رسول الله صلى الله عليه وسلم خلقا وخلقا وبعد ذهاب جيل الصحابة نموذجا إحيائيا لهذه الصفات الصعب اجتماعها في أحد ممن عاصروه في التابعين.

- « فعن روح بن عبادة: حدثنا حجاج الأسود قال:

---

[1] – المعرفة والتاريخ 48/2.

[2] – نفسه 573/4.أي أكثرهم سيادة وتحملا وتغافلا واكتمال خصال الخير كلها فيه حتى سمي سيدا بصيغة المبالغة.

[3] – نفسه 574/4

[4] – ابن سعد 161/7.

[5] – نفسه 575/4. والحبرة من الثياب المُوشى والمُزيَّنُ.

تمنى رجل فقال: ليتني بزهد الحسن، وورع ابن سيرين ! وعبادة عامر بن قيس، وفقه سعيد ابن المسيب، وذكر مطرف بن الشخير بشيء !...

- قال: فنظروا في ذلك فوجدوه كله كاملا في الحسن »[1]

❖ وإعجاب أمراء بني أمية أيضا من أبناء عبد الملك:

قال خالد بن صفوان:

- لقيت مسلمة بن عبد الملك فقال:
- يا خالد ! أخبرني عن حسن أهل البصرة !
- فقلت: أصلحك الله ! أخبرك عنه بعلم ! أنا جاره إلى جنبه، وجليسه في مجلسه، وأعلم من قبلي به:

« أشبه الناس سريرة بعلانية !

وأشبهه قولا بفعل !

إن قعد على أمر قام به !

وإن قام على أمر قعد عليه !

وإن أمر بأمر كان أعمل الناس به !

وإن نهى عن شيء كان أترك الناس له !

رأيته مستغنيا عن الناس !؟

ورأيت الناس محتاجين إليه !؟

[1] - ابن سعد 65/7.

- قال – أي مسلمة بن عبد الملك – : حسبك !!!

كيف يضل قوم هذا فيهم !!» [1]

الحسن يجنب نفسه الأحكام الجاهزة على المسؤولين وعلى الخلق أجمعين !

أتى رجل الحسن فقال :

يا أبا سعد ! إني حلفت بالطلاق : أن الحجاج في النار !

فما تقول؟ أأقيم مع امرأتي أم أعتزلها ؟؟

- فقال له الحسن :

قد كان الحجاج فاجرا فاسقا ! وما أدري ما أقول لك !؟

إن رحمة الله وسعت كل شيء !

ثم أتى الرجل محمد بن سيرين معاصر الحسن و الشبيه به منزلة وعلما حتى قيل : " اصحب الحسن أو ابن سيرين " على سبيل التسوية والتخيير عند المقارنة ! فلما سأله وأخبره بما حلف به رد عليه بقول شبيه بما قال الحسن ! ثم أتى عمرو بن عبيد من زهاد المعتزلة وكبارهم ومن تلامذة الحسن وقد قيل في مدحه :

(كلكم يمشي رويدْ كلكم يطلب صيدْ غير عمرو بن عبيدْ)

فقال له : أقم مع زوجك فإن الله تعالى إن غفر للحجاج لم يضرك الزنا ، وهو أقل جرما إذا ما قورن بكبائر الحجاج أو كما قال !

---

[1] - الحلية 7/147 – 148.

*** طاعته للأمراء حتى لا يشق العصا فتتبعه الجماعة لم تمنعه من النصح لهم وقبولهم نصيحته !**

هـذه المواقـف مـن الحسـن أمـام الأمـير، في عـدم التسـرع في الحكـم علـى مرتكب الكبيرة وأن مشيئته إلى الله، جعله يبتعد عن الخوارج الذين حكموا على الخلفـاء بالنـار مـن جهـة، وعـن المعتزلـة أيضـا حيـث قـالوا : هـو في المنزلـة بـين المنـزلتين!، ممـا جعـل واصـلا رأسـهم في البصـرة يعتـزل مجلـس الحسـن فسـميت المعتزلة عن مجلس الوسط العـدل بـذلك الاسـم وبمجـرد قولـه : " اعتزلنـا واصـل " فيما قيل في إحدى تعليلاته.

ومع ذلك لم يأل نصحا للأمراء، ولم يخف عنهم مواعظه ومحاذيره منها فهو لما تولى عمر بن هبيرة الفرازي العراق مضافة إلى خراسان في أيام يزيد بـن معاوية، استدعاه ابن هبيرة واستدعى معه ابن سيرين والشعبي سنة 103هـ يستشيرهم في ولايته وتنفيذ أوامر الخليفة عندما يكتب إليه بالأمر أو النهي في شأن قائلا لهم فما ترون ؟

- أما ابن سيرين والشعبي فقال قولا فيه تقية ! وأما هو فقال للأمير يا ابن هبيرة!

اتق الله أو خف الله في يزيد ولا تخف يزيد في الله ! فإن الله يمنعك من يزيد وإن يزيد لا يمنعك من الله ! ويوشك أن يبعث إليك ملكا فيزيلك عن سريرك ويخرجك من سعة قصرك إلى ضيق قبرك ثم لا ينجيك إلا عملك !

يا ابن هبيرة !... لاتركبن دين الله وعباده بسلطان الله – أي بما سلطك الله عليهم – فإنه لا طاعة لمخلوق في معصية الخالق ! فلما أجازهم زاد فضاعف جائزة الحسن، فقال الشعبي لابن سيرين : سفسفنا له فسفسف لنا !!!

❖ ومن هذا القبيل في الفهم عن الله في الشأن العام وأنه لن تخلو الأرض من بر وفاجر ولو في مجال الحكم أن سأله رجل قال داعيا على الفجار : اللهم أهلك الفجار! فأجابه الحسن : إذن تستوحش الطريق ويقل المتصرفون! [1]

❖ ومن هذا القبيل في جعل فاصل بين العالم الورع وبين كثرة الدخول على أصحاب الأمر التماسا للحاجات قوله :

- احذر ثلاثة لا تمكن الشيطان فيها من نفسك :

لا تخلون بامرأة ولو قلت : أعلمها القرآن !!

ولا تدخل على السلطان ولو قلت : آمره بمعروف وأنهاه عن منكر !

ولا تجلس إلى صاحب بدعة ، فإنه يمرض قلبك ، ويفسد عليك دينك "[2].

---

[1] - آداب الحسن البصري لابن الجوزي ص 53 تحقيق سليمان الحرش/ دار النوادر ، دمشق ط 3 2007 م.

[2] - آداب الحسن البصري لابن الجوزي 53 – 54.

الحسن نجم الجماعة ومثابتها وواعظها الأول بعد قسوة القلوب وفرح الشامتين بالفتنة والاختلاف وحب النقد والانتقاد وفساد الذمم والقلوب !

وهب الحسن، كما سلف مواهب اجتمعت له واستوسقت ! فأعطت نجما في الفتوة والقوة والجمال وحسن النبرة ثم انفجرت من معين النبوة ونظرة الصحابة إليه وأمهات المومنين منابع من التقوى الفطرية والكلام النبوي المطبوع والفصاحة في النثر مقابل فصاحة شعراء بني عذرة المفتونين بالجمال والحب والوصف الدقيق لمعاناتهم ومكابداتهم !

فأصبح الحسن لذلك مهوى الأفئدة و ملتمس العامة والخاصة وكانوا لا يتركون له بعد اشتهاره وقتا لنفسه ينصرف فيه إلى حاجاته، فأصبح لا يستطيع إلا أن يجيب عن أسئلتهم الملحة تارة والمحرجة أخرى ! وهو في كل ذلك يمتح من بئر عميق تنفجر منه حكمة الأنبياء والرسل والحكماء والزهاد، واجدا في ذلك الإبداع ضالته المنشودة، يكاد يستغني به عن الإقبال على الملذات ! وفي مقدمتها ملذات الطعام والشراب !

فجاءته الشهرة والنجومية حتى ملهما وهرب منهما وطلب لأمور أخرى فأبت نفسه إلا العكوف على تطبيب النفوس وكشف أدوائها وتعرية أمراضها، تارة بسمته البادي عليه الجد والوقار والحزن لما وقع في الناس من تفريط وإفراط ! والأخرى بسوط كلامه الحريري الظاهر والعميق الأثر لمن تأمله والتقطه وفكر فيه، فكان نعم الواعظ لمن لم تنفعه المواعظ، وهاهي جملة من مواقفه التاريخية التي تناقلها الرواة بعد أن آثر التخلص من مكتوباته آخر عمره إلا صحيفة

واحـدة، خوفـا ونفـورا أن يتهافـت النـاس علـى حفـظ كلامـه فيعتقـدوه ويتركـوا منابعه النبوية فيهملوها، أو يستخفوا بهـا !! كمـا هـو حاصـل في إهمـال الشيـوخ الكبار الأئمة واتباع أشباههم بن الأصاغر والشباب المعني بقليل العلم !

تقويم الجماعة وتهذيبها :

في باب عدم الاغترار بالمظاهر وطلب الحقيقة من وراء الزيف الظاهر

فمن ذلك ما حكاه عنه مالك بن دينار أحد ثقات التابعين من أهل البصرة قال :

«دخلت يوما على الحسن وهو يأكل، فقال : كل يـا ابـن أخـي! فقلـت : أكلـت، فقال : وإن فعلت فأسعدني !

- فقلت : والله لقد شبعت!

- فقال الحسن : يا سبحان الله! ما كنت أخال أن مومنا يأكل حتى يشبع، فـلا يقدر أن يساعد أخاه»[1]

* وبصدد نفوره من التزهد الكاذب :

حضر ذات يوم وليمة وحضرها رجل من المتقشفين، فلما قدمت الحلواء رفع الرجل يده رياء وتصنعا ! !

- فأكل الحسن وقال للرجل : كل يا لكع – اللكع اللئيم ونحوه – فلنعمة الله عليك في الماء البارد أعظم من نعمته عليك في الحلواء!![2].

---

[1] – ابن الجوزي : آداب الحسن البصري– ص 28.

[2] – ابن الجوزي : 79. واللكم بضم اللامين وتشديدهما وفتح الكاف اللئيم، وفي النداء تضم العين دون تنوين لأنه معدول عن الألكع؛ والأحمق أيضا والعيبي في كلامه والصبي الصغير على سبيل التحبب إليه.

❖ **وفي انتقاده للتفيهق والتمعلم :**

قيل له في شيء قاله وكأنه أمر غير مسبوق إليه : ما سمعنا أحدا من الفقهاء يقول هذا! ! !

- فقال : وهل رأيتم فقيها قط ! إنما الفقيه الزاهد في الدنيا، الراغب في الآخرة، الدائب على العبادة، الذي لا يداري، ولا يماري، ينشر حكمة الله، إن قبلت منه حمد الله وإن ردت عليه حمد الله ! [1].

❖ **عدم اهتمامه بنقد المنتقدين له :**

وصل إليه أن رجلا اغتابه، فبعث إليه طبقا فيه رطب! وقال : أهديت إلي باغتيابك لي حسناتك، فكافأتك عليها، فاستحيى الرجل ولم يعد يذكره بسوء! [2].

❖ **عدم أمنه من الوقوع في الأغلاط واحتياطه من ذلك :**

نقلوا عنه في هذا الباب قوله :

« إن خوفك حتى تلقى الأمن، خير من أمنك حتى تلقى الخوف » [3]

الحسن رجل اللاعنف والدعوة إلى تغيير النفوس أولا قبل طلب الحقوق والإلحاح على الخلق، ورجل الفتوة والعطاء والبذل بغير حساب، وقدوة الجماعة والكافة في هذا السلوك المطلوب :

❖ **المروءة في ميزان الحسن وجماع المكارم**

عرف الحسن المروءة بقوله :

---

[1] - نفسه 30 – 31.

[2] - ابن الجوزي ص 34.

[3] - نفسه 35.

« مـروءة الرجـل صـدق لسـانه، واحتمالـه مؤونـة أخيـه، وبذلـه المعـروف لأهـل زمانه، وكفه الأذى عن جيرانه » [1]

❖ **الفتوة في الخدمة والعطاء بغير حساب، والفسولة المنع والبخل:**

- عرف الحسن وعد الكريم فقال:

« عدة الكريم فعل وتعجيل !

وعدة اللئيم تسويف وتطويل !»

- أما عدم الإنصاف فهو عنده مثل قوله:

« ما أنصفك من كلفك إجلاله، ومنعك ماله !»

- ونموذج من ذلك :

كان يقول : أدركت أقواما، وإن الرجل منهم ليخلف أخاه في أهله وولده أربعين سنة بعد موته !!

❖ **ضربه المثل لأصحابه في السماحة والبذل في قصة طريفة :**

دخل عليه أصحابه مرة وهو نائم فأخذوا يتناولون من كساء بجانبه بعض الثمار فلما استيقظ ضحك فرحا بما صنعوا وقال :

" إذا دخل الرجل بيت صديقه فلا بأس عليه أن يتناول مما حضر من طعامه وفاكهته بغير إذنه !! "

❖ **إعجابه بالصفح والصبر وعدم الرد بالمثل وضربه المثل للجماعة في هذا الصدد:**

تساب رجلان بحضرته، فقام المسبوب وهو يمسح العرق عن وجهه وهو يتلو ﴿ولمن صبر وغفر إن ذلك من عزم الأمور﴾ [2] !

---

[1] - نفسه 136.

[2] - الشورى 43

- فقال الحسن : لله دره ؟! عقلها والله حين ضيعها الجاهلون – يقصد هذه الآية التي يمر عليها الجاهلون فيضيعون العمل بها [1].

❖ **نهيه عن لعن الأشخاص والمسؤولين تربية للجماعة على الإنصاف والتحمل** :

شتم رجل رجلا بحضرته فقال له : لولا أن الله يسمع لأجبتك !

❖ **تحمله وصبره عند المصائب والشهوات** :

كان يقول : ما من جرعة أحب إلى الله – عز وجل – من جرعة مصيبة يتجرعها صاحبها بحسن عزاء وصبر ! أو جرعة غيظ يحملها بفضل عفو وحلم ! [2]

❖ **موقفه من شدة انتقاد الآخرين والمسؤولين خاصة** :

ثم يقول : يا ابن آدم ! إنك لا تستحق حقيقة الإيمان حتى لا تعيب الناس بعيب هو فيك، فأصلح عيب نفسك ! فإنك لا تصلح عيبا إلا وجدت عيبا آخر أنت أولى بإصلاحه [3].

❖ **تجنب عداوة الخلق ولو واحدا وجمع قلوب الكافة على قلب رجل واحد** :

وكان يقول : العاقل لا يشتري عداوة رجل واحد بمحبة ألف رجل ! إنه إن فعل ذلك خسر ولم يربح !!

❖ **من عود نفسه من الخير عادة فليلزمها** :

قديما قيل : من فتح له باب من الخير فليلزمه : بناء على كثرة شعب الإيمان وأن من دخل في شعبة منه فليلزم تلك الشعبة حتى يفتح له فيها، وفي هذا

---

[1] – ابن الجوزي : 38.

[2] – نفسه 39.

[3] – ابن الجوزي 39.

المعنى يقول : وسأله الربيع بن صبيح السعدي من أعيان البصرة وتوفي غازيا بأرض الهند سنة 160هـ :

يا أبا سعيد !! ما تقول في العشر ركعات بعد صلاة العشاء ! أتطوع أم سنة؟!

فقال : ليست سنة ! إنها لو كانت سنة ما وسع المسلم تركها! ولكن يا ابن أخي : من أدب العبد المسلم وقوام أمره إذا عود نفسه من الخير عادة ، أو تعبد الله عبادة أن يدأب فيها، ويقيم دهره عليها !

❖ **تذوق الحسن ومرحه وظرفه مع حزنه وزهده :**

جلس يوما فأتته امرأة لم ير الناس مثلها !

- فقالت: يا أبا سعيد ! أيجوز للرجل أن يتزوج من النساء أربعا ؟
- قال : نعم
- فقالت : فهل يجوز مثل ذلك للنساء ؟
- فقال : لا !
- قالت : فلم ؟
- قال : لأن الله عز وجل أحل ذلك للرجال وحرمه على النساء !
- فقالت : بعيشك يا أبا سعيد ! لا تفت بذلك أزواج النساء !
- ثم انصرفت وأتبعها الحسن بصره وقال : ما على من ملك هذه ألا يرى غيرها ! [1]

---

[1] – ابن الجوزي : آداب الحسن البصري ص 50 – 51. وقولها: بعيشك قسم مثل لعمرك! وفي العامية المغربية تقلب الباء ياء على سبيل الدعاء والعيش الطويل.

❖ **الحسن يدرك الضعف البشري عن تحمل التكاليف نفيا لظهور نزعات التشدد في الجماعة :**

كان يقول : أن هذا الدين قوي !

وإن الحق ثقيل

وإن الإنسان ضعيف !!!

فليأخذ أحدكم ما يطيق !

فإن العبد إذا كلف نفسه من العمل فوق طاقتها خاف عليها السئامة والترك !!! [1]

❖ **من طرائف النسيان وقلة الفقهاء :**

وقال له رجل يوما : يا أبا سعيد ! كنت حدثتني بحديث فنسيته ! فأجابه الحسن : لولا النسيان لكثر الفقهاء ! [2]

❖ **تفكر ساعة خير من عبادة سنوات لفتا لنظر الجماعة إلى الجوهر بعيدا عن المظهر :**

وكان يقول : أفضل العمل الفكرة والورع ، فمن كانت حياته كذلك نجا ، وإلا فليحتسب حياته !؟ [3]

❖ **من طرائف أجوبته عن صلاة السوق تركيزا على عيوب التظاهر والتجمع الظاهر المجرد :**

قال أبان بن يزيد العطار الحافظ أبو زيد البصري له يوما وقد دخل عليه وهو في المسجد :

---

[1] – نفسه 53.

[2] – ابن الجوزي 53.

[3] – ابن الجوزي 53 والاحتساب هنا إقامة الحساب على الاعمال الوارد في غير ما حديث من مثل قوله عليه السلام (حاسبوا أنفسكم قبل أن تحاسبوا) وقوله في الحديث الحسن (الكيِّسُ من دان نفسه) الحديث.

هل صليت رحمك الله !!

- فقال : لا !

- فقال أبان : فإن أهل السوق قد صلوا !؟

- فقال له الحسن: ومن يأخذ صلاته عن أهل السوق ودينه ؟

إن نفقت سلعتهم أخروا الصلاة وإن كسدت أقاموها ! [1]

❖ **إعجاب الشعراء بحكمته وحسن ديباجته :**

كان يقول : أيها الناس ! و الله ما خلقنا للفناء ! وإنما خلقنا للبقاء و إنما ننقل من دار إلى دار!

فأخذ ذلك الشاعر المعري فقال في إحدى مراثيه الرائعة :

خـلق النـاس للبقاء فظلـت أمــة يـحسبــونهم للنفـادِ
إنـمـا يُنقلون من دار أعما ل إلى دار شِقْوة أو رشـادِ [2]

❖ **إعجابه بالإيجاز في السؤال والجواب :**

- وسأله أحدهم : أصلحك الله : أعلمني دينا مبسوطا، لا ذاهبا شطوطا ولا هابطا هبوطا !!

- فقال الحسن : يا ابن أخي ! لئن قلت ذلك لقد أحسنت ! إن خير الأمور لأوسطها [3].

---

[1] - نفسه 54.

[2] - نفسه 55. وانظر معه ديوان اللزوميات قافية الدال والقصيدة في رثاء فقيه حنفي من الشعر النفيس المحفوظ.

[3] - نفسه 57. والشطوط وزن فعول للمبالغة في الابتعاد والمسافة النائية ماديا أو معنويا.

❖ صراع البقاء بتدافع الأضداد وتكامل المواهب والإختصاصات إصلاحا للجماعة:

كان يقول :

- لولا البدلاء[1] لخسفت الأرض !
- ولولا الصالحون لهلكت الأمة !
- ولولا العلماء لكان الناس كالبهائم !
- ولولا السلطان لأكل الناس بعضهم بعضا !
- ولولا الحمقى لخربت الأرض !
- ولولا الريح لأنتن ما بين السماء والأرض !
- ❖

❖ الهيبة أقوى من السيف : وأخذ الجماعة بمظاهر السيادة لا بسياط العبودية:

- كان يقول : لله در أهل الحق !
- كانت درة عمر[2] – رضي الله عنه –

أقوى من سيف الحجاج ! !

❖ بين المسابقة في الدين والمنافسة في الدنيا :

كان يقول : من نافسك في دينك فنافسه

ومن نافسك في دنياك فألقها في نحره ![3]

---

[1] – البدلاء جمع بديل ويجمع على أبدال وهو الوارث لصفات رجل تقدمه في الولاية والبر بصفة عامة؛ ودرجة من درجات السلوك الرفيع عند رجال التصوف والسلوك وارثي أخلاق الحسن البصري.

[2] – الدرة بكسر الدال عصا صغيرة يَحْمِلُها (السُّلطان يزع بها بِوَقْعٍ رمزي خفيف.

[3] – ص 68.

❖ تصويره صورة الدنيا في بيت شعر سمعه :

مر الحسن برجل وهو ينشد :

فإما ليس بي قبح ولكن   عسى يغتربي حم[1]ق لئيم

فقال : الله أكبر ! وأيم الله ! لو كان للدنيا صورة شعرية لكان هذا ! ! !

❖ إعجابه بكلام سيد الزاهدين في بني إسرائيل تربية للجماعة على التقليل من الإستهلاك :

كان يقول : أيها الناس ! عليكم بالزهادة في الدنيا ، فقد روي أن عيسى – عليه السلام – كان يقول :

إدامي الجوع ! وشعاري[2] الخوف !

ولباسي الصوف ! واصطلائي في الشتاء الشمس !

وسراجي القمر ! وراحلتي رجلاي !

وفاكهتي ما تنبت الأرض ! ويعلم الله أني أتيت ولا شيء لي !

وأصبح ولا شيء لي ! وأحسب أن ليس على الأرض أغنى مني ![3]

❖ من أوجه كلامه في تصوير الملذات الدنيوية وإرجاع الجماعة إلى التوازن بين الدارين :

كان يقول : روي أن الله عز وجل أوحى إلى الدنيا : من خدمني فاخدميه ومن خدمك فاستخدميه ![4]

---

[1] – الحمق بكسر الميم القليل العقل وحَمِقَ وزان فرح قل عقله.

[2] – الشعار هنا ما يلي الجسد من الثياب.

[3] – ص 73.

[4] – نفسه 77.

❖ **<u>الحسن داعية السلم والطاعة للأمير يفزع الحجاج بمواعظه المبطنة وهو المدرك للمحات الحسن وإشاراته فيطلبه فينجيه الله منه :</u>**

أورد صاحب كتاب « المتوارين » من بينهم الحسن البصري، وقصة سماعه ببشارة موت الحجاج في بيت شعري كان يبحث عن كلمة وردت فيه وهو :

ربما تكره النفوس من الأمـــر له فرجة كحل العقال

فلما سمع الأعرابي ينطق بهذه الكلمة مفتوحة الفاء (فرجة) قال والله لا أدري بأيهما أفرح ؟ أبسماعي بموت الحجاج بسماعي بهذه الكلمة منطوقة صحيحة !!

وكان الحجاج أخافه وطلبه لما يعلم من قوة كلامه وباطن إشاراته وتمثيلاته فقال الحسن هذا الدعاء فحفظه الله منه حتى هلك الحجاج :

" اللهم يا سامع دعوتي !

ويا عدتي في ملمتي !

ويا كاشف كربتي وشدتي !

ويا راحمي وولي نعمتي !

ويا إلهي وإله إبراهيم وإسماعيل، وإسحاق، ويعقوب والأسباط !

وموسى، وعيسى، ومحمد ! ورب الناس كلهم !

- بحق (كهيعص)
- و (طه)
- و (يس) والقرآن الحكيم !
- صل اللهم على محمد

- وعلى آل محمد الطاهرين ...
- واكفني شره ... – أي الحجاج الموجه فيه الدعاء – وشر كل ذي شر ...
- وعافني من الحجاج، وحزبه وأشياعه وجنده،
- واصرف عني بقدرتك ما يحاوله،
- وكف عني أذاه وشره،
- ولا تجعل له علي سبيلا يا رب العالمين
- وصلى الله على محمد خاتم النبيئين وسلم[1]

❖ <u>من دعواته المستجابة في الدفاع عن الجماعة بالدعاء</u> :

- كان يغشى مجلسه رجل من الخوارج، فيؤذي أهله – أي أهل مجلسه – فقيل للحسن : ألا تشكوه للأمير ؟!
- فقال : أرجو أن يكفينا إياه رب الأمير !
- فلما قدم الرجل، استقبل الحسن القبلة! وقال :

« اللهم اكفنيه بما شئت »!

- فخر الرجل عن دابته، وحمل ميتا إلى أهله !
- فعرف الحسن – أي بما وقع للرجل-
- فقال : الحمد لله الذي يكفي من استكفاه ! ويقبل دعاء من دعاه !
- يا ويحه! ما كان أغره بربه !؟

[1] – ابن الجوزي 84 – 85.

❖ من دعائه على حاشية الحجاج بعد موته :

لما بلغه موت الحجاج قال هذا الدعاء :

اللهم إنه عقيرك[1] ، وأنت قتلته !

اللهم فأمت حاشيته ! ![2]

❖ سبائك الذهب في المناصحة للخلفاء بالتي هي أحسن على لسان الجماعة توخيا للمحافظة عليها :

❖ فساد الأمير من بعض فساد المأمورين :

كان الحسن يقول : إذا أراد الله بقوم شرا جعل أمراءهم سفهاءهم وفيئهم عند بخلائهم[3]

[1] – ص 85. والعَقِيرُ: المستحق للعقــرِ والطعن لأفعاله الشنيعة.

[2] – ص 85.

[3] – ابن الجوزي 103. والفئيء: ما أعطي من الغنائم دون مشقة.

❖ **ظهـور الأمـراء الفجـرة مـن علامـات السـاعة ووجـوب مراجعـة النفـوس والعيوب :**

كـان الحسـن يقـول : لقـد حـدثت عـن بعـض الصـحابة أنـه كـان يقـول : إن مـن أشراط الساعة أن

يكون في الأرض أمراء فجرة ....

ووزراء كذبة... !

وأمناء خونة ...

وعلماء فسقة ....

وعرفاء ظلمة ....

وإني لأتخوف أن يكون وقتنا هذا ..... [1].

❖ **قبول الأمراء والخلفاء نصائحه واستزادتهم منها :**

❖ دخل يوما على والي البصرة النضر بن عمرو فقال :

- أيها الأمير! أيدك الله !
- إن أخاك من نصحك في دينك ....
- وبصرك عيوبك ....
- وهداك إلى مراشدك ...
- وإن عدوك من غرك ومناك ! ... [2]

---

[1] – ابن الجوزي : 103 – 104.

[2] – نفسه 105.

❖ **يبالغ في توجيه النقد اللاذع القاذع إلى الحجاج فيستدعيه غاضبا ثم يعفو عنه** :

كان يوجه السياط النارية كما تقدم في الوقت المناسب إلى الحجاج : نموذج الأمير العضوض في العراق الصعبة على التحكم فكان من جملة هذه المواعظ الحارقة الكاوية : وكان الحجاج قد بنى دارا بواسط ، وأحضر الحسن ليراها ، فلما دخلها قال الحمد لله ، إن الملوك ليرون لأنفسهم عزا ! وإنا لنرى فيهم كل يوم عبرا !

يعمد أحدهم إلى قصر فيشيده !

وإلى فرس فينجده !

وإلى ملابس ومراكب فيحسنها !

ثم تَحُفُّ به ذئاب طمع !

وفراش نار !

وأصحاب سوء ! فيقول :

- انظروا ما صنعت !
- فقد رأينا أيها المغرور ، فكان ماذا يا أفسق الفاسقين !
- أما أهل السماوات فقد مقتوك !
- وأما أهل الأرض فقد لعنوك ..... إلى آخر ما قال فأوجع !
- وبلغ الحجاج ما قال عن هذا القصر في غيبته ، فاشتد غضبه !

وجمع أهل الشام ، فقال : يشتمني عبيد[1] أهل البصرة وانتم حضور فلا تنكرون؟!

---

[1]- تصغير عبد إشارة إلى أصله بالولاء.

- ثم أمر بإحضار الحسن !
- فجاء وهو يحرك شفتيه بما لم يسمع ! حتى دخل على الحجاج ! فقال :
- يا أبا سعيد : أما كان لإمارتي عليك حق حين قلت ما قلت !؟
- فقال الحسن : يرحمك الله أيها الأمير !

إن من خوفك حتى تبلغ أمنك أرفق بك وأحب فيك ممن أمنك حتى تبلغ الخوف !

- وما أردت الذي سبق إلى وهمك !
- والأمران بيدك : العفو والعقوبة، فافعل الأولى بك! وعلى الله فتوكل! وهو حسبنا ونعم الوكيل!
- فاستحيا الحجاج منه، واعتذر إليه، فأكرمه وحباه[1].

❖ <u>أحد أصحاب الحجاج يسب عليا ثم يسأل الحسن فيوبخه ويستتيبه</u> :

سمع الحسن رجلا من أصحاب الحجاج يذكر عليا – عليه السلام – بسوء!

- فقال : لقد استوجبتها ...
- فقال الرجل : النار يا أبا سعيد !؟
- فقال : نعم ! وبئس المصير !
- قال : فهل توبة عافاك الله ؟
- فقال الحسن : ثكلتك أمك وهل لك إن لم تتب بعذاب الله من طاقة ؟ ! ﴿إن الله يحب التوابين ويحب المتطهرين[2]﴾[3].

---

[1] – ابن الجوزي 108.

[2] – البقرة 222.

[3] – نفسه 108.

❖ **أمير البصرة الجديد حجاج بن أرطأة مفتي الكوفة يعزم على أن يولي الحسن القضاء بها فيعتذر له بمعاذير قبلها الأمير :**

لما ولي ابن أرطأة البصرة عزم على تولية واعظها وفتاها الحسن القضاء، فهرب الحسن وتوارى وكتب إليه :

« أيها الأمير ! فإن الكاره للأمر غير جدير بقضاء الواجب فيه، وان العامل لعمل بغير نية حقيق ألا يعان عليه، ولك في المختارين للأمر الذي دعوتني إليه كفاية وقناعة !

- وقصدك إياهم وتعويلك عليهم أولى بك وأصون لعملك،
- وإنه لا خير في استعانة بمن لا يرى أن العمل الذي يدعى إليه واجب عليه، ولا فرض لازم له !
- فعافني أيها الأمير عافاك الله ! وأحسن إلي بترك التعرض لي فإن الله لا يضيع أجر من أحسن عملا !
- فأعفاه وأكرمه وقال : و الله ما كنت لأبتليه بما يكرهه ! » [1]

❖ **يكتب إليه عمر بن عبد العزيز العمري في طلب صفة الأمير العادل :**

كتب إليه عمر بن عبد العزيز :

اكتب إلى أبا سعيد بصفة الإمام العادل ! وأين هو ؟

وأنى للأمة به ؟

فأجابه الحسن :

أما بعد : يا أمير المومنين ! أرتعك الله في رياض نعمته، ونزهك في حدائق منعته !

---

[1] - آداب الحسن البصري : 109.

فاعلم أن الله سبحانه وتعالى :

- جعل الإمام العادل قواماً لكل مائل ....
- وقصدا لكل جائر ....
- وصلاحا لكل فاسد...
- وقوة لكل ضعيف...
- ونصفة لكل مظلوم ...
- ومفزعا لكل ملهوف ...

❖ **تشبيه الإمام العادل في الحدب والحنان والصون والتحريك بصور تشبيهية قوية:**

- ثم شبه الإمام العادل بالراعي الشفيق الحازم الحامي الكافي.
- ثم شبهه بالأب الحاني الساعي الكاسب المدخر لهم.
- وثلث بتشبيهه بوصي اليتامى وخازن المساكين والمربي والذي يمون بحسب الظروف
- وهو كالقلب بين الجوارح تصلح بصلاحه.
- وهو يقوم بين الله وعباده يسمع كلامه فيسمعهم، ويبصر آثار نعمه فيبصرهم وينقاد إليه ويقودهم.

● ثم ختم قائلا : وأرجوا – يا أمير المومنين – أن تكون هو إن شاء الله !

وإنه لولا أن الله افترض النصيحة لكان في غنى عن كل هذا لما يعلمه فيه ولكنه أخذ ميثاقا على العلماء ليبينه للناس ولا يكتمونه! [1].

---

[1] – ابن الجوزي 113 – 114.

الحسن يحمي الجماعة بالأخذ بحجزها عن الارتماء في الخروج وشق الصف والثورة على المسؤولين مع الإصلاح بالتي هي أحسن

❖ **الدرة في الإنصاف عند الاختلاف** :

- سئل الحسن عن الحجاج فقال موازنا بين محاسنه وسيئاته في صورة بديعة كأنها درة يتيمة :
- قال : الحجاج ! يتلو كتاب الله ،
- ويعظ وعظ الأبرار،
- ويطعم الطعام ....،
- ويوثر الصدق ... !
- ويبطش بطش الجبارين ! ! ! !
- قالوا : أما ترى في القيام عليه ؟
- فقال : اتقوا الله !
- وتوبوا إليه !
- يكفيكم جوره !
- واعلموا أن عند الله حجاجين كثيرين ! ! ! [1]

[1] – ابن الجوزي : 117.

❖ **<u>الجوهرة الثمينة في معاناة الأمراء من تأنيب الضمير</u>** :

وكـان الحسـن يقـول للجماعـة في شـأن الالتفـات إلى معانـاة الأمـراء مـن تأنيب الضمير رغم المظاهر الكاذبة :

- هـؤلاء – يعـني الحكـام – وإن رقصـت بهـم الهمـالج – الـدواب – ووطـىء الناس أعقابهم – أي في السعي وراءهم إعجابا بهم-

- فإن ذل المعصية في قلوبهم ، ...

- إلا أن الحق ألزمنا طاعتهم ... !

- ومنعنا من الخروج عليهم .... ! ! !

- وأمرنا أن نستدفع بالتوبة والدعاء مضرتهم !

- فمن أراد الله به خيرا لزم ذلك ، وعمل به ، ولم يخالفه ! [1].

❖ **<u>الياقوتة في استدفاع جور الجبابرة بالتوبة والدعاء لا بالعنف</u>** :

- حكى حميد خادم الحسن :

كنـت عنـد الحسـن يومـا ، فجـاءه رجـل ، وخـلا بـه ، وشـاوره في الخـروج مـع ابـن الأشعث على الحجاج في ثورة هذا الأخير عليه.

- فقال الحسن للرجل :

اتق الله ، ولا تفعل ، فإن ذلك محرم عليك وغير جائز لك.

- فقال الرجل :

- أصـلحك الله ، لقـد كنـت أعرفـك سـيء القـول في الحجـاج ، غـير راض عـن سيرته !

---

[1] – آداب الحسن البصري 117.

- فقال الحس للرجل :

وأيم الله! إني اليوم لأسوأ فيه رأيا، وأكثر عليه عتبا وأشد ذما ....

- ولكن لتعلم – عافاك الله – أن جور الملوك نقمة من نقم الله تعالى! ونقـم الله لا تلاقى بالسيوف!

وإنما تتقى و تستدفع بالدعاء، والتوبة، والإنابة، والإقلاع عن الذنوب ! ! !

- إن نقم الله متى لقيت بالسيوف كانت هي أقطع !

- ولقد حدثني مالك بن دينار أن الحجاج كان يقول :

« اعلموا أنكم كلما أحدثتم ذنبا أحدث الله من سلطانكم عقوبة »

- ولقد حدثت أن قائلا قال للحجاج : إنك تفعل بأمة رسول الله صلى الله عليه وسلم كيت وكيت ... ! ! !

- فقال الحجاج :

« أجل ! إنما أنا نقمة على أهل العراق، لما أحدثوا في دينهم ما أحدثوا، وتركوا من شرائع نبيهم ما تركوا »[1]

❖ الزُّمُرُّدَة في تحمل أهون الشَّرَّيْن درأً لأخطرهما :

- و سمع الحسن رجلا يدعو على الحجاج !

- فقال : لا تفعل ! رحمك الله !

إنكم من أنفسكم أتيتم !

[1] – ابن الجوزي 115.

إنما نخاف إن عزل الحجاج أو مات إن يليكم القردة والخنازير، فقد روي أن النبي صلى الله عليه وسلم قال : « عمالكم كأعمالكم، وكما تكونون يولى عليكم »[1]

❖ البدرة في أن محاسن الحكام أكثر من مساوئهم :

« قال الأشعث : كنت عند الحسن حين دخل عليه رجل مصفر كأنه من أهل البحرين ! فقال :

- يا أبا سعيد! إني أريد أن أسألك عن الولاة!
- فقال الحسن سل عما بدا لك !
- فقال الرجل : ما تقول في أئمتنا هؤلاء ؟
- قال : فسكت مليا ! ثم قال : وما عسى أن أقول فيهم ؟ ! وهو يلون من أمورنا خمسا :
  - الجمعة
  - والجماعة
  - والفيء
  - والثغور
  - والحدود !

---

1 – ابن الجوزي 116. وهو عند الحاكم ومن طريق الديلمي في مسند الفردوس من حديث يحيى بن هاشم مرفوعا وعند البيهقي والطبراني وهو وإن كان في طرقه مقال فيشهد لمعناه الدعاء المأثور: اللهم لا تسلط علينا بذنوبنا من لا يخافك ولا يرحمنا. وكذلك قوله تعالى ﴿وكذلك نولي بعض الظالمين بعضا بما كانوا يكسبون﴾(الأعراف: 129) وقوله ﴿وما أصابكم من مصيبة فبما كسبت أيديكم﴾(الشورى: 30)

والله ما يستقيم الدين إلا بهم! وإن جاروا، وإن ظلموا ! والله لما يصلح الله بهم أكثر مما يفسدون !

إن طاعتهم لغبطة ! ! !

وإن فرقتهم لكفر ! ! ! »[1]

- فقال الرجل .... يا أبا سعيد ! والله إني لذو مال كثير، وما يسرني أن يكون لي أمثاله بمثل ما سمعت منك ! فجزاك الله عن الدين وأهله خيرا[2].

[1] - آداب الحسن البصري 116 – 117

[2] - نفسه 117

النموذج الثَّاني: تنظيم مصطلحات الفتوة والتصوف وتحديدها في كلام سيد الطائفتين: من الفقهاء والصوفية الإمام الجنيد ببغداد

الفتوة في كلام سيد الطائفتين: الإمـام الجنيـد المتصوفة والمتفقهة مع نبذة مختصرة عنه

إن أحسن مقام تذكر فيه صفات العارفين وسيرهم الحسنة، ومناقبهم البادية مجلس الذاكرين الشاكرين المتذوقين لكلام القوم وسادات الطريق، فهم إلى سيرتهم العطرة متشوفون وإلى إشاراتهم مشرئبون ومتذوقون، بما حصل لهم من الأذواق والأشواق والأخلاق وما بدا لهم من تحت تلك القباب والخيام والأشباح من المعاني والأسرار واللطائف والرياح، فهم يعطون لذلك من حالهم للمتوسم المتعرف مصداق هذه المناقب وتلك المقامات والمراتب، ففي حضرتهم يحلو الحديث عنهم ومن مشكاتهم يستمد المتحدث نفس الحديث وطابع القبول والإذن والسير الحثيث، كيف والرجل علم من أعلام الطريق ورجالاته وجبل راسخ في رسم معالمه وتعريفاته ومراسمه، أبو القاسم الخزاز القواريري الجنيد محمد الزجاج، من أصل فارسي من نهاوند، ونشأ وولد بمدينة السلام في القرن الثالث من الهجرة في العهد الذهبي لعاصمة الإسلام وحضارته، وعلوم العصر متنوعة الفجاج متلاطمة الأمواج، وعلماء الكلام وأهل الحديث في صراع كثير العجاج، قد اشتغل جلهم بالمباحث الكلامية الدقيقة التي لا فائدة من ورائها أثاروا بها عقول ومشاعر العامة والخاصة والرعاع، ما بين متمسك بدقيق النظر وجليل الكلام وبين قابض على ظواهر النصوص وبوادي الأثر، حتى قيض الله للعامة والخاصة من أهل الطريق العميق والمعدن النفيس الرقيق من توغل في أمراض النفوس ودوائها وغاص في المهلكات والمنجيات وفجاجها إنقاذا للعامة والخاصة من سفاسف الخلافات والاختلافات وجزئياتها، ومن علوم لا يتعمق فيها إلا الخاصة وقد أصبحت تلوكها السنة والعامة وتفصل وتوالي وتعادي على أساسها، فلفت القوم المحسنون إلى جوهر الأمر ومعدنه وخلاصة الدين وجوهره، وعكفوا على منبع الأسرار ليستخرجوا منه قوارير العلاجات وإكسير

المنجيات، بعمل خالص لوجه الله وذكر في الخلوات آناء الليل وفي الأصابيح والأمسيات حتى برز من بينهم من رسم المعالم وأوضح السبل ونفي الشبهات؛ وبين الطريق بالدلائل والأقاويل البينات، وجمع بين علوم الأثر وطرائق النظر في لفظ واحد وجملة وجيزة مختصرة؛ حتى كانت الكتبة يحضرونه لألفاظه والفلاسفة لدقة معانيه والمتكلمون لعلمه، تفقه على أبي ثور ابراهيم بن خالد بن اليمان الكلبي الفقيه أحد الأئمة المجتهدين وصاحب أحد المذاهب المشتهرة بين العالمين، وكان من أئمة الدنيا كما قيل وشهد له بذلك شيخ أهل الحديث، عصره؛ أحمد بن حنبل رحمه الله، بعد ان عرفه منذ خمسين وهو عنده في صلاح سفيان الثوري، كما سمع الحديث من ابن عرفة وغيره وأفتى بحلقة أبي ثور وهو ابن العشرين.

ثم اجتمع له من حال من صحبهم: من مثل السري السقطي والحارث المحاسبي وأبي حمزة البغدادي؛ إلى فقه من تقدم والحديث ما جعل أحد تلامذته يقول عنه :

" لم نر في شيوخنا من اجتمع له علم وحال غير الجنيد ! إذا رأيت علمه رجحته على حاله، وإذا رأيت حاله رجحته على علمه" [1]

❖ ❖ ❖ ❖ ❖ ❖

. وكان قبل ذلك وهو ابن سبع سنين قد بدت عليه ملامح النبوغ والفتح المبين! قال أبو سهل الصعلوكي سمعت أبا محمد المرتعش يقول :

[1] - طبقات الشافعية الكبرى 260/2.

قال الجنيد : كنت بين يدي السري السقطي ألعب وأنا ابن سبع سنين، وبين يديه جماعة يتكلمون في الشكر !

فقال : يا غلام! ما الشكر ؟

فقلت : ألا تعصى الله بنعمه !

فقال : أخشى أن يكون حظك من الله لسانك ! !

❖ ❖ ❖ ❖ ❖ ❖

قال الجنيد : فلا أزال أبكي على هذه الكلمة التي قالها لي ! !

وقد خاض الجنيد رحمه الله تجربة طريق المجاهدة هذا حتى يصل إلى طريق الشكر في معاناة عبر عنها عدة تعبيرات مثل قوله :

قال أبو الحسن المحلبي[1]

قلت للجنيد : ممن استفدت هذا العلم ؟

فقال : من جلوسي بين يدي الله تعالى ثلاثين سنة تحت تلك الدرجة، وأومأ إلى درجة في داره!

ومن هذه المجاهدات وهو في دكانه الخاص ببيع القوارير أنه كان يأتي كل يوم إلى السوق فيفتح حانوته فيدخله ويسبل الستر ويصلي أربعمائة ركعة ثم يرجع إلى بيته !

ومنها أيضا ما عكف عليه عشرين سنة لا يأكل إلا من الأسبوع إلى الأسبوع، ويصلي كل ليلة أربعمائة ركعة !

[1] – نسبة إلى بلدة بين الموصل وسنجار من أعمال العراق وفارس.

● وعن الخليدي : بلغني أن الجنيد كان في سوقه وكان ورده كل يوم ثلاثمائة ركعة، وثلاثين ألف تسبيحة !

❖ ❖ ❖ ❖ ❖ ❖

ولا شك أنه رحمه الله وقد سلك هذا الطريق القوي العزم، الصعب المراس، الطويل النفس، والمتلاحق الأنفاس، والمتقلب المعالم والأحوال؛ قد أدرك أن كل أحد لا يستطيع أن يسلك مثل ما سلك وأن يتحمل مثل ما تحمل، فها هو ذا وقد أراد أن يجيب إنسانا طلب منه الدعاء فقال له :

جمع الله همك
ولا شتت سرك
وقطعك عن كل قاطع يقطعك عنه
ووصلك إلى كل واصل يوصلك إليه
وجعل غناه في قلبك،
وشغلك له عمن سواه،
ورزقك أدبا يصلح لمجالسته
وأخرج من قلبك ما لا يرضى
وأسكن في قلبك رضاه
ودلك عليه من أقرب الطرق! [1]

---

[1] - طبقات 270/2.

● ونحن نقول :

آمين آمين لا أرضى بواحدة حتى أضيف إليها ألف آمينا

❖ ❖ ❖ ❖ ❖ ❖

● ولا عجب فإن الجنيد وإن كان آخر من ظهر من أهل التصوف والسلوك من شيوخ الطوائف المجمع عليهم في طرائق التربية ذوي التلاميذ والتسميات كالطريقة السقطية [1] والخرازية والنورية والمحاسبية والحلاجية ؛ إلا أنه بسبب ما وهبه الله من وضع المعالم والمراسم والحدود والتعريفات والعبارات الجامعة الدالة وتلخيص التجارب والأحوال والمقامات والآداب الشرعية ؛ اعتبر بسبب ذلك سيد الطائفة وإمامها والمرجوع إليه في كلام القوم وميزانهم!

● فلذلك لما صنف الشيخ أبو سعيد الأعرابي المتوفى عام 341 كتابه في " طبقات النساك " وهو أول كتاب في ذلك، وصف أول من تكلم في هذا العلم، ثم من جاء بعده من البصريين والشاميين وأهل خراسان إلى أن ذكر آخرهم من البغداديين، فجعل أول التصوف آخره إذ يقول : إن آخر من تكلم في هذا هو الجنيد رحمه الله وأنه ما بقي بعده إلا من مجالسته غيظ ... وإلا من يستحيى من ذكره، أو كما قال ....

❖ ومن هذه البابة من طريق الشكر الموصل على الله بلا معاناة شديدة ما قيل له يوما في الفرق بين المريد والمراد فقال رحمه الله وقدس سره في القلوب قلوب العارفين :

المريد تتولاه سياسة العلم

---

[1] – نسبة إلى السري السقطي بتحريك السين في (تاج العروس : سرى) وسري كغني وزن فعل.

والمراد تتولاه رعاية الحق ...

لأن المريد يسير

والمراد يطير!

وأين السائر من الطائر ؟[1]

وعن شعوره بأهمية الحكايات والقصص في تقوية قلوب المريدين يقول بعد أن سئل :

ما للمريد في مجاراة الحكايات؟ على سبيل الاستفهام الإنكاري؟

فقال :

الحكايات جند من جنود الله

يقوي بها قلوب المريدين

فسئل على ذلك شاهدا فقال : قوله تعالى ﴿ وكلا نقص عليك من أنباء الرسل ما نثبت به فؤادك ﴾[2]

❖ **ومن هذه البابة في حصول التعب للسالك المجتهد المجاهد في الطريق قوله :**

المسير من الدنيا إلى الآخرة سهل هين على المومن !

وهجران الخلق في جنب الحق شديد !

والمسير من النفس إلى الله صعب شديد !

[1] – طبقات 65/2.

[2] – هود : 120.

والصبر مع الله تعالى أشد ![1]

❖ ❖ ❖ ❖ ❖ ❖

❖ ومن هذه البابة تمسكه بحبل الشيوخ العارفين توسلا إلى رضى الرب وشعوره بأهمية طريق الشكر والقدوة والنظرة القلبية من الشيخ وقلب الشيخ على المريد وما يعانيه و يكابده بقول رحمه الله في بعض أدعيته الجوامع :

قال الماليني : سمعت أبا القاسم يوسف بن يحيى، سمعت أبا القاسم الجنيد بن محمد يدعو :

بموضعك في قلوب العارفين دلني على رضاك !

وأخرج من قلبي ما لا ترضاه، وأسكن في قلبي رضاك !

❖ ❖ ❖ ❖ ❖ ❖

وإذا كان الجنيد قد شرب من تلك المشارب الاجتهادية في الفقه والحديث والسلوك وعانى في تحصيل الحقائق والمعارف في مثل ما تقدم من الأحاديث، فإن تعريفاته لمصطلحات القوم قد جاءت متصفة بهذا المشرب الذي يراعي ويحمل على سلوك ظاهر الشرع التماسا لفيوضات باطنه وجوهره، ويحث على الاجتهاد والاحتياط وعدم الاغترار صونا للطريق من الدعاوي والانحراف والتساهل من مثل قوله :

❖ **في الجمع بين الشريعة والطريق** : الطريق إلى الله عز وجل مسدود على خلقه إلا على المقتفين أثر رسول الله صلى الله عليه وسلم كما قال عز وجل ﴿**لقد كان لكم في رسول الله أسوة حسنة**﴾ [2]

---

[1] - طبقات 64/2.

[2] - الأحزاب 21.

❖ **قوله في النهي عن الدعوى** : أضر ما على أهل الديانات الدعاوي.

❖ وسئل : كيف الطريق إلى الله ؟

فقال : توبة تحل الإصرار وخوف يزيل الغرة، ورجاء مزعج إلى طريق الخيرات، ومراقبة الله في خواطر القلوب.

❖ ومن هذه التجارب الروحية المتصفة ببذل الجهد والمجاهدة قوله في كيفية الحصول على العلم النفيس.

(باب كل علم نفيس جليل بذل المجهود.

وليس من عبد الله تعالى ببذل المجهود كمن طلبه من طريق الجود.)

❖ ومن هذا الباب تعريفه للحياء بما يقتضي هذه المراقبة والمجاهدة لما سئل ، ما الحياء؟ فقال :

رؤية الآلاء [1]

ورؤية التقصير، يتولد منهما حالة تسمى الحياء [2]

❖ ❖ ❖ ❖ ❖ ❖

❖ وفي هذا الصدد يأتي تعريفه للفتوة بما تقتضيه من الجهد والعطاء إذ يقول في كلمتين جامعتين « الفتوة كف الأذى وبذل الندى » [3]

❖ ❖ ❖ ❖ ❖ ❖

[1] – أي النعم.

[2] – أي من الله تعالى.

[3] – نفسه 65/2.

❖ وعن فضيلة الصبر وهو أيضا يقتضي الجهد والقصد والاصطبار :

يقول في صورة شارب لشراب مر :

« الصبر تجرع المرارة ، من غير تعبيس»

❖ ❖ ❖ ❖ ❖ ❖

❖ وعن العزلة وما فيها من معاناة يقول موازنا بينها وبين الخلطة :

« مكابدة العزلة أيسر من مداراة الخلطة » وكأنها في نتائجها الإيجابية أفضل أحيانا من الخلطة ذات المخاطر والتشويشات !

❖ ويظهر من منهجه في التربية إلى جانب ما تقدم من الكلمات الجوامع الدالة المختصرة المفيدة التي تحفظ وتلتقط ولا تنسى فتنفرط ؛ لنظمها في عقد جميل صغير كأجزاء المسبحة الصغرى ؛ اعتماده أيضا على حكاية تجارب وقعت له في مواقف وأماكن استفاد منها العبرة والاتعاظ فنقلها إلى المريدين من باب التربية وأخذ العبرة مما يحدث للمشايخ الواصلين ، مما ينبههم على شيء فاتهم أو أدب لم يراعوه ؛ فسيق إليهم من ربهم موقف تنبيه واعتبار فقرأوا تلك الرسالة وفهموا تلك الإشارة وعملوا بها وساروا بها قدما في الترقي ولم يبخلوا بها عن الأتباع خوفا من لوم أو مذمة أو ملاحظة !.

❖ ❖ ❖ ❖ ❖ ❖

❖ فمن ذلك قوله :

كنت جالسا في مسجد الشونيزية [1] انتظر جنازة للصلاة عليها وأهل بغداد على طبقاتهم جلوس ينتظرون الجنازة ، فرأيت فقيرا عليه أثر النسك ، يسأل الناس !

---

[1] – مقبرة ببغداد فيها مسجده وعنده خانقاه للصوفية.

فقلت في نفسي : لو عمل هذا عملا يصون كرامته كان أجمل به !

فلما انصرفت إلى منزلي ، وكان لي شيء من الورد بالليل ، من الصلاة والقراءة والبكاء ، فثقلت علي جميع أورادي ! فسهرت وأنا قاعد فغلبتني عيناي ، فرأيت ذلك الفقير ، وقد جاؤوا به ممدودا على خوان ، وقالوا لي : كل لحمه ! فقد اغتبته ! فكشف لي عن الحال ! وقلت : ما أغتبته ! إنما قلت شيئا في نفسي ! فقيل لي : ما انت ممن يرضى منك بمثل هذا ! إذهب إليه واستحله ! فأصبحت ولم أزل أتردد ! حتى رأيته في موضع يلتقط من أوراق البقل ، فسلمت عليه فقال : تعود يا أبا القاسم؟ !

فقلت : لا !

فقال : غفر الله لنا ولك ! ![1]

❖ **<u>ومن هذه الوقائع ذوات العبرة والاعتبار والإشارات والاختبار قوله في إحدى حجاته بالإفراد :</u>**

« قال : حججت على الوحدة وجاورت بمكة ، فكنت إذا جن الليل دخلت الطواف ، فإذا بجارية تطوف وتقول:

أبى الحب أن يخفى وكم قد كتمته ... فـأصبـح عندي قد أناخ وأطنبـــا
إذا اشـتـد شوقـي هام قلبي بذكره ... فإن رمت قربا من حبيبي تقربـــا
ويبـدو فأفنـى ثـم أحيا لـه به ... ويسعـدني حتـى ألـذ وأطـربـا

قال : فقلت لها : يا جارية ! أما تتقين الله !؟ في مثل هذا المكان تتكلمين بمثل هذا الكلام؟ فالتفت إلي وقالت : يا جنيد !؟

---

[1] - نفسه 63/2.

لولا التقى لم ترنـــي أهـجـر طيـب الوسن

إن التقـى شـردنـــي كما ترى عـن وطنـي

أفر من وجدي بـــي فـحبـه تيـمـنـــــي

ثم قالت :

يا جنيدا تطوف بالبيت أم برب البيت !؟

فقلت : أطوف بالبيت ! فرفعت طرفها إلى السماء وقالت :

سبحانك ! ما أعظم مشيئتك في خلقك ! خلق كالأحجار يطوفون بالأحجار؟ ثم أنشأت تقول :

يطوفون بالأحجار يبغــون قربـة إليك وهم أقسى قلوبا من الصخر

وتـاهــوا ولم يدروا من التيه من هم وحلوا محل القرب في باطن الفكر

فلو أخلصوا في الود غابت صفاتهم وقامت صفات الود للحق بالذكر [1]

❖ ❖ ❖ ❖ ❖ ❖

❖ وإن كان الجنيد لم يخش أن يتحدث بما وقع من مثل ما تقدم من تجارب منبهة ومعلمة الأدب للتلاميذ فإنه أيضا لم يكتم ما وقع له من تكريم وكرامة وبشارة من مثل ما وقع له في عرس حضره إذ يقول :

« حضرت إملاك بعض الأبدال [2] يقول : حضرت إملاك بعض الأبدال من النساء ببعض الأبدال من الرجال ، فما كان في جماعة من حضر إلا ضرب بيده

---

[1] - نفسه 272/2

[2] - وهم في الأمم خلفاء عن الأنبياء والرسل، أرباب حقائق التوحيد المحدثون، وأصحاب الفراسات الصادقة، والآداب الجميلة والمتبعون لسنته عليه السلام إلى أن تقوم الساعة.

إلى الهواء، فأخذ شيئا وطرحه من در وياقوت! وما أشبهه ! قال أبو القاسم : فضربت بيدي فأخذت زعفرانا وطرحته!؟ فقال لي الحضر : ما كان في الجماعة من أهدى ما يعلم للعرس[1] غيرك !؟»

❖ ❖ ❖ ❖ ❖ ❖

وقد حافظ الجنيد رحمه الله على سيره الاجتهادي في العبادة والذكر إلى آخر أيامه رضي الله عنه! ولا عجب فمن اعتاد الدخول من باب من الأبواب فعليه بلزوم ذلك الباب حتى يزداد فيه ترقيا وعطاء وكذلك التذاذا وأنسا.

فهذا أبو محمد الجريري يقول : كنت واقفا على رأس الجنيد في وقت وفاته! وكان يوم جمعة ! وهو يقرأ القرآن ! فقلت : يا أبا القاسم ! ارفق بنفسك! فقال : يا أبا محمد ! ما رأيت أحدا أحوج مني في هذا الوقت! وهو ذا تطوى صحيفتي! وقد وجد على نقش خاتمه ما يصدق هذا المذهب في ملازمة الباب وهو هذه العبارة الوجيزة العزيزة « إذا كنت تأمله فلا تأمنه » ومصداقها في الآية ﴿ فلا يأمن مكر الله إلا القوم الخاسرون ﴾ وقبلها ﴿أفأمنوا مكر الله﴾؟[2]

ويتصل بهذا ثبابته حال وفاته رحمه الله :

قال أبو بكر العطار: حضرت الجنيد عند الموت في جماعة من أصحابنا إذ خرجت الروح من رجله فثقلت عليه حركتها، فمد رجليه وقد تورمتا، فرآه بعض أصدقائه فقال : ما هذا يا أبا القاسم؟ ! فقال له :

---

[1] – العرس : المرأة العروس والرجل أيضا يقال هو عرسها وهي عرسه (المعجم الوسيط : عروس).

[2] – الأعراف : 99.

هذه نعم الله! الله أكبر !

فلما فرغ من صلاته ، قال له أبو محمد المذكور لو اضطجعت؟ فقال له : يا أبا محمد !هذا وقت يؤخذ فيه! الله أكبر! فلم يزل كذلك حتى مات ؛ ولما توفي رحمه الله قال أحد محبيه : الخليدي : لقد رأيته في المنام فقلت له : ما فعل الله بك ؟ فقال :

طاحت تلك الإشارات ! وفنيت تلك العلوم ! ونفدت تلك الرسوم، وما نفعنا إلا ركيعات كنا نركعها في السحر! رحمه الله من عالم عامل وزاهد واصل وراسم لطريق القوم على المنهج النبوي والسني، فصار بذلك إمام الطائفة دون منازع وإمام المغاربة محبي أهل الله وخاصته، والمجاهدين في هذا المسلك بالأذكار والاستغفار بالأسحار حتى فاضت عليهم الأنوار وانبجست لهم الأسرار ورزقوا العلوم اللدنية والكرامات المصطفوية بمختلف ألوان الخدمة والتشمير على أزرهم للتقرب إلى الله بالنوافل بعد الفرائض حتى أحبهم الله فجعل منهم من كان سمعه الذي يسمع به وبصره الذي يبصر به ويده التي يبطش بها، فخضعت لهم القلوب والاناسي والوحوش في البراري في الأصابيح والأماسي، فبذكرهم تتنزل الرحمات وتغشى المجالس الملائكة بالسكينة والبركات، لا حرمنا الله من مجالستهم ولا عدمنا منهم صالح الدعوات آمين آمين.

النموذج الثَّالث: أبو العباس السبتي وإنشاء مذهـب جديد فـي الإنفـاق والإحسان
فـي عصـر الأزمـات الاقتصادية

الشبـــاب
والفتوة ومذهب في الإنفاق والإحسان
بتسعة أعشار المال في عصر الخصاصة
والفاقة عند أبي العباس السبتي المراكشي
في العصر الموحدي بالمغرب

في طريق أبي ذر الغفاري ومذهبه

أبو العباس السبتي المراكشي يفهم جوهر مذهب ابي ذر ويترجمه إلى أعمال محسوسة في كرامات بارزة وتطبيقات خفية وظاهرة.

ثم كتب لشاب من إقليم سبتة المغربية أوائل دعوة الموحدين وأواخر أفول دولة المرابطين ومحنة النخب الفكرية والمذهبية وذات النفوذ والتنفيذ والتي بقيت على ولاء وإخلاص لبيعة المرابطين أمثال القاضي عياض رحمه الله الذي أزعج إلى مراكش زمن الموحدين وفرضت عليه الإقامة إلى أن مات بها، وهو أحد شيوخ شيخ هذا الفتى أبي عبد الله الفخار الشهير.

وكانت سبتة ثغرا بحريا تجاريا وثقافيا وعسكريا ومنفذا إلى الأندلس والبحر المتوسط من جهة وإلى داخل المغرب من جهة أخرى، فعاش أبو العباس أحمد بن جعفر الخزرجي الأصول السبتي الولادة والنشأة هذا المخاض المضطربة أمواجه على ضفاف هذا الثغر ما بين ولاء مرابطي وآخر أندلسي وثالث موحدي جديد طاغ ومزلزل خلال القرن السادس الهجري.

وإذا بالفتى الجميل الأوصاف المشرق اللون الحريص على اختيار أحسن اللباس، الفصيح اللسان، الحاذق للقواعد اللغوية ولعلوم عصره من فقه وحساب وفلك وتصوف وأخلاق أن كان من شأنه وهو صغير السن التفكر في موضوع التوكل فيقول :

« سمعت أقوال الناس في التوكل، فتفكرت في حقيقته إلى أن رأيت أن التوكل لا يصح إلا بترك كل شيء» [1]، وإذا بهذا الفتى الجميل المرفه يتحول تدريجيا؟!.

---

[1] – أبو يعقوب يوسف التادلي : التشوف إلى رجال التصوف وأخبار أبي العباس السبتي، ص 454، تحقيق أحمد توفيق 1984، الدار البيضاء مطبعة النجاح.

❖ وهكذا نشأ الفتى أبو العباس أحمد في بيئة من الحجاج وعلم الكلام فأعطي بسطة في اللسان وقدرة على الكلام، لا يناظره أحد إلا أفحمه، وكان سريع الجواب [1].

❖ وهكذا تمت له صفات خلقية وخلقية وعلمية وحجاجية حتى كان القرآن ومواقع الحجج منه على طرف لسانه !! فأخذ بمجامع القلوب وسحر العامة والخاصة ببيانه، يأتيه من يأتيه للإنكار عليه فما ينصرف عنه إلا وقد سلم له وانقاد لقوله [2].

انقلاب في حياته العلمية والسلوكية على النهج الإبراهيمي في التفكر والتجرد :

يذكر أبو العباس كيف حصل له انقلاب بعد هذا البروز العلمي الظاهر في سلوكه العملي بسبب عدم اقتناعه بأقاويل أهل عصره النظرية، وبما يحمله من علوم وحقائق وأدوات و حجج قوية! عندما ألهم حب التفكير في موضوع التوكل على الله حق التوكل :

1- فظهر له أولا أن ذلك لا يصح إلا بترك كل شيء والتجرد من كل ما يشغل!

2- ومع ذلك لم يحصل له منه ذوق وحلاوة!

3- فقرر أن يترك الأسباب وأن يطرح العلائق بكيفية عملية وألا يبقى في نفسه تعلق بمخلوق حتى يخوض فعلا في تجربة هذا المسلك من شعب الإيمان والإحسان.

---

[1] – التشوف 451.

[2] – التشوف 451.

4- وهكـذا خـرج مـن سـبتة ذات الجـواذب والعلاقـات، وبلـدة الطفولـة والذكريات متوكلا لا يلـوي علـى شـيء، وسـار النهـار كلـه حتـى أجهـده الجـوع والنصب، وهو الذي فارق بذلك ما تعود عليه من الرفاهية في العيش كما يقـول في رواية التادلي[1] وهي تختلف عن رواية أخرى عنده أنه نشأ في اليتم حتى إن أمه كانت تحمله للاشتغال عند البزازين[2]!!

5- وأيا ما كان فقد وجد نفسه وهو يصل إلى إحدى القرى المغربية بعـد جهد جهيد فتوضأ من ساقيتها ودخل مسجدها وصلى المغرب وبقي حيث هو إلى ان صلى العشاء وخرج الناس فقام للنوافل فلم يقدر من شـدة الجـوع والتألم من حركة المشي نهاره على قدميه! وهـذا يـذكرنا بحـال المضطر موسى عليه السلام القائل: ﴿رب إني لما أنزلت إلي من خير فقير﴾[3].

6- ثم قعد مضطرا وأنشأ يقرأ إلى أن مضى وقـت مـن الليـل فـإذا بقـارع يقرع بـاب إحـدى الـدور القريبـة مـن المسجد بعنف باحثـا عـن بقرتـه؟ وقـد أكثـر العجل الحنين إليها، فخرج معه الرجل يبحثان في القرية عنها! وقال لهما بعضـهم : لعلها دخلت المسجد وقت العتمة ! ففتحـوا فوجـدوا أبـا العبـاس بالمسـجد يقـرأ وعليه أثر الجوع والجهد ! !

7- فـألهم صـاحب البقـرة السـؤال عـن الضـيف وهـل تنـاول شـيئا هـذه الليلة؟ ثم جاءه بكسرة خبز وقدح لبن! ثـم ذهـب يـأتي بالمـاء مـن داره فـإذا بقرتـه وعجلها معها بالدار في مكان لم يكونوا دخلوا إليه بحثا عنها ! !

---

[1] - التشوف 454.

[2] - هامش 10 من التشوف 454.

[3] - القصص 24.

8- ففهم صاحب البقرة الإشارة وقال للجيران : ما كان خروجي إلا من أجل هذا الفتى الجائع !!؟ الذي بات بالمسجد ؛ ثم قدم إلى أبي العباس راجيا استصحابه إلى منزل صاحب البقرة فأبى فانصرف وتركه[1].

<u>ستون عاما في تجربة الإنفاق ومحاربة الشح والمرابطة على ذلك :</u>

كتب لأبي العباس أحمد بن جعفر السبتي هذا (524 هـ - 601هـ) أن يصل بعد تجربته المذكورة إلى مراكش وهو ابن ست عشرة سنة في بعض الروايات ، فإذا بمراكش في حالة حصار الموحدين لها قصد الاستيلاء على العاصمة المرابطية المنيعة ! فبقي بجبل إكَليز خارج مراكش مرابطا ومتعبدا وممارسا للتعلم والتعليم ، في بحث دائب عن ترجمة حقيقة التوكل إلى الواقع المعيش وذلك حوالي 40 عاما كاملة كما قال عنه ابنه محمد :

« سمعت أبي يقول :

1- وصلت إيكليز وأنا ابن ستة عشر عاما

2- وقال عن العشرين سنة الأولى التي قضاها في جبل إجليز ملخصا تجربته في التوكل : والإنفاق « وجدت آية من كتاب الله ترد على قلبي كثيرا وعلى لساني ، وهي وقوله تعالى ﴿ إن الله يامر بالعدل والاحسان ﴾[2]

- فتدبرت ذلك وقلت :

لعل لهذا السبب أنا مطلوب بهذه الآية ، فلم أزل أبحث عنها في التفسير إلى أن وقفت على غريب التفسير ، وفيه أنها نزلت حين آخى النبي صلى الله عليه وسلم بين المهاجرين والأنصار ! وأنهم سألوا النبي صلى الله عليه وسلم أن يعلمهم حكم المؤاخاة ! فأمرهم بالمشاطرة !

---

[1] – التشوف 454.

[2] – سورة النحل :90.

- ففهمت أن العدل المأمور به هو المشاطرة.

- ثم نظرت إلى قول النبي صلى الله عليه وسلم : (تفترق أمتي على اثنتين أو ثلاث وسبعين فرقة كلها في النار إلا واحدة وهي ما أنا عليه وأصحابي [1] وانه قال ذلك صبيحة اليوم الذي آخى فيه بين المهاجرين والأنصار وأن الأنصار ذكروا أنهم شاطروا المهاجرين، فقاله بإثر ذلك [2]

- فعلمت ان الذي عليه هو وأصحابه هو المشاطرة (والإيثار!)

- فعقدت مع الله تعالى أن لا يأتيني شيء إلا وأنا أشاطر فيه إخواني من المومنين الفقراء – وذلك برباط جبل إجليز المحاصر –

- فأثمر هذا الحكم بالخاطر ! ! ! ! فلا أحكم على شيء بخاطري إلا صدق !

3- من العشرين إلى الأربعين برباط إجليز وهو على هذه العادة يلهم أن العدل هو التشطير وأن الإحسان يزيد عن العدل ؛ فعقد العقد على ألا يأتيه شيء إلا أمسك ثلثه وصرف الثلثين حتى أثمر له ذلك :

- الحكم على الخلق في أمور الولاية والعزل كما تحكي قصته مع أحد أمراء الموحدين أبي يحيى الكومي وزير يوسف بن عبد المومن بعد ابن جامع وكان أصاب الناس قحط، فسلم أبو العباس عليه مشيرا إلى السماء، كأنه يقول له : تصدق ليسقى الناس ! فقال أبو يحيى إن الله غني عنا!

---

[1] – وثقه شاكر وناصر الدين ووصفا إسناده بالجيد.

[2] – الذي يعرف في تفسير آية النحل آنفة الذكر أنها في عموم المساواة في أصل المعاملات وغيرها وتليها مرتبة الإحسان والإيثار في الاعتقادات والعبادات والمعاملات وراجع تفسير القرطبي وابن عطية في الحديث عن آية سورة النحل الآية التسعين على سبيل المقارنة بين الأقوال والتأويلات عند الصحابة والتابعين ومن بعدهم.

- فولى أبو العباس وهو يقول : سبحان الله ! هذا الرجل عزل نفسه ! ثم قال أبو العباس لصاحبه ابن مساعد : أرخ هذا اليوم قال : فأرخته، ثم قلت له : من أين قلت هذا القول ؟قال : قال اله عز وجل ﴿ ها أنتم هؤلاء تـدعون لتنفقوا في سبيل الله فمنكم من يبخل، ومن يبخل فإنما يبخل عن نفسه، والله الغني وأنتم الفقراء، وإن تتولوا يستبدل قوما غيركم ثم لا يكونوا أمثالكم﴾ [1]

قال ابن مساعد : فتمت ثلاثة عشر يوما من التاريخ وجاء من اشبيلية أبو محمد بن يزرجن بعزل أبي بكر بن يوسف عن دار الأشراف» [2]

خارج رباط اجليز ووسط مراكش :

4- ثم نظر أبو العباس فوجد أن الذين أوجب لهم الزكاة سبعة أصناف وظهر له أن هناك سبعة أصناف أخرى تصرف إليهم الأموال إحسانا وزيادة على العدل

1- وذلك أن للنفس حقا 2- وللزوجة حقا

3- وللرحم حقا 4- ولليتيم حقا

5- وللضيف حقا 6- الخ 7- الخ

وذكر صنفين آخرين لم يسمهما فتلك سبعة أصناف.

❖ - لذلك انتقل إلى هذه الرتبة وعقد مع الله عقدا على أن كل ما يأتيه إنما يمسك منه سبعين فقط : حقه وحق زوجه، ثم يصرف الخمسة الأسباع لمستحقيها إحسانا .

[1] – محمد : 38.

[2] – التشوف : 469.

وظل طيلة أربعة عشر عاما على ذلك، حتى أثمر له ذلك الحكم في السماء كما سيبرهن على ذلك.

- فما قال يا رب ! إلا قال الله له : لبيك ! إشارة إلى الحديث الصحيح في الأشعث الأغبر لا يوبه به [1]

❖ أبو العباس ينظم الأسباع التي قسم عليها العطاء في شكل تطبيقي محصور بحسب المحتاجين كالآتي :

السبع الأول : في خاصة حاجياته (شخص واحد)

السبع الثاني : فيمن وجبت عليه نفقته : الأولاد / المماليك / الزوجة (32 شخصا)

السبع الثالث : الأيتام المهملون (32 قسمة)

السبع الرابع : ذوو الأرحام (84 قسمة)

السبع الخامس : الفقراء عامة ممن لا يسألون الناس إلحافا (84 قسمة)

السبع السادس : ...... (.............)

السبع السابع : .... (...........)[2]

5- السنة الأعوام الأخيرة في حياته : خارج رباط اجليز ووسط مدينة مراكش يجول يوميا بحاراتها وأسواقها ومساجدها :

قال أبو يحيى ابن مساعد اللمطي :

---

[1] – وهو: رب أشعث أغبر ذي طمرين مدفوع بالأكف لا يوبه به لو أقسم على الله لأبره، وورد بألفاظ أخرى وأخرجه البخاري عن أنس في موضعين وهو عند الإمام أحمد برقم 13749 و 13614 عنه أيضا.

[2] – التشوف 460 – 461.

انتهى أبو العباس إلى إعطاء تسعة أعشار والتمسك بالعشر، وهي النهاية، قال التادلي: إنما قال: وهي النهاية لأنها الواجب فيما يبقى للمساكين، فإذا خرج الإنسان عن هذه التسعة الأعشار الباقية بعد الزكاة وتمسك بالعشر فقد قلب الآية فأخذ لنفسه حق المساكين وأعطى المساكين ما هو حقه وهو المالك!! [1]

❖ **أبو العباس يفتح له باب من أبواب العبادة بالمال فيلزمه ويحسنه حتى أحبه الجواد الكريم فكان لسانه ويده ورجله وأجابه عَمَّا أراد بالإيجاب والقبول:**

يتحدث أبو العباس عن مذهبه ودوران هذا المذهب على أمر الصدقة ورد سائر أصول العبادات إليها فيقول:

« من لم يفهم معنى الصلاة لم يصل،

فإن أول الصلاة تكبيرة الإحرام، وذلك بأن ترفع يديك وتقول، الله أكبر!

والمعنى: الله أكبر من أن يضن عليه بشيء ! ! !

❖ فمن رأى شيئا من متاع الدنيا في نفسه فلم يحرم ! ولا كبر للصلاة !

- ومعنى رفع اليدين بالتكبير: قد تخليت عن كل شيء لك، لم أمسك قليلا ولا كثيرا.

❖ ثم يتكلم عن أجزاء الصلاة بهذه المعاني:

- وكان يتأول الركوع: على المشاطرة !

- والسلام من الصلاة: على الخروج من كل شيء !

---

[1] – التادلي: التشوف: 473.

❖ وكان يقول : سر الصوم أن تجوع : فإذا جعت تذكرت الجائع ، وقد علمت مقدار ما يقاسيه من نار الجوع فتصدق عليه ، فإذا صمت ولم تتعطف على الجياع ولا أحدث عندك الصوم هذا المعنى ما صمت ولا فهمت المعنى المراد بالصوم !

❖ والزكاة : إنما فرضت عليك في كل عام لتتدرب على البذل والعطاء ، وإلا ففي الأموال حق سوى الزكاة [1] ، وليس المقصود بأن تعطي في وقت مخصوص ! وتمسك في غيره !

❖ و فرض الحج : : سره أن تبرز في زي المساكين بحلق الرأس والشعر ولبس الأخلاق –أي الثياب البالية – والتجرد من ثياب الرفاهية والتذلل لله و إظهار العبودية ! !

❖ وسر الجهاد : بذل النفس في مرضاة الله تعالى والتخلي له عن كل شيء ، وترك التعلق بأسباب الدنيا.

❖ ومعنى التوحيد : توحيد الله تعالى بالتعظيم دون أن تجعل معه إلها من متاع الدنيا ، وكل ما استولى على الإنسان فهو إلهه ﴿أفرأيت من اتخذ إلهه هواه ﴾ [2].

---

[1] – حديث فاطمة بنت قيس سئل النبي صلى الله عليه وسلم عن الزكاة فقال: إن في المال حقا سوى الزكاة ثم تلا ﴿ ليس البر أن تولوا وجوهكم قبل المشرق والمغرب﴾ (البقرة : 177) وهو في سنن الترمذي في كتاب الزكاة 659 وفي إسناده مقال ولكن الآية آنفة الذكر تشهد لصحة معناه على سبيل الكمال والإحسان لا القدر الأدنى الذي هو شرط الإسلام.

[2] – سورة الجاثية : 23.

❖ **فيلسوف وحكيم ونظار قرطبة أبو الوليد بن رشد يستقصي مذهب أبي العباس :**

اهتم أبو الوليد بن رشد بحال أبي العباس وما ينقل عنه من غريب الأطوار، وأرسل أحد الثقات من أصحابه أبا علي الزناتي لينظر في الأمر مليا وبتؤدة وعلى مهل حتى ينفذ إلى جوهر مذهبه قال أبو علي :

- فجلست مع السبتي كثيرا إلى أن حصلت مذهبه، فأعلمته بذلك ! !
- فقال لي أبو الوليد :

« هذا رجل مذهبه أن الوجود ينفعل بالجود » [1]

❖ **« ولئن سألني لأعطيته ولئن استعاذ بي لأعيذنه »** [2]

فتح لأبي العباس بسبب ما تقدم باب الإجابة وتفريج الكرب وحل المشكلات والتوسط في ذلك بين الأطراف :

- **الطرف المعطي** : تقضى حاجته بالصدقات.
- **والطرف الآخذ** : تحل مشكلات فقره بإنفاق هذه الصدقات فورا على حاجاته.
- **والطرف الواسطة** : ينوب عن الله عز وجل سببا وبابا في استدرار هذه العطايا وإنفاقها بسرعة وبشكل يومي وبدراسة ميدانية للشرائح المتساكنة بمراكش الموحدية في أعقاب أزمة حصارها التي أثرت على الساكنة، ففقدوا الرجال والأموال وحرموا من الموارد الوافرة والتجارات الرائجة، حتى مسهم الضنى

[1] – التادلي : 454. وذلك بتكليف من الأميـــر الموحدي المثقف الحكيم.

[2] – حديث قدسي أدار عليه الشوكاني كتابه العجيب: قطر الولّي على حديث الولّي وهو مطبوع.

واستسلموا بعد مقاومات وطيلة سنوات، فجاء أبو العباس وكأنه الرحمة المهداة إلى هؤلاء الذين اضطروا إلى كل تضحية، بلسما شافيا وعلاجا يوميا موافيا، وقد قست قلوب المالكين الخائفين البخلاء بما بقي بأيديهم! وقد مرت عليهم السنوات العجاف ! فعرفوا كيف يكنزون ! ولم يعرفوا كيف ينفقون، والمستقبل أمامهم غامض، والدولة الجديدة ذات قبضة من حديد، (وتمييز) بين المخلص لها والمنافق، يصل إلى حد التصفيات المالية وأحيانا إلى التصفيات الجسدية! فخاف الناس من إظهار شيء من الغنى والإنفاق؛ وأمسك الغني وأخفى وكنز واستخفى! حتى ظهر وكأن الجميع محتاج فقير، فجاء هذا الرجل الأمة والغريب الأطوار والتصرفات والخفاء والظهور ليفتح القلوب والجيوب، وعلامات صدق مذهبه ظاهرة وإمارات القبول عليه متظاهرة، والبراهين الدالة على صدق أقواله ودعاويه باهرة، وهو يحمل شعار :

« كل ما كان معجزة لنبي صح أن يكون كرامة لولي »

وقد قيل في تأويلها إن حصل مثله للولي فهو كرامة وما كان كرامة لولي فإنه يسمى معجزة لنبي مع الفرق[1].

❖ **من دلائل كراماته وإكرامه وتكريمه قصص تحكى ونماذج تحتذى :**

أولا : قصته مع انحباس المطر بمراكش وانفعال الوجود من حوله بالصدقات :

حدث أبو الحسن الصنهاجي قال :

احتبس المطر – عن مراكش – في بعض الأوقات،

- فقال أبو الحسن البلنسي الجياني لأبي العباس :

[1] – **انظر تفصيلات ذلك في كتب علم الكلام وفي كتاب: (الشوكاني آنف الذكر) في الفرق بين المعجزة والكرامة والاستدراج وما إليها.**

- أما ترى ما فيه الناس من احتباس المطر ؟!

- فقال أبو العباس، إنما احتبس المطر لشح الناس، فلوا تصدقوا لمطروا! فقل لأصحابك من الفلاحين : تصدقوا وبقدر ما أنفقتم تمطروا ! !

- فقال له أبو الحسن المذكور : لن يصدقني أحد ! – انظر إلى هذه الدرجة من الشح – ولكن مرني في خاصة نفسي ! فما أمرتني به أفعله !

- فقال له أبو العباس : تصدق بمثل ما أنفقت، أي على حرث وسقي بستانك الوشيك على الجفاف.

- فقال أبو الحسن البلنسي المذكور له : إذا امطرت السماء وصلحت غلتي أخرجت حينئذ من مقدار ما أنفقت عليها وتصدقت به ! !

- فقال أبو العباس له : إن الله تعالى لا يعامل بالدين! ولكن استسلف هذا القدر فاستسلفه وتصدق به كما قال له، ثم خرج على (بحيرته) – أي بستانه – والشمس شديدة الحرارة، ورآى ما غرسه مشرفا على الهلاك! فأقام على ذلك ساعة، فإذا بسحابة جاءت إلى" بحيرته " [1] خاصة فأمطرتها إلى أن ارتوت وبللت ثياب ابي الحسن ظانا أن هذا المطر عامٌّ ! فلما خرج من حائط " بحيرته " تلك رآى المطر لم يتجاوزها، واشتهرت هذه القصة بمراكش بين الناس! وكان أبو العباس السبتي يعضدها بحديث الصحيحين حول تقديم الصدقات أمام صلاة الاستسقاء [2].

---

[1] – البحيرة بالعامية المغربية الحقل المحاط بالجدار والشوك والمعتنى بحراسته وسقيه أكثر، وهي تصغير بحرة أنثى البحر والمستعملة في الحجاز قديما وإلى اليوم.

[2] – البخاري : كتاب صلاة الاستسقاء 14 ومسلم كتاب صلاة الاستسقاء 10 وهو عن أنس بن مالك.

ثانيا : أبو العباس يتأول آية الأمانة بأنها الرزق :

حدث أبو عبد الله الأنصاري قال : حضرت مجلس أبي العباس السبتي يوما وقد ذكر قوله تعالى ﴿ إنا عرضنا الأمانة على السماوات والأرض والجبال فأبين أن يحملنها وأشفقن منها وحملها الإنسان إنه كان ظلوما جهولا ﴾ [1] فقال :

- هذه الأمانة هي الرزق !

- فالسماوات أعطت ما عندها من الماء وهو المطر

والأرض أعطت ما عندها من المياه فأنبتت الأرض وأبرزت ثمارها وما فيها من الأرزاق وأبت من إمساكها !

فصار الإنسان خازنا لما يجتمع عنده : فيمنع منه المساكين ! إنه كان ظلوما جهولا ! [2].

ثالثا : أبو العباس يتواضع في طريق الإنفاق أمام المنفق الأعظم صلى الله عليه وسلم :

يذكر أبو العباس خلاصة مذهبه وتواضعه أمام المنفق الأعظم صلى الله عليه وسلم فيقول :

« قصدت أنا وحدي إلى (عين الخير) دون سائر العلماء :

- والأمر كله يدور على العطاء والبذل ! ! !

وما تصدقت بصدقة لوجه الله تعالى – أي من دون طلب عوض – إلا بربع درهم ! وإنما كنت أتصدق لأجازى على ذلك ! والعصر كان عصر حاجة وفقر وضنك من العيش ومادية طاغية أثناء الأزمات والمجاعات والطواعين

---

[1] – سورة الأحزاب: 27.

[2] – التشوف 471 – 472.

والكوارث – وما تصدق لوجه الله تعالى العظيم خاصة إلا سيدنا ومولانا محمد صلى الله عليه وسلم، وغيره من الأنبياء الذين لم ينالوا من الدنيا إلا البلاغ !»[1].

رابعا : يتأول كي الجباه والجنوب والظهور في آية التوبة ويرد على شح اليهود بالصدقة :

كان أبو العباس ينكر من يعتقد أن الله تعالى لا يجازي على الصدقات وان من قال بهذا واعتقده فقد وافق اليهود في أن يد الله مغلولة عن الجزاء بأضعاف ما أنفقه المنفقون فقالوا ﴿يد الله مغلولة غلت أيديهم ولعنوا بما قالوا بل يداه مبسوطتان ينفق كيف يشاء﴾[2]، أما الذين يكنزون الذهب والفضة فإنما تكوى أماكن من أجسادهم لأن الغني إنما يعرض عن المساكين بوجهه ثم بجنبه ثم يوليهم ظهره، فعوقب في هذه المواضع بالكي بالنار بسبب الإعراض عن الفقراء[3].

خامسا : أبو العباس يكشف من أسرار الصدقات ترغيبا ويتواضع في نفسه وما يصنع :

كان رحمه الله يصف نفسه بالتاجر الشحيح الذي يتعامل مع الله تعالى طالبا منه عن كل صدقة عوضا، وكان يرى نفسه دون ما يبذله أبو الحسن البلنسي صاحبه، كما كان يكشف السر في التركيز على الصدقات دون الصلوات لأن العلة الفاحشة التي عمت في عصره هي البخل !

---

1 – التشوف 472.

2 – سورة المائدة: 64.

3 – التشوف : 472.

ثم يكشف عن أسرار هذه العطايا ودرجاتها مما لم يطلع عليه كل واحد قائلا لأصحابه :

« إنما أودعكم السر الذي لم يطلع عليه كل واحد :

1- بإعطاء الشطر – أي النصف – تكون الوقاية، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « اتقوا النار ولو بشق تمرة » [1]

2- وبإعطاء الثلثين يحكم في المخلوقات كالاستسقاء والولايات والعزل وأمثال ذلك [2].

3- وبإعطاء خمسة أسباع يستجاب الدعاء وتكون الكائنات [3].

4- قال ابن مساعد : وانتهى أبو العباس إلى إعطاء تسعة أعشار والتمسك بالعشر وهي النهاية [4].

قلت : وقد سمعت من شيخي الأستاذ العلامة إقبال الشرقاوي المراكشي الزاهد رحمه الله أنه كان يقسم حوالته الشهرية وراتبه من اشتغاله بالتعليم فيما ينيف عن الثلاثين من أفراد أسرته الفقراء – وهو بصدد الحديث عن إفلاس المذهب الاشتراكي المرفوعة شعاراته آنذاك خلال الستينات من القرن الماضي – مذكرا بأن أكثر هذه المذاهب لا تستطيع أن تصل إلى مستوى دعوة أمثال أبي العباس إلى البذل والعطاء والتخلي عن الممتلكات النفسية لا الممتلكات المادية دون خوف من تأميم أو مصادرات باسم الاشتراكية مثلا !

[1] – عن عدي بن حاتم، راجع مسند احمد : 17788.

[2] – تجربته الخاصة. وتقدم الحديثان الصحيحان أحدهما عند البخاري في الأشعث الأغبر لو أقسم على الله لأبره والثاني الحديث القدسي المشهور المستفيض حول محبة الله للعبد بكثرة النوافل حتى لو سأله لأعطاه قطعا ولو استعاذ به لأعاذه قطعا.

[3] – تجربته في هذا الصنيع.

[4] – نفسه 473.

❖ أبو العباس يرتدي أردية المزاح وارتكاب بعض المخالفات حتى لا يفتن الناس بصلاحه الظاهر فيغتر ويلبس عليه الشيطان من هذا الباب في نزعة (ملامتية)[1] تخفي الصلاح خوفا من الرياء والسمعة.

- سئل أبو العباس رحمه الله من طرف ابن مساعد : يقول له : يا أبا العباس ! إني أكره ما تتكلم به من الفحش ! فإن الله تعالى يقول ﴿ ما يلفظ من قول إلا لديه رقيب عتيد﴾ [2]

- فقال له أبو العباس : إذا تكلمت بالكلمة أليس يطلع الله علي قلبي ما لا يطلع عليه مثلك ؟ !

- فقال : ابن مساعد : بلى !

- فقال أبو العباس : بماذا أبالي إذا كان الله تعالى علم في ما عقد عليه ضميري ! [3].

❖ أبو العباس يكره سماع شعر المجون فيحوله إلى شعر الزهد بشيء من التصرف :

كان أبو العباس كسائر أهل سبتة ومراكش والأندلس يهتز للشعر ويطرب له ويقرضه أحيانا ! فكان كلما سمع شعرا لمجون كرهه ورفض ذلك وحوله إلى شعر الزهد والتقرب إلى الله تعالى حتى ينتشر ذلك على لسان مريديه ،

---

[1] – الملامتية بفتح الميم في الملامة بتاء زائدة للتخصيص وهي نزعة صوفية تظهر للناس بعض المخالفات لتغطي ما تشعر به من حقائق وفيوضات وتكريم تخاف أن تفتن من العامة لو هي ظهرت به وقدوتها في ذلك العبد الصالح في سورة الكهف ابتداء من آية 65 إلى آخر السورة وانظر حول الملامتية أبو العلاء عفيفي: الملامتية والصوفية وأهل الفتوة وغيره.

[2] – سورة ق : 18.

[3] – التشوف 473.

- قال أبو يحيى بن مساعد : حضرت معه يوما فأنشده بعض الحاضرين بيتين من قصيدة ابن عمار التي أولها :

أدر الزجاجة [1] **فالنسيم قد انبرى والنجم قد صرف العنان عن السرى**

لذي الوزارتين أبي بكر بن عمار آنف الذكر (ت 477هـ) في مدح المعتضد والد المعتمد، فقطع أبو العباس الإنشاد وكره منه سماع هذين البيتين فقال بدلهما :

أقم الصلاة مهاجرا سنة الكرى واجعل صباحك عنده حمد السرى

واطو المراحل بالعروج لمن لـه لطف ينزله إذا هجع الـــورى [2]

❖ <u>أبو العباس في طريق مجمع البحرين : بحر الحقائق الكونية العظمى والحقائق التشريعية الكبرى :</u>

كان أبو العباس بفضل مواهبه المتعددة وما فتح عليه في هذا الباب من الانكشاف والشفافية والإحساس بوجود الآخرين وحاجاتهم، مما يقضي منه العجب في العمل بخلاف ظاهر الحواس والمظاهر! والانصراف إلى الأعماق والجواهر، داعيا الجمهور من خاصته ومن الكافة أحيانا إلى حدود الإنكار عليه وتسفيه مذهبه تارة أو العجب من تصرفاته الغريبة أخرى على طريق الجمع بين أسرار القدر الكبرى وبعض ما يخالف ظاهره المألوف المعتاد من عادات أو أعراف أو أخلاق أو تصرفات تعتبر مشروعة ومقبولة في الظاهر.

---

[1] – وروي أيضا : أدر المدامة.

[2] – التشوف 475.

أولا : أبو العباس يشعر بكراهية الأكل ظانا أن أهله جياع :

حدث عنه أنه قدم له أهله عشاءه! ولكنه لم يجد في نفسه استساغة له! فظن أن أهله تعمدوا إيثاره بطعامهم حتى وبخهم على ذلك، لأن الطعام لم يطب له، فحلفوا كلهم له بأنهم أكلوا حتى شبعوا جميعا!

- فقال لهم : أعيدوا النظر مرة أخرى هل بقي احد؟
- فلما فتشوا وجدوا امرأة مسكينة نائمة بدون عشاء أمام الباب.
- فقام أبو العباس ورفع إليها عشاءها وجعل لها فراشا تنام عليه [1].

ثانيا : رجل خليع يسأله الطعام فلا يجد عنده شيئا فيطلب له طعاما بالسلف من صديقه أبي يعقوب الحكيم :

من مستغرب تصرفاته في نظر العامة أن رجلا خليعا رقيعا طلب منه الطعام زاعما بأنه جائع، فلم يجد عنده شيئا ولكنه عاوده ثانية وثالثة ! فحينئذ طلب أبو العباس من صاحبه أبي يعقوب الحكيم ثمن خبزة! فاشترى به لذلك الرجل خبزة!

- ثم التفت إلى صاحبه أبي يعقوب متسائلا : لعلك قلت في نفسك : كيف أعطي هذا الخليع ما تراه؟ !
- فقال أبو يعقوب : لقد خطر ذلك ببالي فعلا !
- فقال أبو العباس : افرض أنه لو لم يكن هذا الرجل خليعا وكنت أنت ذلك الخليع، فجاء في هذه الصورة وفداك ، ولو لم تعرف قدر ما أنعم الله به عليك

---

[1] – ابن الزيات آنف الذكر 466.

حين لم يجعلك كذلك، مترجما في هذا السلوك دعاءه عليه السلام في مثل هذا الموقف « **الحمد لله الذي عافاني مما ابتلى به كثيرا ممن خلقه** [1] » [2].

ثالثا : كراهية بعض فقهاء الوقت لصنائع أبي العباس وسبب ذلك :

قال أبو بكر : قلت للشيخ أبي العباس ؟ ما للعلماء يكرهونك ويعادونك!!!

- فقال : لأني موقن بخبر الله تعالى حيث قال : ﴿ **وما أنفقتم من شيء فهو يخلفه وهو خير الرازقين** ﴾ [3] وهم غير موقنين بذلك!

وكان يقول في هذا المعنى : ركن العلماء إلى الدنيا وبخلوا بها وغلبوا جانب الرجاء، وفيهم يقول الله تعالى ﴿ **فخلف من بعدهم خلف ورثوا الكتاب يأخذون عرض هذا الأدنى ويقولون سيغفر لنا وإن يأتهم عرض مثله يأخذوه! ألم يؤخذ عليهم ميثاق الكتاب أن لا يقولوا على الله إلا الحق ودرسوا ما فيه، والدار الآخرة خير للذين يتقون أفلا تعقلون** ﴾ [4].

رابعا : أبو العباس ينبئ صاحبه بحقيقة ما لم يستطع عليه صبرا :

اشتهر أبو الحسن على بن أحمد الصنهاجي بمراقبة سلوك أهل عصره من رجال اغمات ومراكش، ولذلك صحب أبا العباس أربعة أعوام وهو ينكر عليه تصرفاته الغريبة! فلما كان صبيحة عرفة لقيه فأخذه أبو العباس إلى باب الدباغين المغلق وطلب منه أن يخرج كل ما عنده لأول من يلقيانه ولو كان من كان! وألا

---

[1] – الترمذي وابن ماجة وحسنه المنذري.

[2] – التادلي : 466.

[3] – سورة سبأ: 39.

[4] – سورة الأعراف 169 – 170.

يتغير خاطره من ذلك! وكانت معه سبعة دراهم فلقيا شيخا عجوزا دفع إليه أبو الحسن ذلك فإذا هما بعد حين "ببحيرة الرقائق" خارج السور!

- فكان أن جاء به أبو العباس إلى الصهريج عند غابة الرمان طالبا منه القيام بتجربة ثانية هي أن ينتصب على أربع ! فاستنكر ذلك! فأخبره أبو العباس أنه إنما أمره بما اعتاده في صلواته من ذلك!

ثم دخل أبو الحسن بين أشجار الرمان وركع ركعتين والشيخ يراقبه وأبو الحسن يقول في نفسه : إن لم يقع من الشيخ استحسان لهذه الصلاة لأقتلنه على زندقته هذه المرة!!

- فلما أتم صلاته وأقبل عليه، أخذ أبو العباس فورا يده فقلبها قائلا : مرحبا بالقرّان! [1]

- فغضب أبو الحسن من سماع هذه الكلمة في العامية المغربية ذات الدلالات القدحية قائلا للشيخ : لم غيرت قلبي بهذا الكلام في مثل هذا اليوم المعظم ؟ !

- فقال له أبو العباس موضحا ومسريا عنه : ليس هذا الكلام شتما وإنما يكون شتما إذا قلت لك : القرنان، وهو المذموم عند العرب قال أبو العباس:

- وإنما أردت بقولي : " قران " أنك قرنت في هذا اليوم بين الصدقة والصلاة !!

- ثم قام أبو العباس بتمثيل الكعبة والطواف والمقام بالعين والساقية في موضع هناك فقام بالطواف سبعا وصلى في المقام وأطال السجود ثم استند إلى شجرة وأبو الحسن مغتاظ جدا مما يرى ! ثم أطرق أبو العباس مليا وقال له :

---

[1] - أصله في اللغة الفصحى: القرنان؛ وهو الذي يقبل من زوجه أن تقترن بغيره وهو يعلم ذلك وأصل الكلمة من الثور القرنان الذي يلز مع ثور آخر لجر المحراث، انظر مادة : (قرن) في لسان العرب وتراج العروس.

- ادن مني أبا الحسن ، فدنا منه فقال له : اذكر كل حاجة من حاجاتك فإن الله قد وعد بالمغفرة في هذا اليوم يوم عرفة !

- فقال أبو الحسن : مرادي التوفيق لا غير !

- فقال أبو العباس : ما خرجت من باب المدينة حتى وفقت – أي بالصدقة –

- فقال أبو الحسن : ما أريد إلا التوفيق والعمل بطاعات الله تعالى ، ومالي غرض في شيء من أمر الدنيا.

- فقال له أبو العباس : يا أبا الحسن أفي نفسك شيء؟ !

- فقال أبو الحسن : بل أشياء !

- فقال له : أخبرني بها .... !

- فقال أبو الحسن : لا يفيدني ذلك شيئا ! !

- فقال أبو العباس : والله الذي خرجنا إليه لا أخفيت عنك ظاهرا ولا باطنا ! !

- فقبل أبو الحسن يده كما فعل به أبو العباس آنفا !

❖ ثم صرح له بما يقول الناس : من أنه يبيح الفروج بغير نكاح شرعي ؟ !

- فأجاب أبو العباس : ميز الشياطين بالافتراء والكفار بالإصغاء ! !

- فقال أبو الحسن : ما هذا يا أبا العباس؟

- فقال الشيخ : لقد حصلت بين مقامين : مقام الشياطين ومقام الكفار : فإنك أصغيت إلى من قال : ... ثم افتريت الآن علي ! فتب عن هذا ولا تعتقده ! ومن اعتقد تحليل فرج بغير نكاح شرعي فهو كافر ! وأقوال الناس كثيرة ، وقد قالوا : إن له صاحبة وولدا ! تعالى الله عن قولهم علوا كبيرا.

- ثم قال له : أرأيتني أنكحت محرما أو قلت بتحليل محرم ؟؟

- فقال أبو الحسن : لا !

- فقال أبو العباس له : اذكر ما تحققته مني إذن؟!

- فقال أبو الحسن : رأيتك تمر في أوقات الصلوات بالمساجد ولا تصلي فيها !

- فقال أبو العباس ما وجدت شفيعا أقدمه للشفاعة، فإني النبي صلى الله عليه وسلم قال : أئمتكم شفعاؤكم ! فانظروا بمن تتشفعون ! – وجاء في حديث ابن عمر : اجعلوا أئمتكم خياركم فإنهم وفدكم فيما بينكم وبين ربكم [1] – ثم قال أبو العباس : وهذا الذي قلت إنه عندي حقيقة ليس كذلك ! ! فإن لم أقل لك : اترك الصلاة! فمن قال بتركها فهو كافر!

- ولكن يا أبا الحسن – اذكر شيئا إذا سئلت بين يدي الله تعالى وقيل لك : ما تعرف في ما شهدت به ! !

- فقلت : لا أعرف حقيقة شيئا إلا كلامك بالفحش ! !

- فقال له الشيخ : أتعرف حديث معاذ في ذكر الحفظة ؟؟

- فأتى أبو الحسن به إلى قوله عليه السلام : " اضربوا بهذا العمل وجه صاحبه! فإنه أراد به غيري! وأنا رقيب على ما في قلبه" [2]، ثم ضَرَّط له الشيخ بفيه ضرطة أدهشته ! !

- فقال أبو الحسن : ما هذا ! !؟

---

[1] – كنز العمال 2748؛ والحديث بشواهده المختلفة معناه صحيح وإن كان في بعض طرفه ضعف.

[2] – الحديث بطوله في صعود الحفظة بعمل العبد ورد الملائكة له من كل سماء ورد الله تعالى له بعد ذلك في إسناده من لم يعرف وهو من استعمال الحديث الضعيف في فضائل الأعمال عند طائفة من الحديث وغيرهم. بضوابط ذكرها ابن القيم في كتابه عن هذا الموضوع: المنار المنيف.

- قال الشيخ : هذا جوابك ، فإن الملائكة شهدت له بالأعمال الصالحات ، فلم يقبل الله من ذلك إلا ما عقدت عليه الضمائر ! [1]

- ثم قال الشيخ : ما الذي تنكر علي من الفحش ! ! !

- فقال أبو الحسن : أنكر عليك مثلا قولك للناس "تيوس ! !" وهو كلام يغير القلوب !

- فقال الشيخ مبينا مغزاه : إنما أعني بالتيوس المتقدمين في الطريق ، وما رأيت أحدا من الناس إلا وهو يحب التقدم ! ومن شأن التيس أن يتقدم !

- قلت : ومن شكا إليك بشيء أمرته بالصدقة ، فإن لم يكن عنده شيء قلت له : اجعل على ظهرك أسود ! !

- فقال الشيخ : ما آمر الناس إلا بما ينتفعون به : فإن لم يجد الإنسان ما يدفع به أو يطلب به الشيء من صدقات أمرته أن يحمل الليل وصلاته على ظهره ، !

- قال أبو الحسن : فلم لم تقل له ، قم الليل !

- قال الشيخ : لو قلت له ذلك لقبل يدي وأدخلني إلى دركات العجب والكبر حينئذ ، وما طرد إبليس إلا بهذا.... !

- ثم سأله عن بداياته إلى نهاياته وبماذا تنفعل الأشياء؟ : ففسر له ذلك ، وكيف حملته أمه وهو يتيم إلى البزازين لتعلم الحرفة وكيف كان يغادر ذلك ويذهب إلى مجلس أبي عبد الله الفخار فتضربه أمه إلى أن علم الشيخ بذلك فتكفل بنفقاته وأنشأه نشأة خاصة إلى أن وصل مرحلة المراهقة حيث قدم إلى

---

[1] - **التادلي : 458.**

إجليز وكيف فتح عليه في باب الإنفاق إلى آخر حياته[1] رحمه الله ورضي عنه رائدا مؤسسا لأعظم السنن الحسنة في الإنفاق والبذل إنفاق من لا يخشى الفقر، وقد قيل قديما: (من فتح عليه في باب فليلزمه) فكذلك صنع ابو العباس واختصر شعب الإيمان وصبها جميعا في شعبة صعبة المدخل والمرتقى ولكنها عظيمة المخارج والنتائج حيث تؤدي إلى أعظم أبواب الرحمات والتصرفات الربانية في الوجود الذي جعله الله عز وجل قابلا للانفعال بالجود كما علق على ذلك ابن رشد الحفيد رحم الله الجميع، وجعل أبا العباس رحمه الله خير خلف لخير سلف وخلف ابتداء من أبي ذر إلى من شاء الله من كل محسن باذل جواد كريم إلى يوم الدين.

[1] - التادلي 458 – 459.

الإحسان باب صعب وعظيم على النفس وتجربته
(بين أبي ذر الغفاري وأبي العباس السبتي)

قد تبدو المقارنة هنا بين مجالين ورجلين مفارقة وتناقضا كبيرين، وذلك بسبب تباعد الشخصيتين والبلدين والزمانين! ولكن عند التأمل يظهر أن هناك عناصر تجمع بين الرجلين : الصحابي الفذ القائم بالنصيحة على الرؤوس الصادع بين ظهراني قريش بالتوحيد، والمتحدي بعد ذلك قومه غفارا ومن لف لفهم والسائر على نهج أوحد، لا يشبهه في ذلك أحد، حتى إنه تعرض في سبيل ذلك لمختلف صنوف الرفض والاستنكار والتأفف والرفض!؟

ولا غرابة، فإن نشأة هذا الفتى في بيئة يغلب عليها الشطف والخصاصة وهو يرى قومه غفارا يبحثون في كل شعب عن صيد، ويغيرون على الركب والسفر لا يحترمون في ذلك حتى ركب الحجاج، وزاد الفتى صلابة وتفردا ونفارا ما ولد به من خلقة هي أشبه بالخشونة والجسارة والطول واللون الأسمر ووفرة الشعر حتى صار بعد ذلك يغير وحده على الركب منفردا عن بقية أفراد قبيلته غفار!

❖ <u>مذهب أبي ذر في البذل والعطاء والإنفاق وتحريم الكنز والتوفير وما جره عليه</u>:

كان أبو ذر يتعبد الله على طريق اختاره منذ أن رأى أن فقراء قومه وفقراء العرب ومعهم فقراء أهل الصفة لا يجدون ما ينفقون، وأغنياء القبائل يجمعون ويغيرون ويرابون ويسلبون ولا تكاد تسخو نفوسهم إلا بالقليل، فحبب إليه اقتحام هذه العقبة من البخل والإمساك والادخار إلى آخر درهم من دراهمه، بل كان – وهو الذي تشرب هذا المذهب من أقوال وسلوك وكلام النبوة ومن آيات

الكتاب الصريحة في النهي عن الكنز وعدم الإنفاق – كان يلح على هذا الموضوع ويبدئ فيه ويعيد !،

❖ **كيف لا وهو الذي تشرب من أقوال حبيبه صلى الله عليه وسلم مثل قوله:**

- « أوصاني خليلي صلى الله عليه وسلم بسبع :

1- أمرني بحب المساكين والدنو منهم
2- وأمرني أن أنظر إلى من هو دوني
3- وألا أسأل أحدا شيئا
4- وأن أصل الرحم وإن أدبرت !
5- وأن أقول الحق وإن كان مرا !
6- وألا أخاف في الله لومة لائم
7- وأن أكثر من القول : لا حول ولا قوة إلا بالله فإنهن من كنز تحت العرش»[1]

❖ **تصرفات أبي ذر بين الإدهاش والإغراب والاستغراب والإنكار والإعجاب :**

كما كان أبو ذر الغفاري رضي الله عنه مثيرا للدهشة ومغربا ومستغربا في أحواله وأقواله وصورته وتصرفاته وتركيزه على باب واحد وهو محاربة البخل والشح وهز النفوس للبذل إلى آخر درهم كما كان أبو العباس السبتي مدهشا في

[1] – **أحمد البيهقي والبزار والطبراني صحيح : السلسلة الصحيحة رقم 2166.**

ذلك ومغربا ومستغربا وداعية إلى الإنكار عليه تارة وإلى الإعجاب به أخرى، مع فارق كبير بين صورة الرجلين وأسلوبهما وطريقة خطابهما....

❖ امتلاك أبي العباس صبر أيوب ورحمة عثمان ومزاح الصحابي نعيمان[1] وحكمة أبي بكر جعله ينجح حيث تعرضت الصعوبات لغيره/ ...

كان « مفوها حليما صبورا، يحسن إلى من يؤذيه، ويحلم على من يسفه عليه، رحيما عطوفا، محسنا إلى المساكين واليتامى والأرامل، يجلس حيث أمكنه الجلوس من الأسواق والطرقات، فيحض الناس على الصدقة ويأتي بما جاء في فضيلتها من الآيات والآثار، فتنثال عليه الصدقات فيفرقها على المساكين وينصرف»[2]

وبالنسبة لأبي ذر الغفاري رضي الله عنه إذا كان هذا العيش المألوف في شبه الجزيرة العربية أشبه بالصعلكة والتشرد فإنه يكون الباب الوحيد أحيانا في إثبات الذات ووضع هالة من الفخر والاعتزاز لا توفرها الامكانات الجسدية والجمالية والأسرية للفتى الجاهلي السلوك والعيش والطباع !

❖ غير أن أبا ذر جندب بن جنادة الغفاري هذا قد كتب الله له من الأسباب ما جعل طريقه غير طريق أهل الجاهلية في الانغماس في عبادة الأوثان والشرك !

---

[1] – نعيمان بن عمرو الأنصاري صاحب النوادر الصحيحة في باب المزحة والإضحاك لرسول الله وشهد المشاهد واشتهر بذبح ناقة الأعرابي بهجة وإفراحاً وبالرفق بالأعرابي الذي بال في المسجد ووقعت له مع بعض الخلفاء الراشدين وقائع ونوادر وما يحكى نحو ذلك عن الصحابي سُويبط رضي الله عنه وله قصة ظريفة مع الصديق ونعيمان هذا حيث باعه بدعوى أنه عبد ثم فك أسره وأخبــر عليه السلام بذلك فضحك منهما، (انظر الإصابة والإستيعاب في ترجمتها).

[2] – التشوف 452.

ويظهـر أن كراهيتـه الفطريـة لـذلك ولمـا يـرى عليـه قومـه غفـارا وهـم يستحلون الهجوم على ركب الحاج في الشهر الحرام جعلته يخرج و أخوه أنيس وأمهما من دارهم قاصدين أحد أخوالهم الـذي أحسن إكرامهم حتى حسدتهم غفار على ذلك واختلقوا قصة يتهمون فيها أخاه أنيسا بالخلو إلى أهل الدار عند خروج الخال ! فلما سمع أبو ذر من خاله ذلك قال له :

- أما ما مضى من معروفك فقد كدرته ، ولا جماع لـك فيمـا بعـد – أي لوقوع الشك في نفسك نحو أهلك-

- لـذلك أخـذوا قطعـتهم مـن الإبـل فـاحتملوا عليهـا – وخـالهم يبكـي لفراقهم – وانطلقوا إلى مكة المكرمـة ، فلمـا اقتربـوا منهـا قـام أخـوه أنيس بعملية مقامرة على تلك الإبل بمثلها فإذا هـو بعـد لقـاء الكـاهن محظوظ يضيف إلى إبلـه مثلها ثم يأتي بالجميع إلى أمه وأخيه أبي ذر !

وكان أخوه أنيس مثله في الفطرة والنفور من عبادة الأصنام ! لـذلك كـان أبو ذر يتوجه بالعبادة إلى الله تعالى حيث ما توجه ، متكلفا في ذلك غاية التكلف ! فلا ينام إلا بعد أن يجهد نفسه بها ثم يلقي بجسده للنوم حتى تعلـوه شمـس اليـوم التالي [1] واستمر على ذلك ثلاث سنوات ! !

ثم ذكر أنيس لأخيه أبي ذر رغبتـه في الـذهاب إلى بطـن مكـة فلمـا ذهـب إليها أبطأ على أخيه حتى إذا ما رجع سأله ملحا : ما صنعت ؟

- فقال أنيس : لقيت رجلا بمكة على دينك يزعم انه مرسل !

قال أبو ذر : فما يقول الناس ؟!

[1] – سير أعلام النبلاء ج 2 ص 50.

- قال أنيس : يقولون شاعر ! ! كاهن ؟! ساحر ! ! وكان أنيس ذا حس شعري قوي – فقال لأبي ذر : لقد سمعت قول الكهنة ، وما هو بقولهم ! ولقد وضعت قوله على أقوال الشعراء فما يلتئم على لسان أحد أنه شعر! ! والله إنه لصادق ! وإنهم لكاذبون[1].

- فقال أبو ذر لأخيه أنيس : إذن فاكفني حتى أذهب فأنظر!؟

فأتى أبو ذر مكة فنظر إلى أضعف الرجال بها ليسأله : من هذا الذي تدعونه!؟

- فلما سمع الرجل هذه الكلمة رددها على أسماع الناس مستنكرا!

- فإذا بهم يجتمعون على أبي ذر بكل مدرة وعظم حتى خر مغشيا عليه ، فلما قام من سقطته وجد نفسه مضرجا كأنه صنم أحمر اللون! حتى أتى زمزم فغسل عنه الدماء وشرب من مائها[2].

وتأتي بقية القصة على انتظاره شهرا مختفيا في المسجد حتى مر عليه علي بن أبي طالب فاستضافه إلى منزله ليلة ثم رجع في اليوم التالي إلى المسجد حتى إذا مر به علي رضي الله عنه متسائلا عن وقت عودته ؟ وما الذي أقدمه؟ فطلب منه أبو ذر كتم خبره ثم أخبره به! فأخذه علي إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم، وهما يستخفيان، حتى وصلا إليه ، فأسلم حينئذ أبو ذر الأمر إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم وقص عليه خبره ! ! فأمره عليه السلام بالكتمان ! ! غير أن أبا ذر لم يطق الكتمان ودفعته جرأته من جديد وقوة شكيمته إلى تحدي قريش بإعلان الشهادة داخل المسجد! فضرب حتى الموت لولا العباس الذي نبه

---

[1] – قارن قصته بما في صحيح مسلم أيضا.

[2] – سير أعلام النبلاء 2/ 50 – 51.

قريشا إلى أهمية قومه غفار في الطريق التجاري لأهل مكة، ثم فعل أبو ذر مثل ذلك في اليوم الموالي [1].

❖ ولا غرابة فقد كان أبو ذر رجلا صوابا بالسلاح شجاعا ينفرد وحده يقطع الطريق ويغير على الصرم من الإبل في عماية الصبح على ظهر فرسه أو على قدميه! كأنه السبع ! !

وكذلك كان فطري التوجه، فكان يستنكف عن عبادة الأصنام ويتأله في الجاهلية كما تقدم !

❖ صدق لهجة أبي ذر ومواقفه جعلته رجلا صداميا طيلة حياته : ! !

لاحظ عليه السلام من أخلاق أبي ذر وغلبة هذه الأخلاق عليه فكان عليه السلام يوجهه نحو المعالي وعظائم الأمور والتحديات الكبرى، لذلك فضل عليه السلام أن ينقذه بعد إسلامه من الاصطدام مع قريش كل يوم، فوجهه إلى قومه غفار، ليتفرغ إليهم حتى إذا سمع بمهاجر رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى المدينة أمكنه القدوم معهم حيث يامنون قريشا، وهو عليه السلام ينوه بهذه الصفات الصدامية في نحو قوله« ما أقلت الغبراء ولا أظلت الخضراء من رجل أصدق لهجة من أبي ذر » [2].

وهكذا نلاحظ هذا التركيز النبوي على استغلال خصاله المميزة في مجال الإحسان والإنفاق وصلة الرحم والتواضع وحب المساكين مع الصدع بالحق ولو كان مرا، وختم له عليه السلام هذه النصائح بأن يكثر من ذكر لا حول ولا قوة

[1] – سير أعلام النبلاء 2/ 54-55.

[2] – وهو حديث قوي بشواهده عن عبد الله بن عمرو وأخرجه كل من الترمذي 380 والحاكم 346/3 وابن ماجة 156 وغيرهم و أخرجه أحمد 159/5 وابن سعد 229/4 وسنده حسن.

إلا بالله حتى يوطن نفسه على الصبر عند الفشل في هذا الباب من البذل والعطاء والدعوة إليه والمبالغة فيه، حتى لا يهلك نفسه كمدا ! وهو يرى الصحابة يتمولون ويتاجرون وينفقون ويوفرون ! ! ولا غرو فهو عليه السلام من الحكمة والإلهام والتربية على الممكن من خصال الخير إذا فقه الرجل مقاصد هذه الشريعة العدل الوسط !

❖ **<u>التعبد لله بواسطة الإلحاح على الإنفاق وما يصيبه من حدة عند التطبيق وبعض النفور من هذا الإلحاح</u>** :

تصور ذلك هذه الحادثة يحكيها الجريري عن يزيد بن الشخير عن الأحنف بن قيس قال :

قدمت المدينة، فبينا أنا فيها في حلقة من ملأ من قريش ! إذ جاء رجل خشن الثياب، أخشن الجسد، أخشن الوجه، فقام عليهم فقال :

« بشر الكنازين برضف يحمى عليه في نار جهنم، فيوضع على حلمة ثدي أحدهم! حتى يخرج من نغض[1] كتفه ويوضع على نغض كتفه حتى يخرج من حلمة ثديه يتجلجل ! !

- قال :

- فوضع القوم رؤوسهم !

- فما رأيت أحدا منهم تجرأ وارجع إليه شيئا ! !

[1] – والنغض : العظم الدقيق الذي على طرف الكتف. وزان دَرْبٍ (اللسان: تغنـــى)

- فأدبر – أي تركهم بعد ما بلغ منهم ما بلغ في صفة من قيل عنه : قل كلمتك وامش - ومن المنذرين أقوامهم قديما وحديثا – رضي الله عنهم – فتبعته حتى جلس إلى سارية ! من سواري مسجد المدينة – فقلت :

- ما رأيت هؤلاء إلا كرهوا ما قلت لهم !؟

- فقال : إن هؤلاء لا يعقلون شيئا ! إن خليلي أبا القاسم صلى الله عليه وسلم دعاني فقال :

- يا أبا ذر !

- فأجبته !

- فقال : أترى أحدا ؟![1]

- فنظرت ما علي من الشمس[2] – وأنا أظنه يبعثني في حاجة – فقلت :

- أراه !

- فقال : ما يسرني أن لي مثله ذهبا ، أنفقه كله ، إلا ثلاثة دنانير !

- ثم (قال أبو ذر) : هؤلاء يجمعون الدنيا ، لا يعقلون شيئا ! ! !

- فقلت : ما لك وما لإخوانك من قريش! ! لا تعتريهم ولا تصيب منهم ؟!!

[1] – المقصود جبل أحد كما يظهر سياق الكلام ولحاقه.

[2] – يفهم من العبارة ان الشمس غشيت جسده كله وتعب عن الحر فأشعر بذلك رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى لايكلفه بالصعود إلى جبل أحد لحاجة ما !

- فقال: لا وربك! ما أسألهم دنيا! ولا أستفتيهم عن دين حتى ألحق بالله ورسوله» [1].

وهكذا نرى أبا ذر ينفرد في تنافس مع نبي الرحمة والعطاء، في التخلص من الكنز، وقد فتح له في هذا الباب مع الرسول عليه السلام ومع أبي بكر وطائفة ما جعلهم على استعداد تام للإنفاق في سبيل الله والتنازل عن أموالهم كما تحدثنا سيرهم، إلا أنهم انتموا إلى شعب أخرى من شعب الإيمان التي تنيف على السبعين، فهم يعملون بها ويوازنون بين هذه الأعمال وبين شعبة الإنفاق بحسب الحاجة! أما أبو ذر رحمه الله فقد التزم هذه الشعبة وآثرها على غيرها واعتبرها ميزانا يزن به بين الصحابة الآخرين، فحصل له الإشكال الكبير مع الصحابة طيلة حياته فكان لذلك أمة وحده في شعبة التعبد بالإنفاق والبذل والعطاء والمفارقة عليها والولاء لشبهة حصلت له ولأمور ذاتية نبعت من أعماقه ولأن الصحابة مشارب وكل ينفق مما عنده! !

❖ **معاناة أبي ذر في حياته زمن الخلفاء الراشدين في مواعظه المعنفة والمنذرة:**

من هذا المشرب المتفرد بقي أبو ذر يلقى الناس ويذكرهم ويهزهم ويعنفهم ويجمعهم من حوله حيثما حل وارتحل !

❖ فكان من ذلك موقفه مثلا مع كعب الأحبار وهو عند الخليفة عثمان وهو يقسم أموالا على الصحابة ثم أقبل الخليفة عثمان على كعب يسأله :

---

[1] - **أخرجه البخاري 218/3 في الزكاة: ما أدي زكاته فليس بكنز، ومسلم (992) في الزكاة: باب في الكنازين للأموال والتغليظ عليهم، كلاهما عن طريق الجريري عن يزيد بن الشخير عن الأحنف بن قيس.**

- يا أبا إسحاق ! ما تقول فيمن جمع هذا المال ! فكان يتصدق منه ويصل الرحم ؟

- قال كعب : إني لأرجو له ! !

- فغضب – أبو ذر – ورفع عليه العصا وقال : وما تدري يا ابن اليهودية ! – وكانت في أبي ذر حدة طبع ونزعة جاهلية في مسألة الأنساب نهاه عليه السلام عنها – لَيَوَدَّنَّ صاحبُ هذا المال لو كان عقارب في الدنيا تلسع السويداء من قلبه[1]، فكان الخليفة ذو الاخلاق اللينة والرهافة والرحمة يكره من أبي ذر هذه الجرأة على الصحابة الموصلة إلى الضرب بالعصا بين الأذنين وهو يعلم ما يصيبه عليه السلام وهو في قبره من أسى على أن تلحق أحد صحابته إهانة كيف كانت وهو القائل : اتقوا الله في أصحابي ![2].

❖**<u>عثمان رضي الله عنه يفتي لأبي ذر في الاعتزال بالربذة اتقاء لمصادماته مع الصحابة</u>**:

روي عن ابن عباس قال : كان أبو ذر يختلف إلى الربذة –

ومنها إلى المدينة مخافة الأعرابية والتوطن في البادية بعد الهجرة لورود النهي عن ذلك[3] فكان لما تقدم من رغبة الصحابة عن إلحاحه في التوبيخ يحب الوحدة بها ، كما أنه كان يخاف أن يعتقد الخليفة عثمان أنه ممن يأمر بالخروج عليه ! فلما دخل على عثمان وعنده كعب الأحبار (وفيه : فشج كعبا !) فلما رآى الخليفة ذلك ، استوهب كعبا ما صنع به أبو ذر فوهبه له ! ! ! !

---

[1] – إسناده صحيح وهو في طبقات ابن سعد 4 /232 والحلية 160/1.

[2] – ابن حبان في صحيحه وأحمد في فضائل الصحابة وهو حسن لغيره.

[3] – انظر مسند أحمد 409/1 و 430 و 465 والنسائي 147/8 في الزينة : باب المتوشمات.

- ثـم التفـت عثمـان إليـه وقـال : يـا أبـا ذر ! اتـق الله ! واكفـف يـدك ولسانك !.

❖ **محاولات عثمان مع أبي ذر نقله إلى الشام وعدم جدوى ذلك:**

حاول الخليفة عثمان رضي الله عنه أن يتجنب إذايات هذا الرجل الفحل الغريب الأطوار الذي لا يزال فيه من طباع الجاهلية شيء كما اخبر بذلك نبي الرحمة! فعن عبد الله ابن عباس :

- استاذن أبو بذر على عثمان ، فتغافلوا عنه ساعة! فقال ابن عباس للخليفة:

- يا أمير المومنين ! هذا أبو ذر بالباب :

- فقال عثمان : ائذن له إن شئت أن توذينا وتبرح بنا !

- قال ابن عباس : فأذنت له ، فجلس على سرير مرمول[1] فرجف به السرير وكان عظيما طوالا ! !

- فقال عثمان : أما إنك الزاعم أنك خير من أبي بكر وعمر !

- قال أبو ذر : ما قلت !

- قال : إني أنزع عليك بالبينة! — أي أسقط عنك التهمة إذن جئت ببينة —

---

[1] – منسوج بالسعف والحبال؛ وانظر بساطة أثاث الخليفة الذي تخضع له القارات الثلاث كيف يعيش في دار الخلافة في منتهى البساطة ومع ذلك يأخذ عليه الشباب المعارض المتحمس للتغيير هذا السلوك وكأنه يستكثر عليه ذلك عصر الفتنة وفوران الثوار والغوغاء من أوائل الخوارج النّابتيــن في التشــدد ولزوم ما لا يلزم.

- فقال أو ذر : والله لا أدري ما بينتك وما تاتي به ! وقد علمت ما قلت!

- قال عثمان رضي الله عنه : فكيف إذا قلت ؟!

- قال أبو ذر : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول :

« إن أحبكم إلي وأقربكم مني الذي يلحق بي على العهد الذي عاهدته عليه» [1] وكلكم قد أصاب الدنيا ! وأنا على ما عاهدته عليه! وعلى الله تمام النعمة!

- وسأله عن أشياء، فأخبره بالذي يعلمه ....

- ثم أمره أن يرتحل إلى الشام فيلحق بمعاوية !

- وكان أبو ذر يحدث بالشام، فاستهوى قلوب الرجال، فكان معاوية ينكر بعض شأن رعيته! وكان يقول ، أي أبو ذر :

- لا يبيتن عند أحدكم دينار ولا درهم ولا تبر ولا فضة ! إلا شيء ينفقه في سبيل الله! أو يعده لغريم ! !

- وأن معاوية بعث إليه بألف دينار في جنح الليل – تجربة له – فأنفقها !

- فلما صلى معاوية الصبح دعا رسوله فقال : اذهب إلى أبي ذر فقل : أنقذ جسدي من عذاب معاوية فإني أخطأت !

- فقال أبو ذر : يا بني ! قل له : يقول لك أبو ذر : والله ما أصبح عندنا منه دينار! ولكن أنظرنا ثلاثا حتى نجمع لك دنانيرك ! !

- فلما رآى معاوية أن قوله صدق فعله كتب إلى عثمان :

---

[1] – سير أعلام النبلاء آنف الذكر عن ابن عباس رضي الله عنه.

« أما بعد! فإن كان لك بالشام حاجة أو بأهله فابعث إلى أبي ذر، فإنه قد وغل صدور الناس – أي ملأها غلا – !

- فكتب إليه عثمان : أقدم عليَّ! فقدم »[1].

❖ **بعض العبر المتعلقة بممارسة الشأن العام طلبا لتطبيق أفكار ملحة في غير اصطبار :**

مما يستنتج من موقفه عليه السلام من أبي ذر عندما سأله ولاية من ولايات الشأن العام : بأن أخبره أن هذا الأمر خطير بحيث يتعرض طالبه إلى مختلف الإغراءات والمزالق من جهة وخاصة إذا كان في مزاجه اندفاع وتسرع وإلحاح وعدم مراعاة للظروف، وهي من أعظم العبر لكل فرد أو جماعة تتشوف عبر التاريخ إلى الوصول بسرعة إلى ممارسة الشأن العام دون أن يعرض عليها أو تطلب لذلك. وفيه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال لأبي ذر- وكان قد سأله أن يستعمله :

- يا أبا ذر! إنك ضعيف وإنها يوم القيامة خزي وندامة إلا من أخذها بحقها وأدى الذي عليه فيها [2] وفي رواية له أيضا أن النبي صلى الله عليه وسلم قال له: يا أبا ذر! إني أراك ضعيفا و إني أحب لك ما أحب لنفسي: لا تتأمرن على اثنين ولا تلين مال يتيم. رحم الله أبا ذر وتفانيه ورفضه التملك رفضا مطلقا وحبه الإنفاق بدون حدود وشقه، اقتداء به عليه السلام، هذه الشعبة الوعرة الصعبة المرتقى والتي احتال لها أبو العباس السبتي رحمه الله حتى استطاع الولوج إليها بالمجاهدات المستمرة والاصطبار الكبير فحقق بذلك إمكانية تكرار نموذج أبي ذر في جميع العصور وبطرق كل عصر وما يفتح الله به على رواد الخيرات والسباق إلى الميزات من أساليب مخترعة في هذا السبيل.

---

[1] – سير أعلام النبلاء 69/2 – 70.

[2] – كما عند مسلم وغيره.

النموذج الرابع: الفتوة في صورة بطل خارق متصالح مع الطبيعة: وحيشها وهوائها ونباتها ومع الإنسان ومتفاعل مع الكون كله ووارث لأسرار ولآيـات المشرق والمغرب بالخدمة فأصبح المتصرف الأول في خدمة الجميـع

الفتوة تتجلى في بطل خارق في الحدب على الحيوان والإنسان والطبيعة وذوبان في الكون وفي العطاء والإشفاء واستقطاب العامة والخاصة

﴿ "أبو يعزى إلى النور" نموذجا ﴾

❖ <u>في وسط منطقة " تاغيا " البربرية الأمازيغية في شرق الأطلس المتوسط</u> :

بين مدينة « أبي الجعد » ومدينة « خنيفرة » يرقد اليوم أحد العابدين المتفانين في الخدمة المسمى عند عامة أهل المغرب « مولاي بوعزة » وهو الاسم الذي أصبحت هذه البلدة آنفة الذكر تعرف به اليوم دون غيره علما على الجدث الذي يرقد فيه هذا الرجل العابد السائح الظاهرة الغريب الأطوار خلال حياته التي امتدت من عصر المرابطين إلى عصر الموحدين فترة طويلة، حيث عمر أكثر من مائة وعشرين أو ثلاثين عند بعض مترجميه [1].

❖ واسمه الكامل أبو يعزى يلنور بن ميمون الدكالي الهزميري من هزميرة إيرُوكَّان من بني صبيح بهسكورة والمولود بناحية « دمنات » في قلب الأطلس [2]. أقام نحو عشرين سنة بالجبال المشرفة على قريته « تامليل» الواقعة اليوم بقبيلة فطواكة البربرية بالأطلس ليتقوت بالجمار – قلوب النخل – ونباتات الأرض ، حيث عرف عند الناس « ببوكَرتيل» أو صاحب الحصير [3].

وكان في أول أمره راعيا على قدر من الطعام، فكان يصنع له صاحب النوبة رغيفين في يومه ونوبته، كان يأكل منها رغيفا، ويوثر بالثاني رجلا رآه منقطعا في أَحَدِ الأماكن.

---

[1] – التعارجي السملالي: الإعلام لمن حل بمراكش وأغمات من الأعلام : ج1/ص 406 الطبعة الثانية، المطبعة الملكية، الرباط 1993 بمراجعة عبد الوهاب بن منصور.

[2] – الإعلام 406/1.

[3] – محمد احداد : رسالة المراحل في مناقب أبي يعزى الراحل ص 54 مطبعة وانادو الدار البيضاء – المغرب.

ويقول عن نفسه في ذلك « أقمت عشرين سنة في الجبال المشرفة على "تملل" وليس لي بها إلا اسم " أبو أُكرتيل " أو صاحب الحصير» [1]

❖ **أبو يعزى رجل البرنس الأسود على جسد أسود وجبة سوداء من شعر ! تشع روحه على الغنم والمعز نهارا وعلى السباع ليلا ويأتي الناس قبيل طلوع الفجر يعلمهم باقتراب البشارة في المسجد ليوجزوا في النوافل :**

أخرج الله من جبل « ايروكان » بالأطلس بركانا متفجرا بالخير والسماد والنار والنور حتى شع من هنالك على الأطلس وما حوله، فكان على هذه الحال مع حصيره ذلك يقضي نهاره في رعي الغنم والمعز والحيوان مستانسا بمخلوقات الله الغابوية ووحيشها، بعيدا عن المشوشات البشرية، مكتفيا بالنباتات التي قد يعافها الإنسان كالدفلي [2] التي أقدم على تجربة قلوبها فاتخذها قوتا له موثرا بالرغيفين المذكورين عبدين صالحين معتكفين بمسجد القرية.

فإذا جنه الليل دخل في شعراء [2] المنطقة وغابتها وهي كثيرة السباع ؛ متعبدا تارة ومصاحبا أخرى لها ونائما دون خوف وسطها وقد استانست به حتى أصبحت تشعر بالأمان بجانبه، فإذا اقترب الصبح نزل من غابته إلى المسجد يجد به المتهجدين بإمامهم فيدخل رأسه في قلنسوة السعف وبرنوسه إلى مطلع الفجر الصادق ثم يرفع رأسه ويخبر الحاضرين بذلك ! وهم ما بين مصدق ومكذب !

---

[1] – الإعلام 1/.409.

[2] – الدفلى: شجرة متوسطة الارتفاع كثيرة الأغصان والأزهار الجميلة تعيش بجانب التُّرع ووسط الأنهار.

[2] – الشعراء : الغابة الكثيرة الشجر على وزن حمراء.

حتى اعتقد بعضهم أن هذا الرجل الغريب ربما كان يرقب الفجر من " كوة " أمامه! ثم تبين له أنه لا كوة هناك ! !؟

* أبو يعزى يكتفي باكل ما ياكله وحيش الغابة وأقل من ذلك مشاركةً شعورية له...

قال عنه أحد النقلة : « سمعت أبا محمد بن علي يقول سمعت أبا عبد الله الباجي يقول : رأيت الشيخ أبا يعزى يجمع له الخبازى فيطبخ ويجفف، فإذا أراد أن يأكل منه جعله في القدر، فيأكل منه لقمة أو لقمتين ... وهو يزأر – أي كزئير الأسد- كالقاهر لنفسه ويقول لها : ليس لك عندي إلا هذا »!! [1]

❖ وينقل عنه أبو عبد الله الباجي المذكور صفة شخصيته ولباسه فيقول : « وكان لباسه برنوسا أسود إلى أسفل ركبتيه – مرقعا – وكان طويلا أسود اللون، إذا جنه الليل دخل في شعراء –غابة ذات أشجار كثيرة – كثيرة السباع، فيصعد أعلى الجبل»! [2]

❖ فإذا كان آخر الليل : « يأتي إلى مسجده، والناس يصلون في مسجده النافلة بإمام» [3]

❖ « فإذا طلع الفجر أعلمهم بطلوعه – وهو معهم في المسجد – فيخرجون فيتأملون الفجر! فإذا هو قد طلع .... حتى ظن بعض الناس الحاضرين أنه يرى طلوعه من " كوة " أمامه في المسجد! فنظر الجدار وليس به كوة ! فسئل عن ذلك! ! !

---

[1] – الإعلام 408/1.

[2] – السملالي: الإعلام 409/1. تقدم معنى شعراء كحمراء للغابة الملتفة الأشجار.

[3] – السملالي : الإعلام 409/1.

فقال له : هذه عادته منذ زمان يخبر بطلوع الفجر وقت طلوعه » [1]

❖ ولا غرابة في هذه الشفافية[2] البصرية والروحية من رجل استأنس بالخلاء والغابات والطبيعة وحيواناتها ليله ونهاره، فعرف أنفاسها وانطبعت كائناتها المتحركة في روحه ومرآة شعوره، أن يفعل هذا الذي يبدو للناس وهم يعيشون في صراع مع الجوع والشحة و البرد والثلوج في معركة دائمة لا يكنهم منها إلا المزيد من الحذر والاحتياط ولبس الأصواف والأشعار والتدفئة بالحطب والوقود ليلا ونهارا، شأن أهل جبال الأطلس ! ! مع ما يلبسونه في أرجلهم من جلود وأصواف وقاية من الوعث والبرد والثلج، !! أما بطلنا هذا فيحفى ويعرى ويكتفي بأقل الدفء والأكل، مدربا نفسه هكذا على الذوبان في الطبيعة ومقلدا كائناتها الحيوانية ومتجاوبا معها في كل شيء !!

❖ **<u>أبو يعزى بن ميمون يلتقط الحد الأدنى من الكتاب ! ومع ذلك يعترض على من أخطأ في القراءة</u> :**

لم يكتب لأبي يعزى في هذه الفترة الشبابية من عمره أن يلقف من كتاب الله إلا الفاتحة التي يكون تلقفها من فم الإمام ومعها سورة الإخلاص! ولكنه كان يعترض على من أخطأ في شيء من القراءة منتبها إلى انسجام أو عدم انسجام القول مع البيان العالي الذي أشربه فتحا وفطرة بعد أن حوى صدره أم القرآن وثلثه حفظا، كما حوى صدره شبكة من العوالم القرآنية وهي تمر عليه مصورة تارة في الآفاق والطبيعة والسماوات والكواكب التي لا يفارقها جسده وروحه! وأخرى فيما يتلى من الكتاب ليلا في التهجد الأخير الذي يحضره قبيل الفجر

[1] - الإعلام 409/1.

[2] – الشفافية بتشديد الفاء الأولى والياء من فعل شف الشيء يشف إذاً أظهر ما تحته.

عرضا للقرآن الكريم ! وله في ذلك أشباه وأمثال – فمنهم من حفظ القرآن سماعا من مجرد سماعه قراءة الحزب كل يوم وليلة ! طيلة الشهر حتى يأتي على سور القرآن وأجزائه وأحزابه جميعا تدخل إلى شبكة الفطرة فيه فتختلط مباشرة مع استعداداته الإيمانية ومرآته الصافية فيعي من ذلك ما يعي دون لوح ولا قلم ولا صمغ ومداد مكتفيا بلوح بصيرته وقلم القدرة الربانية ومداد اليقين والإلهام.

الفتى ابن ميمون النباتي الإحيائي الزاهد في خدمة رجال إحياء السنة وحماية تماسك الجماعة من المخاطر الداخلية والخارجية بسهول آزمور وآسفي خلال عشرين عاما أخرى

انتقل بعد هذه العشرين عاما من طفولته ومراهقة الشاب الزاهد المصاحب للحيوان الأنيس والوحيش خلال جبال قرية " تامليل " وغاباتها ومسجدها إلى السواحل المواجهة للمنطقة بسواحل آزمور وآسفي وما بينهما في مرحلة لا يزال الموحدون الأوائل يمهدون فيها لأنفسهم ضدا على برغواطة ودكالة المرابطية والتي بقيت على العهد المرابطي القديم إلى حين ظهور الموحدين ظهورا كاملا بالدخول على عاصمة مراكش المرابطية.

وكأن الفتى الزاهد المستعد دوما للعطاء والخدمة الباحث عن رجال الله الكمل استبد به الشوق إلى ما يسمعه عن عمران منطقة دكالة وعبدة واغمات ومراكش برجالات قصروا أنفسهم على الرباط والارتباط وحماية الجماعة من هزات النكسات الناشئة عن مرحلة انتقال صعبة بين دولة كبرى آفلة ودولة أقوى آتية ، بكل ما في هذا الانتقال من أوجاع وفتنة وتردد وهزائم نفسية ومادية ، ولا يخفف منها إلا رجال السنة والجماعة هؤلاء الزهاد الخادمون للناس المرابطون في البوادي المحمسون لهم ضدا على أنفسهم وعلى العدو الخارجي البرغواطي بالأساس !

❖ **الفتى ابن ميمون " صاحب الحصير " يقتحم عرين الأسود من أهل الله وينتقل من واحد إلى آخر إلى أن يحط رحله بأبي شعيب شيخ آزمور ورجل المرحلة الصعبة :**

اقتحم ابن ميمون " **صاحب الحصير** " آنفا عرين أسود الجماعة والسنة رجالات دكالة وآزمور وآسفي وأغمات، ليكرع من معين سلوكهم وليقدم إليهم من نفسه نموذج الفتى المتفاني في الخدمة والعبد المطيع لسيده وساعده على ذلك ما نشأ عليه عشرين عاما من حب لخدمة الإنسان والحيوان الانيس والوحيش حتى ألفه الخلق واستأنس به الوحش ! ويحكي عن نفسه في هذه المرحلة الجديدة والنقلة الحاسمة من حياته التي ألف فيها الاكتفاء بالنباتات :

« خدمت نحوا من أربعين وليا »[1].

❖ **ابن ميمون المقتات بنبات " ونلكوط [2]" بسهول دكالة الكبرى يصحب أربعين عابدا ويكرع من أربعين عينا من بينها أربعة عيون كبرى متفجرة دوما في عشرين عاما أخرى حتى بلغ سن الاكتمال والاكتهال .**

أقبل ابن قرية " **تامليل** " الجبلية على سهول دكالة وعبدة وأغمات وعلى مراكزها الكبرى « **تيط نفطر**» أو عين الفطرة عند مدينة « ميزركان» (الجديدة = المهدونـــة =البريجـــة) وعلـــى العاصـــمة المرابطيـــة الأولى « أغمـــات » وعلـى « آسـفي » ليستقر عنـد وادي أم الربيـع النـابع مـن العيـون السبعة مـن

---

[1] – **محمد المجاطي : رسالة المراحل آنفة الذكر ص 89.**

[2] – **تقدم شرحه آنفا. لقب المترجم بابي ونلكوط في هذه المناطق من دكالة وهـو عند العامة النبات المعروف بطول شكله لأنه لاينبت إلا في الدِّمن والأزبال ولا تأكله حتى الدواب وكان يأكل قبل ذلك وبعده من النباتات المرة الدفلى والبلوط الموجودين بكثرة في الغابات المغربية.**

الأطلس الكبير وبالضبط عند مصبه بمدينة «آزمور» مدينة ورباط شيخه الأخير أبي شعيب السارية ! الدكالي.

❖ ❖ ❖ ❖ ❖ ❖

وهكذا من تادلا على الوادي المذكور إلى أراضي دكالة ومراكش وأغمات بدأ يقوم بالرحلة أثر الرحلة إلى أمثال الشيوخ الأربعة الكبار منابع الصلاح والكرامة واستقطاب الشعب عند الملمات.

❖ <u>فكان من بينهم شيخ شيوخ المغرب في الإسناد الصوفي المرفوع إلى أبي ذر الغفاري آنف الذكر رضي الله عنه ورجل التراث الصوفي الأول الذي حمله إلى المغرب من المشرق عبد الجليل بن وحلان الدكالي الذي آثر عاصمة</u> المرابطين الأولى مدينة أغمات القدمى بالإقامة في الأشواط الأخيرة من حياته، بعد أن رحل وساح وشد الزمام إلى المشرق: مصر والحجاز وأخذ علوم القوم عن شيخه بمصر أبي الفضل الجوهري فارتفع إسناده بواسطته إلى أبي ذر الغفاري الزاهد الأكبر والمتفاني في الإنفاق والخدمة والدعوة إلى التخلي الكامل عن الممتلكات ورجل المواعظ والمواقف والتحمل والصمود والتصدي، فلما رجع إلى المغرب بهذه السلسلة الربانية الجديدة عليه حمل إليه أيضا كتب القوم وآدابهم وأنفاسهم وحكمتهم وإشاراتهم المتجلية في كل من :

- المحاسبي في " الرعاية لحقوق الله " المتوفى سنة 243.
- وأبي القاسم القشيري في " الرسالة القشيرية " والمتوفى سنة 465.
- وأبي طالب مكي في " قوت القلوب " والمتوفى سنة 386.
- و أبى حامد الغزالي " إحياء علوم الدين " و المتوفى سنة 505 .

وبعد رجوعه من هذه الرحلة الشبيهة بالإسراء ليلا في الكتمان وعدم الظهور دخل بيته ودون أن يشعر به! !

❖ <u>عبد الجليل العالم المدرس العارف بأسرار المعارف يتصدى لتدريس العموم ويخص أصحابه بأسرار الفهوم ويقتصر في أكله على طعام الزهاد من النبات</u> :

اعتاد أهل " أغمات " المرابطية أن يقبلوا على هذا الرجل "الظاهرة " في مدينتهم اقبال المتعجب المستطلع الفاحص، شأن من تشبع برؤية الزهاد والصالحين الذين آثروا أغمات رباطا حمى لهم بعيدا عن العاصمة مراكش واحتماء بهذا المنفى الاختياري البعيد عن الأضواء والشهرة والسياسة.

وهكذا كـان الشيـخ الراحلـة الزاهـد يكتفـي بأقـل الطعـام واللبـاس ويـوثر غيره بكل شيء حتى إن بعض من أراد اختباره أهدى إليه جبة نفسية من ثـوب " الملف"[1] الشهير فوضعه الشيخ على نافذة مطلة على باب الـدار فلما مر رجل مسيحي بـه رماهـا إليـه فأخـذها وانصـرف، والرجـل صـاحب الهديـة يتعجـب ! مستنكرا هـذا الفعـل الشـنيع هـو ومـن عـرف القصـة ! ولم يمر أسبوع حتـى جـاء الرجل المهدى إليه فأسلم وأسكت القوم وأخرس لسانهم![2]

لـذلك اقتصـر في أيـام خروجـه إلى المسـجد وفي داره علـى تـدريس علـوم الشريعة للكافة و خاصة الفقه والعبادات، وخـص أصـحابه بالحـديث عـن أسـرار العلوم والحقائق.

ومع ذلك كان يزدحم الناس علـى الإقبـال عليه بعـد الخـروج مـن صـلاة الجمعة حتى عندما أنكر عند القاضـي الأغمـاتي عليـه بعـض السعاة ذلـك ولكـن القاضـي رد عليـه قـائلا : مـا ذا تريـد أن أفعـل ؟ مـر أنـت علـى النـاس وانتظـر أن يصنعوا لك هذا التعظيم! فقال ابن زرقون، الفقيه صاحب الشكوى : إذا فعلـت ذلك لم يبال بي أحـد منهم ! حينئذ قـال القاضـي : يـا ابـن زرقـون : إنـه رجـل وضع الله له القبول في قلـب الخلـق! ألم تسمع قـول الله عـز وجـل ﴿إن الـذين آمنوا وعملوا الصالحات سيجعل لهم الرحمان ودا[3]﴾[4].

---

[1] – ثوب ثخين من صوف ممتاز مدكوك ومخلوط بشعر يلبس شتاء وربيعـاً فوق الثياب مع لمعان في منظره وألوان مغلقة ينتج في البلدان المائلة للبرودة وخاصة في إنجلترا وما بعدها من الدول الشمالية الأوروبية.

[2] – رسالة المراحل 93.

[3] – سورة مريم: 96.

[4] – المرجع آنف الذكر ص 93 وأصله عند التادلي في التشوف

وهكذا التقت نزعة الزهد الكامل عند الرجلين ابن ميمون وعبد الجليل في الاستغناء الكامل عن الخلق وعطاياهم والاكتفاء بالحد الأدنى من المتاع، وقد أخبر أستاذه هذا أصحابه يوما بانه أقام ثلاثين سنة ما اجتمع عنده مد مع مد من الطعام أو قال صحفة مع صحفة! [1].

❖ أما العين الثرثارة المتفجرة الثانية التي كرع من معينها " ابن ميمون صاحبنا " فهي " عين الفطر " أو « تيط نفطر» بالأمازيغية عند البحر المحيط قرب مدينة « البريجة » أو « مِّي يْزُرْكَانْ» = مزغان : أي ذات الأرحية [2] عند الشيخ أبي عبد الله أمغار محمد بن إسحاق الصنهاجي رئيس الطائفة الصنهاجية الأمغارية من أهل القرن السادس وكان معاصرا ومعظما عند الأمير المرابطي علي بن يوسف بن تاشفين وعاصر الشيخ آنف الذكر أبا العباس السبتي، وكان جده إسماعيل هو المؤسس لرباط « تيط نفطر» آنف الذكر قبل مجيء المرابطين، قصد الدفاع وضدا على برغواطة المنحرفة عن السنة والجماعة! وقد امتد نفوذ وشهرة هذا الرباط من الأسكندرية إلى سوس الأقصى حتى نظر إليه علي بن يوسف نظرة تقدير رغم موقف المرابطين كافة من النزعة الصوفية! !

وقد اشتهر عن " الأمغاريين الأنصار أنهم كانوا يقتاتون من طعام الكون " ! وهو إحساس عميق بالطبيعة وتجاوب وتجاذب ومحاورة أشبهت ما حصل لمترجمنا ابن ميمون من قبل وهو في الغاب مقتصرا على النبات !وسابقا

---

1 - رسالة المراحل : 93.

2 - كانت صناعة الأرحية من الحجارة الضخمة بهذه المنطقة قديمة العهد فقيل لها : مي يزركان بالأمازيغية فيما يذكر من اشتقاقاتها فيها أفادني الأستاذ المرحوم علي خليل عضو المجلس العلمي بالحوز وهو احتمال غير بعيد وتسمى أيضا بالمهدومة من الهدم والخراب.

عصره في احترام وتقدير الكائنات المسخرة لـه دون اقتحـام او هجـوم أو استغلال مفرط حتى لا يظهر فيها الفساد أو الإفساد المتعمد شأن الواقع المؤلم اليوم ! !

❖ ❖ ❖ ❖ ❖ ❖

❖ أما العين الثالثة المتفجرة فقد أطل عليها ونهل منها ابن ميمون الملقب بـ " بووانلكــوط " في هذه الفترة لملازمته أكل هذا النبات المر المذاق والذي ينبت على الدمن في وقت مبكر، أطل هذا الرجل الفتى الغريب الأطوار البربري اللسان على أبي النور عبد الله بن وكريس المشنزائي الدكالي برباطه الذي يتوسط دكالة البيضاء رابطا بينها وبين مراكش وأغمات عموديا وبين أزمور وتادلا والأطلس الذي خرج منه ابن ميمون.

وهكذا اختار هذا الشيخ عبد الله بن وكريس هذا الطريق السالك الزاهد ذا الكرامة والنور البربري اللسان، ليدفع الشرور والموبقات عن هذه السهول الفياضة بالخيرات عند الإمطار والمشهورة إلى اليوم بجودة بقولها وزرعها ونباتاتها الحلوة كاللفت السكري المسمى ب، " الشمندر " ليقتصر على الحلال منها إلى درجة أنه أحس ذات ليلة من طعام رفعته إليه زوجه أن فيه حقا لأيتام تركهم أخوه في ذمته فأمسك ليلته طاويا[1].

أما إحساسه بالضيم والظلم فيتجلى في محاولات الدفاع ضد شرور الحكام المحليين تارة واتهامات الأمراء أحيانا: في مثل ما نقل عنه من تهديد أحد عمال علي بن يوسف لشيخ قبيلته مشتراية بالقتل والصلب! وأنه قد خرج إليه من مراكش فدعا عليه الشيخ بان يرده الله عنه حتى إذا بقي بين هذا العامل وبين

[1] - رسالة المراحل 992 نقله عن التشوف.

قرية « إيلا أسكاون » هاته أو « ذو القرون» بالأمازيغية، نحو نصف ميل إذا بوجع يتسلط عليه فكان سببا في وفاته سريعا ![1]

❖ أما النبع الرابع من منابع دكالة الذي كرع منه صاحبنا ابن ميمون والذي سيلقب فيما بعد « بأبي يعزى إلى النور» وكأنما هذا اللقب إنما هو قبسة من انوار شيخه عبد الله بن وكريس الملقب "بأبي النور"–هذا النبع الرابع هو شيخه أبو موسى عيسى أَيْغَوَرْأَ و أَيْغَنُّور – قرب أزمور – ومعنى هذا اللقب بالبربرية الطائر الجارح أو «أَكَايْوَارْ للغُراب»[2] ثالث الرفاق الآنف ذكرهم، واللذين جاء بعض متصوفة المشرق من اليمن إلى زيارتهم إثر رؤيا عظيمة مبشرة بمقاماتهم العليا في الدار الآخرة فيما نقله ابن الزيات عن عبد الرحمان بن يوسف ابن عمر قال :

« رأيت طائفة من متصوفة المشرق وصلوا إلى بلد آزمور لزيارة أبي عبد الله أمغار وأبي شعيب وأبي عيسى فوجدهم قد ماتوا فزاروا قبورهم، فقيل لهم : من أين وصلتم ؟ ! فقالوا وصلنا من بلاد اليمن، فقيل لهم : ما الذي أوصلكم؟ فقالوا لنا : نام بعضنا فرآى في منامه الجنة ورآى فيها قصورا عظيمة ! فقال : لمن هذه ؟ فقيل له : لقوم من صنهاجة أزمور » ثم ذكر أسماء الثلاثة[3].

❖ أبو وانلكوطْ ابن ميمون يستقر عند شيخه الأكبر أبي شعيب أيوب بن سعيد الصنهاجي الملقب بالسارية الدكالي بأزمور ويلازمه إلى أن أذن له بالرجوع إلى بلدته الأولى كامل العدة والإرادة :

---

[1] – المرجع آنف الذكر 92.

[2] – الهامش 3 من المرجع آنف الذكر ص 89

[3] – رسالة المراحل هامش 3 ص 89 والقصة منقولة من التشوف للتادلي.

وقد انتقل أبو شعيب السارية من بلدة شيخه " أبي النور " آنف الذكر وكان يقرئ لأهل قرية « إِيلَسْكَاون» آنفة الذكر الصبيان واقفا متوكئا على عصاه حتى ينصرف الصبيان لئلا يبقى عليه من حقوقهم شيء ! ! !

وكما كرع ابن ميمون من المنابع الثلاثة آنفة الذكر فقد كرع من شيخه الأخير أبي شعيب هذا وتفوق في أحواله كلها، حيث كانت خطواته إلى هؤلاء الشيوخ متعددة وسريعة وكأن المسافات بينه وبينهم كانت تطوى طيا والمراحل العديدة تطوى في مرحلة واحدة: فإذا هو بأغمات عند الشيخ "وِيْخْلاَن" ولا يلبث أن يمر على شيخه "أبي النور" بقرية« يلَسْكَاون» ثم يعزم على زيارة شيخه "أبي عبد الله أمغار" فإذا هو " بتيط نُفْطْ "[1]!!!

❖ وقد أخذ مترجمنا ابن ميمون من صفات شيخه أبي شعيب السارية أيضا التورع من الوقوع في الشبهات شرابا وطعاما وغيرهما من مثل ما رآه عنده لما زاره فقيه المصامدة وصالحها بمراكش عبد الخالق بن ياسين فأهدى إليه حمل حمار من الزبيب من سواقي مراكش المشتركة المياه، فلما سأله الشيخ وعلم أن الأمر مشترك فيه رد عليه زبيبه، فتعلم منه فقيه مصمودة الاحتياط التام في تتبع الحلال الخالص من الشبهة!![2].

❖ أما قيامه بين يدي الله تعالى فأشبه قيامة الموتى من قبورهم والنباتات الصامدة الواقفة المسبحة لله ليلا ونهارا، حتى لقب لذلك بعمود " السارية " في السكون والاستقرار والقنوت والصمود منذ أن اعتاد ذلك وهو يقوم بتدريس الصبية عند شيخه آنف الذكر لا يكاد يشبهه في ذلك إلا هذا التلميذ الراعي

---

[1] - رسالة المراحل ص 90 – 91.

[2] - رسالة المراحل 91.

للحيوان في غاب الأطلس ممسكا بعصاه كالئا لها ليلا ونهارا حتى استأنس به الوحيش واقترب منه وكأنه مجرد كائن من كائنات الطبيعة المسالمة كالشجرة والعود والقصب والعمود!!!

❖ وقد أشبهه صاحبنا ابن ميمون أيضا في تانيس الوحيش وصحبة الضواري، فقد ورد إليه مرة أخرى "بأزمور" تلميذه وصفيه فقيه مصمودة وصالحها عبد الخالق بن ياسين آنف الذكر قال : « أتيت أبا شعيب فوجدته بقرية خارج أزمور فبينما نحن جلوس إذا بالأسد أسمع زئيره ! فقلت :

- هذا الأسد ما أتى إلا لدوابنا ! !؟

- فقال أبو شعيب : رضي الله عنه وأرضاه : اللهم يا من رد البحر عنا رد عنا هذا الأسد حيث أتى ! !

- فانقطع صوت الأسد في الحين !»[1]

❖ <u>أبو شعيب يفك الأسير والعاني ويدعو لذلك فتستجاب دعوته</u> :

وسمع أهل الأندلس أيضا بكرامة من الشيخ أبي شعيب فزاره ابن صاحب الصلاة (بعد 594 هـ)المشهور قصد التماس الدعاء منه لفك جملة من أفراد أسرته من قبل الأمير المرابطي آنذاك بمراكش فلما دعا أبو شعيب له بذلك بعد أن سمع ابن صاحب الصلاة وهو ينتظر من أبي شعيب التفرغ له فإذا بأصوات كأصوات وقع المطر فلما التفت الزائر رآى دموع أبي شعيب تنهمر كالمطر على حصير المسجد ! ! ولم يمر العام حتى فك الله أسراه جميعا.

---

1 - المرجع آنف الذكر.

● **أبو شعيب يزعج إلى مدينة مراكش من قبل عبد المومن الموحدي قصد مفاتشته ومعرفة ما عنده فيظهر أمام الجميع حقيقة التوحيد ويسأله الملك حاجته فيتشفع في أسيرات المرابطين المنكوبات بعد عز :**

استقدم أبو شعيب إلى عاصمة الموحدين بعد فتحها من قبل عبد المومن الكومي سنة 541هـ فوجده الأمير شاحب اللون حتى أشفق عليه من هذا الإزعاج! وكان أراد مناظرته ولكنه وقعت في نفسه مهابة منه ! فصرف مناظرته إلى احد حذاق أصحاب المهدي الذي سأله عن أمور من العقيدة على المذهب الجديد ؛ فكان أبو شعيب يقتصر في الإجابة على ذكر الآيات الدالة على المطلوب، وتمادى الطالب المجادل وسار حتى أزعج الشيخ فدعا عليه بألا يموت على هذا التوحيد القرآني الذي يجادل فيه ويعترض وكرر عليه المجادل الاعتراض فكرر عليه الشيخ الدعاء !

وإذا بهدة عظيمة في قصر عبد المومن فعرف عبد المومن التهديد فنزل وضم الشيخ وعظمه وأمر بقضاء مآربه فقال له الشيخ :

- لا حاجة لي إلا أن تشفعني في نساء علي بن يوسف ونساء أولاده وتسرحهن حيث شئن فامتثل عبد المومن ولقي بعد ذلك " محمد بن يحيى وسنار " مجادله من دعوة الشيخ ما لقي في صورة غريبة!![1]

❖ بوانلكوط ابن ميمون : يتحول إلى أمة خادمة لزوجة الشيخ ليلا وقائمة بالعبادة نهارا حبا في شيخه وتعلقا به وإذا خَدَمَ العبد خُدِمَ :

ينقل أبو عمران بن وركون الهسكوري عن أبي مالك بن تماجورت برباط شاكر قصة خدمة أبي يعزى ميمون " بوانلكوط " لشيخه أبي شعيب

[1] - رسالة المراحل 89 – 90.

بخصوص أهل بيت الشيخ عندما تزوج الشيخ أبو شعيب فطلبت منه زوجه أن يخدمها بخادم ، فلما رآى ابن ميمون حيرة شيخه في الأمر تقدم إليه باقتراح غريب وهو أن يتزيا بزي المملوكة ليلا حتى لا تكتشف الزوجة أمره وحتى يتفرغ للعبادة وخدمة للشيخ وزواره نهارا وبقي معها على هذا الحال عاما كاملا حتى شكت في الأمر وأثارت الموضوع مع الشيخ فاضطر إلى إخبارها بالحقيقة قائلا : ما خدمك إلا أبو وانلكوط ! فأقسمت بالإيمان ألا يخدمها بعد هذا أحد وأشفقت على الرجل من ازدواجية المهمات التي قام بها وفضلت ان تخدم نفسها بنفسها[1].

❖ أبو يعزى يمضي عند شيخه عشرين عاما فيأذن له شيخه بالذهاب إلى بلاد تامسنا القريبة من أزمور ممتدة إلى الرباط ، فلما قدم على أهلها ذوي الأصول البربرية البرغواطية فرحوا به فأكرموه وراوا من خدمته ومجاهدته وأحواله ما سرهم! ولكن الشيخ أصابه الحنين إلى مسقط رأسه عند مشارف سهول تادلا وأم الربيع التي كانت تجري بجانبه وهو بأزمور فإذا به يفقد هذا المنظر الحي الذي كان يرى فيه مياه الأطلس تجري أمامه تارة فإذا تعمق رأى البحر المحيط الذي يذكره ببحر الحقائق المحيط بالنفوس ثم يلتفت إلى الهضبات التي عند أزمور فيرى فيها وجه شبه بهضاب بلدته الجبلية " تَامْليلْ ".

❖ **أبو يعزى ابن ميمون " يَللْبَخْت "[1] يضرب بجرانه في قرية " تِيمْلِّيل " الأطلسية بعد أن اكتهل وجاوز الخمسين فتنفجر منه اثنتا عشرة عينا تسقي الأناسي والواردين والبعداء والأقربين والعامة والخاصة في شهرة واسعة لمناقبه ومشاربه طيلة ثمانين سنة تقريبا :**

---

[1] – رسالة المراحل : 88 عن التادلي في التشوف.

[1]– رسالة كلمة أمازيغية عربية مركبة من "إلى" بمعنى صاحب والبخت بمعنى الحظ وهو لقب أمازيغي حَالَ على محظوظية أبي يعزا عند الله والناس.

ترك أبو يعزى حرارة الشوق في نفوس أهل الشاوية و " تامسنا " بمغادرته لهم فما كان منهم إلا ان قصدوه حيا وبعد وفاته في كل عام إلى اليوم.

وها هو يستقر بمسقط رأسه في ناحية " إروكَان " و " تاغيات" أو " تاغية " حاملا معه زادا عظيما من الخدمات والعبادة ولقيا الشيوخ الذين كانوا نحو الأربعين والذين ساحوا واستقروا في هذه المنطقة الثغر المعرض للهجومات الأيبرية خارجيا والبرغواطية وتوالي الدول داخليا !

❖ ابن ميمون يستأنف الخدمات المقدمة إلى الخليقة في استقلال عن شيوخه بعد الإذن الكامل له في هذا الاستقلال والاجتهاد بناحية " إرُكَان " وفي مناطق " الغرب " قريبا من شمال المغرب : وخاصة مكناسة وفاس ووزان وتازة إلى سبتة وما حولها :

وفي هذه الفترة التي بدأ فيها نجم أبي يعزى المنور بالظهور على تلك الجبال والسهول ووصول صداه إلى العواصم كفاس وسبتة ومراكش ؛ كتب لأحد نجباء الأندلس من اللذين اصطفاهم الله للمكارم وصنعهم على عينيه رغم الظروف غير المساعدة وهو أبو مدين شعيب بن الحسن الأندلسي الأصول التلمساني الإقامة والذي كان مقيما بفاس ثم سكن بجاية في الجزائر حتى كثر أتباعه فخافه السلطان يعقوب الموحدي ! وكان قبل ذلك قد تقلب في عدة أحوال وتعرض لتجارب مريرة مع أسرته أولا ثم مع أهل الأندلس بسبتة ثانيا ثم في فاس ثالثا ولقي بعد ذلك من شيوخ فاس عليا بن حرزهم ولازمه حتى اطمأن خاطره واستقرت حياته الباحثة عن المكارم والأكارم، وهناك سمع بخبر كرامات الشيخ " أبي يعزى يلنور " فقصده بجبل " إيروكان " مع أهل فاس وغيرهم من الزوار !

❖ اختيار أبي مدين من قبل أبي يعزى أو عين العلم والصلاح المتفجرة نحو المشرق من المغرب :

ولما قدم أبو مدين إليه أعرض عنه أبو يعزى وأقبل على القوم دونه وزاد فمنعه من الأكل لما حضر الطعام فأقام على تلك الحال ثلاثا حتى أجهده الجوع وشعر بالمذلة ! فلما قام أبو يعزى عن القوم ارتمى أبو مدين على موضع جلوسه ومرغ وجهه فيه فإذا به لا يكاد يبصر شيئا حتى أصيب بما يشبه العمى ، وعلى ذلك بات طوال الليل !!

قال : فلما أصبح الصباح خرج أبو يعزى واستدعى أبا مدين ومسح على عينيه بيده فأبصر حينئذ قائلا له : أقرب يا أندلسي ! ثم مسح على صدره وقال للحضور بالأمازيغية ما معناه :

« هذا يكون له شأن عظيم » ! ثم أذن له بالانصراف وأخبره بما سيلقاه في طريقه من المخاطر، وأولها تعرض أسد الغابة له وكيف يصنع وثانيا تعرض ثلاثة لصوص له وأنه مأمور بوعظهم ! فكان ما ذكره الشيخ في قصة طريفة نقلها صاحب المعزى أحمد بن القاسم التادلي [1] .

ثم زاره بعد ذلك مرارا ونال من كراماته ففتح الله عليه في باب التعليم والتزكية حتى كثر أتباعه وتجاوزوا الألف كما قيل [2] .

❖ العين المتفجرة الثانية : تحول النباتات المرة في فمه إلى حلاوة!

---

[1] – مخطوطة خاصة ص 55 – 56.

[2] – مخطوطة خاصة ص 56.

وله في هذا الباب سوابق منذ ان كان قد ألزم نفسه بالاكتفاء بما تنتجه الأرض والغابة من نبات ولو كان مرا و فيه شيء من السمية وذلك كنبات الدفلى ونبات شجرة الجمار وغيرهما.

وقد شاهد الجمع الغفير من الناس منه ذلك وأذاق بعض أصحابه منها فتحولت إلى نبات حلو المذاق! وقيل أن بعضهم أخذ منها شيئا فجعله في عصيدة شعير فوجد العصيدة عذبة لا مرارة بها! وحدث عنه ألزم تلامذته له أبو الصبر أيوب من كبار أصحابه قال : إني عجبت من أكله الدفلى من غير أن أتكلم بذلك ! فألقي ذلك في نفسه فأخذ مما في فمه منها فوضعه في فمي ! فوجدته حلوا [1].

❖ <u>العين المتفجرة الثالثة : عين الاجتهاد والكسب والصنعة والأخذ بالأسباب</u> :

ينقل عنه أبو العباس العزفي (557 – 633) الذي جمع ما ثبت بالتواتر من أخباره في الكتاب المشار إليه أعلاه أنه كان يحب اليد العاملة الصانعة ويكره البطالة والفراغ في قصة بينه وبين أحد بلدييه ابي عبد الله بن الغربي الملقب " بالحاج " وقد حكى أنه قدم على الشيخ زائرا وكان يحمل في سفره إلى الحج وللسياحة باستمرار « سُفَيْطًا [2]» يضع فيه الإبرة والحلق والمقلط وغيرها – مما يساعده على تقديم خدمات في الطريق اكتسابا للحلال واستغناء عن السؤال ! فلما انتهى إلى مسجد أبي يعزى أخفى هذه الأدوات في كوة، فلما

---

[1] – أبو العباس العزفي : دعامة اليقين في زعامة المتقين، تحقيق أحمد التوفيق ص 40 ط مكتبة خدمة الكتاب الرباط 1989.

[2] – السفيط تصغير السفط وهو وعاء صغير كالقفة جمع أسفاط .

صلى أبو يعزى عمد إلى الطاق فأخذ منه ذلك السفيط وفتحه! ! فخاف الحاج أبو عبد الله من أن يعيب عليه الشيخ أو يفضحه ! ولكن الشيخ أقبل على المريدين والسالكين عنده وقال لهم بالأمازيغية ما معناه :

«أخطأتم الطريق ووقع عليه غيركم ! هذه سبيل سالكي الآخرة ! ! وضع أعبائهم عن المخلوقين وغناهم برب العالمين ! وانتم تحملون الناس كلكم[1] وتكونون عيالا عليهم»[2]. ثم أدخل الشيخ الحاج أبا عبد الله الغربي إلى داره وقدم إليه رغائف البر بالعسل وهو يقول لزوجه بالأمازيغية " الحاجٌ أيَا " أي هذا هو الحاج حقا ! والشيخ لم يُخبره أَحد أن هذا الرجل قد سبق له الحج ! فكأنه أعجب بتواضع عبد الله وعدم تقديم نفسه إليه بلقب الحاج فأشعره بذلك وأنه مستحق له![3].

❖ العين المتفجرة الرابعة : التخفيف من معاناة المتخبطين من المس :

رحل إلى الشيخ ابي يعزى الفقيه الحسيب أبو عمرو عثمان بن عتيق من علماء فاس، وكان ممن يصحب ركب اهل فاس إلى زيارة الشيخ وخاصة في أيام البطالة والأعياد في نحو أربعمائة زائر بحسب المناسبات، وكان من مشاهدات الفقيه عند أبي يعزى منظر أمة ممسوسة جاء بها مولاها إليه، فلما حضر الشيخ وسلم عليه الرجل صاحبها وأخبره خبرها وبيده عصاه، قال أبو يعزى للأمة : "ازْرِيِّي" أي انظري إلي، ثم بسط كفه وأصابعه وامسك عصاه بالإبهام والسبابة، فصرعت الأمة فورا عند النظر إليه وناحت :

[1] - الكل بفتح الكاف الحمل الثقيل.
[2] - دعامة اليقين 46 – 47.
[3] - أبو العباس العزفي المذكور 47.

- فصاح بها : أتنوحين في بيت الله ! ولولي ! ولولي ! فولولت ! ثم دعا لها فبرئـــت بإذن الله ![1].

ومن مشاهدات المريد الشهير أبي الصبر أيوب وهو من كبار أصحابه السبتيين ما رآه عنده مرارا من هذه المعافاة للممسوسين بواسطة كفه وأمره المريض بالنظر إليها وهو يحركها، وبمجرد النظر يصرع الممسوس لحينه، فيأمر أبو يعزى القرين بالخروج فيخرج حينا ثم لا يعود وهو يقول فرحا متعجبا من هذه الكرامة التي أعطاه الله إياها تخفيفا من معاناة الخلق : : « مَانِيلاً بُوْتكْشْكُو شِين؟ مَانِيلاً بُوْتكْشْكُو شِين؟ ومعناها : أين صاحب الزبد الخارج من الفم ! أين صاحب أو مدعي الرقى والعزائم ؟ »[2] استخفافا بأهل الصناعة ومدعي إخراج الجان بالعزائم وسوء المنظر ! ! ؟

❖ ومع العين المتفجرة الخامسة : فضح حال العصاة ليتوبوا بين يديه !!

أوتي الشيخ رحمه الله من الفراسة والتعليم شفافية روحية يشعر بواسطتها بباطن الزائر وما يتخبط فيه من الامور والمخالفات، فتواترت قصص الذين تابوا على يديه بسبب هذا الانكشاف ووعودهم له بعدم العودة إلى الحالة التي كانوا عليها :

فمن ذلك ما شاهده تلميذه الصاحب أبو الصبر أيوب المذكور عندما قدم إليه رجل من أعيان الوقت المسؤولين عن الشأن العام وقد جن جنونا صعبا! وكان كثيرا ما يصرع ! فلما خف عنه مسه أخبره الشيخ بقوله : أنت كثير الزنا وقد شفاك الله من هذا فلن يعود إليك أبدا إلا إن عدت إلى فعلتك، فبقي الرجل

[1] – دعامة اليقين ص 50.

[2] – أبو العباس العزفي : 39.

مدة على هذه الحالة ولكنه لما ألم مرة اخرى بهذه الفعلة سرعان ما عاد إليه القرين المسلط عليه بأشد مما كان[1].

وفي قصة طريفة وقعت بينه وبين رجل من ضمن وفد المرأة الصالحة في سبعين تابعا من قريتها، حيث كان الشيخ يعانقهم واحدا واحدا ويقبل رؤوسهم كعادته في التواضع مع الخلق! فلما دنا منه أحدهم ليعانقه وأدنى رأسه إليه ليقبله ! إذا بالشيخ يصيح فيه : « الزّفان أيا» بالأمازيغية ومعناه هذا الرقاص هذا ! ! فقال الرجل معترفا : نعم ! ثم التفت الشيخ إلى الوفد قائلا : أو كذلك ؟ قالوا نعم ! فقال الرجل الزفان : أنا تائب إلى اله تعالى !، فأمره بنزع كسائه لأنه رآه يشتعل عليه نارا! وأمر أن يباع ويدفع ثمنه للمساكين بعد استشارة الفقيه ابي الصبر! وكان الحاج أبو عبد الله السبتي حاضرا فقدر الثمن بنحو ثمانية عشر درهما فدفع الشيخ أبو يعزى ثمن الثوب وأمر بإعطاء الثوب للمساكين فالتمس منه أبو الصبر أن يحول هذا الثمن للرجل حتى يشتري به ما يستر عورته![2].

وكان الشيخ أبو شعيب رحمه الله قد سمع بهذا السلوك وهو بأزمور بعيدا عن تلميذه أبي يعزى فأرسل إليه ينهاه عن فضح الخلق ! إلا أن أبا يعزى أخبر شيخه بأن الإذن جاءه بالقيام بهذا النوع من العلاج المر الصعب ! فهو يقضي بذلك! ولسان حاله يقول : (ﵟوَمَا فَعَلۡتُهُۥ عَنۡ أَمۡرِيﵞ) [3].

---

[1] – أبو العباس العزفي : 40.

[2] – دعامة اليقين 45 – 46.

[3] – الكهف: 82.

❖ العين المتفجرة السادسة : عين الإكرام والإطعام وتعظيم الخلق عامة وعلمائهم خاصة :

وضع الشيخ نفسه من قديم في خدمة الخلق عامة وكبار القوم خاصة من شيوخ وعلماء وفقهاء وصلحاء، حتى جعل نفسه كالعبد المملوك بين أيدي الجميع ! كما وضع داره وزوجاته في هذا المسلك، حيث كان يطعم الخلق خبز البر واللحم والسمن والعسل ويكتفي هو بما تيسر من خبز الشعير مع قليل من الإدام وهو يردد فرحا :

- يابابا ! يابابا ! ومعناه بالأمازيغية : يا مولاي وسيدي[1] تعطي هذا الغلام الأسود الخبز واللبن ؟ ! فما يزال يكرر ذلك ويتضرع ويتملق ! كما نقل عنه الحاج أبو عبدالله الغربي آنف الذكر[2].

وينقل عنه مريده المذكور الحاج عبد الله الغربي أنه قدم عليه فاشتهى العسل وهو في الطريق من سبتة إلى " تاغية إروكان " وكان شديد الولوع بالعسل! فلما استقر به المجلس أمر أبو يعزى صغرى أزواجه بأن تقرب إلى الحاج رغائف البر والعسل والشيخ يقول له :

كل ما كنت اشتهيت ! فكأنه فراسة منه ! ثم سأل المريد الشيخ أن يشاركه فلم يفعل، وجعل يقول لزوجه : الحاجأيا = أي هذا هو الحاج حقا إشعارا له بمعرفته به قبل إخباره بذلك![3]

---

[1] – هذه الكلمة الأمازيغية التي لا يزال الأطفال يرددونها اليوم عند الاستسقاء مما انكره فقهاء إحصاء البدع ووضعوا في ذلك بيتا قدحيا في ذم البربر واستنقاص معتقدهم : يقولون للرحمان بابا بزعمهم ومن قال للرحمان بابا فقد كفر، ولا مشاحة في الاصطلاح إذا عرف القصد.. !!؟ كمـا قيـل.

[2] – ص 47. من المصدر السابق.

[3] – أبو العباس العزفي 47.

❖ومثل هذا ما وقع للفقيه الفاسي أبي عمرو عثمان بن عتيق لما مل من طعام الشيخ المعتاد اليومي من شعير : خبزا أو عصائد ! ! وتمنى أحد رفاقه من فاس لو يهدي إليهم الشيخ رغائف بالعسل ! فلما أرادوا مغادرة الشيخ وعزم عليهم بالإقامة اعتذروا بانخراطهم مع إخوان لهم من الطلبة في "دولة الطلبة"[1] في دروس بفاس ويخافون أن يتاخروا فيفوتهم الشيء الكثير ! فقال أبو يعزى لهم :

« أما وقد عزمتم فنعم ! لكن بعد أن تأكلوا ما اشتهيتم أو ما ذكرتم – فكأنه تفرس ذلك – ثم قدم إليهم رغائف القمح بالسمن والعسل»[2].

❖ ورحل إليه الحسن بن الشيخ الصالح أبي علي مهدي بن صاعد مرة في جملة وافرة، فاشتهوا ؛ بحكم السفر والبعد عن الحواضر والأهل، ألوانا من الطعام وكل واحد اشتهى شهوة خاصة به ! فلما انتهوا إلى الشيخ جاءهم بأطعمة متنوعة قائلا : كلوا ما اشتهيتم ! فعجبوا من هذه المفاجأة حتى استحيوا من هذا التكليف دون أن يعترف أحد منهم بإخبار الشيخ بتلك الرغبات الكثيرة ![3].

❖ <u>ومن إكرامه الشرفاء واحتفائه بهم لما زاره الحاج ابن عاصم السبتي ذات مرة وقد اقترب عيد الأضحى فقال له الشيخ</u> :

- يا حاج ! خذ إليك هذا الكبش برسم الأضحية ! فلم يستطع مخالفة الشيخ رغم بعد الشقة من سبتة قائلا في نفسه : من لي بوصوله إلى سبتة في نحو عشرة أيام ! ؟ ففهم الشيخ عنه هذا التردد ! فلما أراد الخروج أمرَّ الشيخ يده على

---

[1] – الدولة هنا بمعنى النوبة لا بالمعنى الاصطلاحي المتعارف.

[2] – أبو القاسم العزفي 51.

[3] – دعامة المتقين : 60 – 61.

وجه الكبش وعلى كفل حمار ابن عاصم! فساروا وكلما مروا على قطيع أغنام انصرف الكبش إليها وسرعان ما يعود على القافلة يشتد خلفها كما يفعل الخروف مع أمه! حتى وصلوا إلى قرية " منتان " قرب سبتة ومسكن ابن عاصم[1].

❖ العين المتفجرة السابعة : التحبب إلى الخلق بإزالة الحواجز مع الدعاء لهم بظهر الغيب !

ومن حرص الشيخ على إزالة الغرابة والهيبة والخوف من شخصه بالتقرب إلى الخلق بما يحبب الشيخ إليهم ويشعرهم بحنانه وتواضعه أنه كان يقوم « إلى الوافدين والزائرين يقبل أرجلهم فإن تعاظم ذلك أحدهم قال له من عرف عادته : لا تعارض الشيخ ! عادته ! »

قال « وكان إذا ذكر عالما أو فاضلا قال : فِعْلَ مَازيغ = أو الفعلْ أُمازيغ = أي فْعْل الرجل الحر والسيد، [2]»[3].

❖ وكان يعلق على جدران مسجده الرسائل التي تصله من المحبين والإخوان والمشتاقين في جدار القبلة! فإذا فرغ من صلاة الصبح أو سبحة الضحى شرع يدعو لهم واحدا واحدا بظهر الغيب[4].

كما كان يفرد بعض ذوي العلم والصلاح فيوثره بمسكن خاص على سبيل المزيد من العناية والإكرام كما فعل مع الحاج ابن عاصم وولده الحاج أبي القاسم

---

[1] – دعامة اليقين 40

[2] – والأصل في الكلمة للرجل الأبيض الحر ثم أطلق على الرجل من سكان جبال فـَازَازَ و تادلا وما يليها من التخوم الصحراوية من البيضان.

[3] – دعامة اليقين ص 41 وهامش 16.

[4] – أبو العباس العزفي 41.

عبد الرحمان السبتيين المترددين عليه من بعيد القاطعين مسافة سبعة أيام فما فوق للوصول إليه ![1]

❖ أما حديثه عن العلماء فغاية في الأدب والتعظيم وكان يسأل عن كل واحد منهم باسمه في مثل ما حكاه عنه الفقيه أبو عمرو وعثمان بن عتيق إذ كان يقول له :

كيف سيدي أبو الربيع ؟ – وهو شيخ المـوَّاق من كبار فضلاء فاس وفقهائها مات 579هـ - كيف سيدي أبو خزر؟ – يخلف الأوربي من صلحاء فاس – كيف سيدي أبي عمرو؟ عثمان السلالجي الأصولي الشهير بفاس توفي 564هـ - كيف فلاف وفلان ؟

ثم يقول :

« مصابيح الدين! نور الإسلام! هداتنا- وبهم القدوة، عرفونا الطريق، ألهمونا الخير، لولا الشهرة لكان هذا الغلام – يعني نفسه – يهبط إلى فاس يخدمهم! يغسل! ويكنس، ويقمُّ .... ونحو هذا»[2].

❖ العين الثرثارة الثامنة : رجل الصلح وإصلاح ذات البين ومباركة الأسرة المقبلة على التأسيس ورجل الرَّفو والخيط الأبيض وإدخال السرور :

من أعظم بركات الشيخ في خدمة المجتمع والأسر«حسن السياسة والرفق بالقلوب، والسعي في إصلاح ذات البين، وتواد الزوجين»[3].

---

[1] – نفس المصدر 43.

[2] – راجع المصدر المذكور 50 والتشوف 280 – 198 – وجذوة الاقتباس 458 وروض القرطاس 266.

[3] – نفسه 41.

وينقل عنه من أخبار ذلك « ما تشتهيه الأنفس وتقر به العين، فقلما كانت تهدى عروس – من أهل تلك البلاد المجاورة- لبعلها حتى يوتى بها إليه برسم الدعاء لها والتبريك عليها، فيفعل ذلك! ثم يكلمها حتى يذهب النِّفار والشِّراد ويسرهما ويضحكهما حتى يقوم بينهما من الأنس والتأليف المأمول[1] والمراد، وينصرفا إلى بيت بنائهما!»[2]

❖ العين والمغتسل البارد التاسعة : إطفاء نيران الفتن بين القبائل :

برز الشيخ المنور أبو يعزى عينا باردة تسكن الفتن والثوائر، وتقضي على ما أشب الشيطان من وقود النوائر، وإلجام القبائل عن نزعات الانفصال عن الجسم الموحد للأمة وإذعانهم إلى السمع والطاعة للأئمة والأمراء! وذلك بكل باد وحاضر، وهو يرى النيران الخارجية تلتهم الشواطئ والداخلية تقسم الصفوف![3]

وذلك أنه « مما جرت به المقادير، وشهدت به العوائد مفاتنة القبائل وتحزبهم للحروب، وقتالهم للغوائل، وغضبهم للعصبية، فكان من له منهم عقل وتفكر في تحسين العاقبة يدعو أو يدعى إلى الارتفاع إلى الشيخ أبي يعزى، والانتهاء إليه، فلا ترد هذه الدعوة ولا يجرؤ أحد منهم على التخلف! وإذا أصلح بينهم على أي وجه اقتضاه توفيق الله تعالى وإرشاده إلى ما تحسن عاقبة

---

[1] – من سوء فهم بعض تصرفات الأطباء من أهل الله إنكار بعض ظاهرية هذا العصر على الشيخ أن كان يضرب بيده صدر الممسوسة أو المصابة بمرض خبيث قصد قتل الداء وهو ما يعترف به لأقل الأطباء اليوم مكانة! على سبيل الضرورة عند سائر الفقهاء! وكأنهم لم يجدوا شبهة يقذفون بها هذا العلم الشامخ إلا هذه الشبهة!!!.

[2] – دعامة اليقين 41.

[3] – نفس المصدر ص 42.

الخلق على يديه به تلقوه بالقبول ! ومن توقف جرب في نفسه وأهله وماله مقادير سوء القضاء !» والعياذ بالله![1].

❖ العين الحارة التاسعة : دفع الظلم والعدوان والأذى عن الخليقة وإشعار المخطئ بخطئه أو خطيئته صراحة :

❖ ينقل عنه في هذا الباب طرائف معجبة وغرائب مستغربة :

- فمن ذلك أن القائد المرابطي على فاس عبد الله بن خيار سجن رجلا "خضارا"[3] من أهل الصلاح اسمه " دوناس " فما كان من القائد إلا أن أصيب بوجع لم ينفع معه الطبيب! فلما بلغ ذلك الشيخ أبا يعزى أرسل إليه يقول: إن هذا الوجع لن يصرف عنك حتى تطلق ســراح "دوناس الخضار" فخلى حينئذ سبيله فخف من حينه![2]

- ومن ذلك ما أصاب رفيقه ومريده الملازم له أبا الصبر أيوب السبتي في حماره الذي اعتاد على زرع الشيخ وهو في « الفَشْقار» - أي في حالة الاقتراب من النضج – فأصيب الحمار حتى أشرف على الهلاك وهو يرمي بالزبد من فيه وأنفه، فذهب أبو الصبر مبادرا إلى الشيخ يقول : يا دَدَّا أبا يعزى – وبهذا كان يدعوه الزائرون ومعناه يا أَبتِ أو ياجدي على الأرجح! " يـمُوُّتْ أُغْيـوُّلْ إينـُو" : بمعنى مات حماري – فقال الشيخ له مطمئنا : أُرِيمُّوتْ أوريمـُّوتْ ! فقال أبو الصبر : ما هو إلا قد مات لأنه أكل متاعك ! فقال الشيخ : أُرِيمُّوت : أنا متاعك والزرع متاعك والحمار متاعك! ثم قام معه وفتح فم الحمار وتفل فيه

---

[1] – أبو العباس العزفي 41 – 42.

[3] – الخضار بالعامية المغربية بائع الخضر كالبقال لبائع البقول وهكذا؛ أبو العباس العزفي 55.

[2] – أبو العباس العزفي 55.

فخف الحمار! وهي من كرامات الشيخ وتعامله مع الخليقة حيوانا وإنسانا وغيرهما![1].

❖ ويقوم الشيخ بتأديب رجال من أهل سبتة قدموا مع الفقيه الراوية الزاهد يحيى بن محمد الأنصاري وكانوا قد وقعوا في الطريق في عرض الشيخ ! إلا واحدا أسمر اللون عاب عليهم ذلك القول : مثل : هو أمي أو عامي أو نحوه! فلما بلغوا إلى الشيخ امر بإنزالهم في بيت خاص وأمر بإشعال حطب أخضر ذي دخان كثير في فصل البرد! ولكنهم لقوا من ذلك تألما وضاقت أنفسهم به ! فلما حضر الشيخ وهم في هذه الحالة من الضيق والدخان قال لهم :

«عجبا لكم تفارقون أوطانكم وتخرجون على الله فيما تزعمون برسم زيارة شخص أحسنتم به الظن ثم تقعون فيه ! ولم يكن فيكم من غير ذلك وأنكره وقام بحق الله فيه إلا هذا الغليِّم ! !

لقد كان مقامكم في دياركم وبين أهليكم أقرب لسلامتكم وأقضى لحاجتكم! ! ! ! ثم صفح عنهم ودعا للجميع بخير»[2]

❖ ويختبره أحد أعيان تلمسان في كرْمة من شجر التين خلف بيت الشيخ لا ينقطع جناها على سبيل الاستبعاد! فيسلط عليه الشيخ على سبيل المداعبة والتربية واحدة من صواحبه في الغابة من قديم بحضور الشيخ أبي مدين الغوث آنف الذكر (ت 594) وأبي عبد الله الهواري (ت بمراكش 541) فلما وصل الرجل المكذب لهذا الأمر أمره الشيخ بالذهاب إلى الشجرة التي كان في نفسه من أمرها شك وريب ! فوجد الشجرة موقورة بثمار التين فمد يده إلى غصن من

---

[1] – أبو العباس العزفي 38 – 39.

[2] – أبو العباس العزفي 41 – 42.

أغصانها فإذا عليه حية كبيرة من صواحب الشيخ منذ القديم! ففزع الرجل وكان الشيخ في البيت فكلمه من الداخل وقال للحية : تروعين أضيافي !إن لم تتكعكعي وتلقي بنفسك إلى الأرض حتى أسمع دوي سقوطك لأفعلن بك كذا وكذا ! فألقت الحية نفسها إلى الأرض حتى سمع صوت سقوطها وذهبت ! ثم أكل أصحاب الشيخ آنف الذكر من تلك الشجرة[1].

❖ ومن عجيب إنصافه لامرأة سرق منها أحد ضيوفه حزاما لها وقدم مع جماعته للزيارة، وهم يحذرونه من ترك الصلاة، فلما وصلوا إلى الشيخ ورحب بهم أقبل على الرجل فزجره ونهره وأخرجه من المسجد قائلا :

- إِيمِكْرْ يدخل المسجد ولا يصلي؟ و إِيمِكْرْ هو اللص ! فلما فر الرجل وتبعه القوم يسألونه عن حقيقة لصوصيته أخبرهم بفعلته مع صاحبة الحزام في جهة مكناسة![2].

❖ العين المرة العاشرة : امتحان السلطان الموحدي له ونجاحه في الامتحانات معه :

على إثر وفاة شيخ أبي يعزى أبو شعيب السارية رحمه الله؛ وكان قد امتحن على يد السلطان الموحدي عبد المومن عندما استقدم إلى مراكش كما تقدم وعلى إثر تكاثر هواجس الموحدين الأوائل من النزعة الزهدية عند اهل الأطراف وخوفهم من المعارضة التي يمكن أن تنشأ من حولهم؛ أمر عبد المومن سنة 541 هـ وهي سنة وفاة الشيخ أبي شعيب المذكور! بإزعاج أبي يعزى إلى العاصمة مراكش، حيث أنزل في صومعة المسجد الجامع قبل إتمام بناء منار الكتبيين لأن

[1] - أبو العباس العزفي 53.

[2] - أبو العباس العزفي 37 – 38.

إقامته كانت في منار المسجد المرابطي وهناك اجتمع به من حبس من الفقهاء أو امر بعدم مغادرة مراكش كالشيخ الصالح " أبي الربيع بن تازْكُورْتْ " القبائلي، وكان الشيخ أبو يعزى يرى شدة اشفاق ابن تازْكُورْتْ عليه وهو في هذه الحال فقال له:

- لا بأس علي إن شاء الله! حبسني القوم وفي بقية ! وسيخلون سبيلي ! وسيحبسونك في آخر عمرك[1]، فكان ما كان من ذلك ! !

وبعد أن رأوا أحوال الشيخ وكرامته على الله وسلامة أحواله أخلوا سبيله، فقفل راجعا إلى عرينه ليلتقي من جديد بمريديه وأهله من إنسان وحيوانات مستانسة به وغابة ألفته وأحبته !

❖ العين السمحة المعطاء الحادية عشرة : عين الإحسان إلى متحملي المسؤوليات والعفو عنهم وإظهار الكرامات أمامهم للاعتبار :

علم الشيخ بعد ذلك بقدوم أربعين فارسا من فرسان الموحدين بقيادة القائد الشهير أبي عبد الله بن صناديد والذي سيقدمه عبد المومن بعد ذلك سنة 556 على الجيش بالاندلس وفي غزوة الأرك في التاريخ المذكور- فلما علم الشيخ و بطريقته الخاصة في التعامل مع الإنسان والحيوان والتلاغي معهما بذلك أعد لهم بواسطة أصحابه الطعام و" الرِّواء[2] " وقام فتلقاهم بالترحيب وأقبل عليهم قبولا حسنا إلا واحدا من أصحاب القائد الموحدي يعرف " بابن الرُّميحْ "

---

[1] - أبو العباس العزفي 49.

[2] - أصلها من الإشباع والارتواء ثم استعملت في المواد المعدة للخيل ونحوها من حبوب وتبن ومياه، وكان من توقيعات الملوك المغاربة إلى رؤساء القبائل عند مقدم (محلة السلطان) عليهم هذا التوقيع الشفوي غالبا" الشواء والرواء ونعلم " وهو على وجازته يختصر مهمات المضيف في إعداد الطعام للمحلة والعلف والماء للدواب، أفادنيه الفقيه الحاج فاخر أبو الهدى كاتب الشيخ الرحالي الفاروق رحمه الله.

واجهه الشيخ بإهماله الاغتسال من مس زوجه حين خرج وأمره بالقيام على الوادي ليتطهر وأمسك الشيخ بفرسه فلما انتهى إلى الوادي وسط الغابة إذا هو بأسد خاف منه فرجع إلى الشيخ يرتعد فصاح الشيخ مشيرا إلى الأسد بعدم ترويع أضيافه وهو يعلم أن الأسد جائع طالبا أن يرزقه الله رزقا لا يؤدي به أحدا من أبناء أمة محمد صلى الله عليه وسلم، فعلم الرجل وأصحابه إشارة الشيخ هذه ليبلغوها لمن يعنيه امر الشيخ وأحواله كلها![1].

❖ ومن هذا الباب ما نقله عنه بعض أبناء الخليفة عبد المومن الموحدي آنف الذكر في بعض أسفار والدهم إلى الغرب، وعندما وصلوا إلى ناحية مدينة «سلا» على البحر المحيط أرسل السلطان إليه وبسبب كثرة الوشايات به، اقدم إلينا وبواسطة أحد أبنائه مباشرة وهو عبد الله بن عبد المومن، وكان بينهم من المسافة نحو عشرين ميلا، فلما سار نحو أربعة اميال إذا به يجد الشيخ قادما من قريته وهو يقول له : أرسلك أمير المومنين ؟ !

- قال أبو محمد عبد الله الأمير : نعم !
- الشيخ : إنه يريد قتلي، ولكن سر بنا إليه!
- قال : فوصل إليه والخليفة جالس مع مشايخ الأمر كالشيخ أبي حفص عمر إينتّي[2] وأبي علي يونس بن تادرارت التنملي وأبي يوسف حجاج بن تومرت الهواري قاضي الجماعة وخطيبها بمراكش(ت 572هـ)![3]

---

[1] - أبو العباس العزفي 53.

[2] - نسبة إلى مجشر ويقال على البدل: مدشر والمحشر في العربية المكان الذي يتخذه دعاة الإبل للمرعي ويبيتون به ليالي وأياما؛ فكان المجشر مشتق منه. وهو في وسط الأطلس الكبير عن طريق إمليل صعودا إلى القمة يسمى " تينتين " فيما أفادنيه الزميل عضو المجلس العلمي لمنطقة الحوز الأطلسية محمد فاضـــل .

[3] - الإعلام 116/3.

- فلما دخل عليهم سلم وقال للخليفة مباشرة :

- يا أمير المومنين، أفي نفسك شيء مني مما قال لك فلان وفلان في يوم كذا ساعة كذا! ! !

فها أنا أخبرك ان تحت ذلك البساط الذي أنت عليه خريطة بها ألف دينار عيونا، قطعتها كلها وقلت في نفسك : أنظر هل ترجع إلي فيما يرتفع إلى بيت المال أم لا؟؟؟

- فقال الخليفة : إن الأمر لكما ذكرت !

- ثم قال الشيخ : يا أمير المومنين ! قلت الآن في نفسك : أكتب للشيخ كتابا بكل ما يريد !

- فأرح نفسك، والكاتب ووفر الكاغد !

- ثم قال : حاجتي أن تمشي معي إلى تلك الكدية[1] !

- فقال الخليفة : نعم !

- وقام هو وأصحابه فلما انتهوا إليها وبها زرع، قال الشيخ للخليفة :

- أحب أن تسقي لي هذا الزرع من ذلك الوادي ! !

- فقال له عبد المومن : من يطيق ذلك !؟

- فحرك الشيخ شفتيه، فأرسل الرحمان السماء بمطر وابلٍ[2] شربت به تلك الكدية وجرت به الأودية وما وصلوا إلى ظاهر المحلة إلا وقد ابتلت ثيابهم !»[3]

---

[1] – الكديـــة : الأرض الغليظة الصلبة لا تعمل فيها الفأس (المعجم الوسيط : كــدي)

[2] – وابل : متتابع مشبع كثيف.

[3] – أبو العباس العزفي 51–52

- ثم كلم ترجمان الخليفة بأن حمار الشيخ سيأكله الليلة أسد! فأمر الخليفة بحماية الحمار وسلط الحرس عليه فلما تفرقوا عنه إذا بالأسد قد افترس الحمار وبقي في مكانه رابضا ينتظر ! فعرف الخليفة بالقصة وأمرهم بإخبار الشيخ بصدق ما أخبر به ! فقال لهم الشيخ كالمكذب لهم : أريد أن أقف بنفسي على هذا! فلما أقبل وجد الأسد رابضا فضربه فخر ميتا! فنقلوا هذا المشهد للخليفة، ففهم الإشارة وقال لجلسائه :

- إنما ضرب لكم الشيخ المثل كعادته بهذه القصة وكأنه يقول لنا :

- أنا رب الحمار وصاحبه، فلما قتله الأسد سلطت عليه فقتلته! وأنا عبد ربي ! فإذا قتلتموني غضب لي ربي فيفعل بكم ما فعل بالأسد أو أشد![1].

❖ <u>العين الراحمة الثانية عشرة</u> : <u>عين الأنس والأمن واحترام الكائنات ورحمة الطبيعة والحيوان وحماية الجميع من الأذى والعدوان</u> :

عقد الشيخ منذ أن كان راعيا ميثاقا مع الطبيعة وحيواناتها وكائناتها ألا عدوان عليها من قبله! فأقبلت عليه جميعا بما فيها الوحيشة وذات السموم والأذى تستانس به وتحن إلى جواره في حكايات عجيبة تذكرنا بهذا التسخير لسيدنا نبي الله سليمان عليه السلام الذي أوتي معها الملك الذي انفرد به عمن بعده!

وما أحوج البشرية اليوم إلى تجديد هذا الميثاق التراحمي المليء بالعطف والحب لهذه الكائنات المسخرة لنا جميعا بعد أن وقع عليها العدوان والإفساد والتسلط والتلاعب والهجوم!

---

[1] - الإعلام 416/1.

❖فمن ذلك قصة الوفد السوسي إليه واقتلاع أحدهم قصبة من "وادي ماسة"[1] خضراء لم تيبس بعد :

« حدث عنه ابنه أبو محمد أن زوارا من أعيان طلبة قبائل سوس من نواحي وادي ماسة وحاحة وركراكة قدموا إليه فلم يجدوه بمنزله فلما سألوا عنه أخبروا بأنه في " مَجْبَحَة النحل "[2] فلما أقبلوا وجدوه على عادته في الغابة مع أسوده تلتف به وتشمه وتتواصل معه باللمس والحنان والالتفاف !

- فلما سلموا واحدا واحدا رآى بيد أحدهم – وهو أبو علي يونس – قصبة !
- فقال له باللسان الأمازيغي : لم اقتلعت هذه القصبة من مكانها وهي من جنس القصب الذي أنبته الله على يونس صلوات الله وسلامه عليه !

ثم أخذ عليه العهد أن يردها إلى حيث جاء لتعود مورقة كما كانت ! في قصة مليئة بالعبر والعظات ! »[3].

[1] – ينبع من جبال الأطلس الصغير ويصب في المحيط قرب قرية(ماسة) الواقعة بين مدينتي تزنيت وأكادير.

[2] – مجبحة النحل من فعل جبَح من باب كتب بمعنى رمى، وسمى مكان تعيل النحل بالجبح لأنه غيرمصنوع ومعد سابقا بل ترتمي إليه النحل ثم استعمل في كل موضع معد لتعسيل النحل (انظر لسان العرب (جبح)) .

[3] – أبو العباس العزفي 55 – 56. وفي العبارة غموض في الكلمتين الأخيرتين لم أتبين معناها !؟ والمجانسة بيـن مقتلع القصبة أبي علي يونس والنبي يونس ظاهرة في السياق واللحاق!.

❖ ويشير إلى قنافذ تسلطت على تين أهله بالإفساد فتنصرف ولا تعود!

ومن جملة تواصل الشيخ مع الأحياء إشارته على جماعة من قنافذ القرية بالانصراف نهائيا عن العيث في التين المعد للتخزين وكانت تأكله وتتمرغ فيه فتلتصق بقيته بها فتنقله! فلما أشعر بذلك، قال لولده أبي محمد آنف الذكر : إوِيَانْ تَازَرْتْ دْ الزّبيب إينَا إينَاكَتْنْ = ومعناه : هل أخذت منكم القنافذ التين والزبيب؟ فوعدهم بالإصباح عليهم من الغد! فلما أصبح عليهم قال بيده : احملوا اليسير إلى بيوتكم! فكان ذلك آخر العهد بهم![1].

❖ ومن طريف تفاهمه مع الوحش أن جاءت لبؤة إليه فربضت وجعلت تتمرغ فقال لهم : ما لهذه اللبؤة؟ فلم يعرف الحضور الأمر، فالتفت إلى أطبائها فإذا لبنها يجري فقال :

- إن أحدا أخذ منها أشبالها فبقيت أطباؤها[2] ملآى كما ترون! فبحثوا فوجدوا شبلين عند بعض جيرانه فدعا بهما فألفي أحدهما ميتا، فوضعا بين يديه، فقامت اللبؤة إليهما، فشمتهما ثم لحستهما! ثم تركت الميت وأخذت الحي بفيها تجره كما تفعل الهرة! وذهبت[3].

❖ وسباع أبي يعزى تقترب من حمر ضيوفه دون أن تخيفها :

ومن طرائف مشاهدات زواره عنده ما حكاه محمد بن عبد الكريم الوراق « كان عند الشيخ جماعة من الزوار، فبينما هم كذلك أمرهم الشيخ بالخروج

[1] - دعامة اليقين 56 – 57. والعبارة الأمازيغية بحاجة إلى شرح لغوي بحسب اصطلاح اللهجة المحلية.

[2] - الأطباء جمع وطب على غير قياس للثدي المتعاظم باللبن وتجمع على أوطاب قياسا على وطاب أيضا راجع القاموس المحيط للمقارنة (وطب).

[3] - أبو العباس العزفي 54.

ليشاهدوا منظر الحُمُر الأهلية راقدة والسباع تتحرك قريبة منها في الغابة دون نفار واستنفار، وذلك من كثرة ما تغشى هذه الحيوانات حمى الشيخ المحبب إليها فلا تجرؤ على استنفار حُمُر ضيوفه الغريبة عن المنطقة»[1].

❖ ومن طريف هذا الأنس بالشيخ ما وقع لجماعة من طلبة فاس وقد وفدوا على الشيخ وفي نفوسهم من كراماته المتواترة شيء! فلما باتوا ليلتهم مكرمين وقد أطعمهم الشيخ من أصناف الطعام فاحتلموا ليلا! فلما نادى بهم للصلاة ! استحيوا من الجنابة، فذهبوا في استخفاء إلى الوادي! غير أنهم ما كادوا يغتسلون حتى وجدوا أسدا رابضا على ثيابهم! فاحتاروا في أمرهم وهم في حالة من الفزع والبرودة والعري والخوف ! فإذا بالشيخ – وقد أبطأوا عليه – يتفقدهم ! فيجد هذا المشهد الغريب المضحك المبكي وسرعان ما هش على الأسد بشيء فانصرف الأسد ! وخرج المستحمون إلى ثيابهم! وقد رأوا من فعل الشيخ بالأسد وبهم ما جعلهم يتأكدون بأن وراء الأكمة ما وراءها ! من العناية والكرامة والتسخير!

---

[1] - الإعلام 410/1.

خلاصة العطور وسلافة الصدور وبدر البدور "أبو يعزى إلى النّور":

أجمع المترجمون له على تصدره وكرامته وتصرفاته النافذة العجيبة وزهده البالغ ونظره الخارق ومثابته الآمنة وإكرامه المتوالي وحسن ضربه الأمثال المشاهدة والبراهين الموقظة يستسقي به أهل المغرب عند الجدب فيعزم على الله فلا يرده! ويرجعون إليه في المعضلات فيكشف لهم الحل المناسب ! وقد عقد الميثاق مع الجماد والنبات والحيوان! فهو يتجاوب إليه ويحن! ومع الإنسان فهو يلفي عنده الشفاء من الداء سواء أكان ماديا محسوسا او نفسيا مدسوسا! ربى المريدين بهمته وأحواله ! وكفى بمن ذكر من أقطاب معالجة النفوس كأبي مدين الغوث وأبي شعيب وغيرهما! حتى وصلت شهرته إلى الشيخ الأكبر شيخ الجميع مولانا عبد القادر، فكان به حفيا وكان هو له وفيا، فاتصل بذلك السند المشرقي مرة أخرى بعلومه ومعارفه وفقهه واجتهاداته بالسند المغربي باستغراقه في العبودية والوقوف على الباب! حتى فاض عليه من العلوم اللدنية ما أمد به المشرق بعد ذلك ابتداء من الشيخ أبي الحسن الشاذلي وابن عربي الحاتمي وأبي مدين وأضرابهم! حتى امتزج البحران والتقى العلمان وفاضا على القارات الثلاث والأربع والخمس إلى أن يشاء الله! ! وفضل اله لا يحد، وكرمه لا يزال يتجدد، وفي الباقين من ذوي الهمم العالية تنبجس العيون من هنا وهناك وهنالك! وأحبار هذه الأمة وعلماؤها كأنبياء بني إسرائيل [1] فيما اشتهر واستفاض على السنة الخلق من الكلام الدال على المكانة في الولاية والعامة وفي النبوة الخاصة! وإن كان في إسناده مقال.

[1] - **قالوا عن هذا الأثر إن معناه صحيح وإن كان ضعيف السند إليه صلى الله عليه وسلم ويؤيد صحة معناه الحديث الذي أخرجه البخاري وغيره، العلماء ورثة الأنبياء (انظر الأحاديث الصحيحة لناصر الدين (رقم 6/369) والضعيفة له أيضا رقم 466، ومعه الدرر المنثور للسيوطي 14/1 وكشف الخفاء للعجلوني 64/2 والفتاوى الحديثية لابن حجر الهيثمي 649/1.**

النموذج الخامس: الفتوة في مؤسسة للتكويـن والذكر والاجتهـاد والخدمة والجهـاد عند الحـدود في شخص عبد العـزيز التبـاع صانـع الفتيان وناسج خيوط الحرير ومنشئ الأحـــرار

الشباب
والفتوة في مدرسة عبد العزيز التباع
الحرار وامتداداته المغربية
في عصور المواجهات الكبرى مع
الجار الغازي الأيْــبِـري

فتية كواكب حول شمس الاتباع عبد العزيز التباع (....... – 914 هـ)

❖ في غمرة أحداث القرن التاسع الهجري بالمملكة المغربية الوطاسية عامة ومدينة مراكش خاصة كتب للشيخ الجزولي قدس سره ولطريقته ذات السر الظاهر ولمريديه الذين انتشروا بأقطار المغرب رافعين راية التوحيد والإخلاص والوحدة، ضدا على عوامل تجزئة النفوس والقطر والملامح الخاصة، والشخصية المغربية المتماسكة، بعقيدتها الأشعرية الوسط، وبمذهبها المالكي المبني على المصالح المرسلة والعرف وما جرى به العمل، وبالطرق التربوية السلوكية الصوفية الأعماق – كتب لهذه الطريقة الشاذلية النسب ان تستقل بالتربية عن أمها وأن تربي الأبناء والأحفاد وأن تبثهم، مصابيح للوحدة والتماسك والتفاؤل، أمام هزائم وانتكاسات وتراجع في الرقعة وتناقص في الأطراف!

● وكان من ألمع هؤلاء النجباء ذلك الطفل الذي ولد وفي فمه كلمة التوحيد والفطرة، وعلى جبينه طابع القبول والمحبوبية، وتشاء القدرة الربانية أن يساق إليه بحومة طفولته حي القصور ذلك الشيخ النابه والعلم الرحالة الصوفي البارع والواضع لدستور الصلوات على نبي الرحمة الدال على دلائل الخيرات، محمد سليمان الجزولي (ت 870) لتلتقي الأجسام وتتلاقح الأرواح في زيارة فريدة إلى مراكش وكأنه ما قصدها بعد أن جال واستقر بفاس تارة وأخرى "بتيط نفطر"[1] إلا ليتلقي بهذا الفتى المراكشي الملامح والسمات، فيلتصق المريد بشيخه خدمة واستمدادا، واستنادا وتحببا واعتمادا، حتى إذا ما دنا أجل الجزولي كان من شدة تعقله بالتباع، أخلص خلصاء مريديه، أن عهد به إلى أحد مريديه

[1] – تقدم التعريف بها وهي الآن من بقايا الآثار الأمغارية عند المحيط قرب الجديدة أو مَازَغان وتقام بها الذكرى السنوية للمولى عبد الله أمغار آنف الذكر.

الرشداء سيدي محمد الصُّغير السهلي السفياني، مظهرا له ما بباطن التباع من كنوز وأسرار وتحول وتحويل في المستقبل، مشبها إياه " بحجر الكيماء " الذي يحول المعادن الخسيسة إلى النفيسة! قائلا : يا صغير! الله الله في عبد العزيز ! فإن عبد العزيز كيمياء! فانجذب إليه لذلك كله قلب التباع بعد وفاة شيخه الجزولي وسار من مدينته مراكش إلى السهول إلى " وادي اللبن "، والتصق به سنين سبعا بمنزله بقبيلة أولاد جامع قرب فاس حتى أصبح بمثابة الولد النسبي بعد ان صار الولد الروحي، ومن حدب سيدي محمد الصغير السهيلي السفياني عليه أنه كان يغطيه بثوبه عند النوم، ويقعد يراقبه ويحرسه! كما قيل ! وبقيا على ذلك سنين بلغت سبعا أو ثمانيا، يقضي فيها التباع حوائج شيخه هذا والوصي عليه ويصون بهائمه[1] ويأتيه بحزم الحطب من الغابة ويرعى ماشيته حتى كانت ليلة أصبح يومها ذا مطر غزير فإذا بالتباع مقبلا على دار شيخه وعلى ظهره ما تكلفه من حزم الحطب وأمامه بهيمة الشيخ وماشيته! فرأته زوجة الشيخ " للاَّ تاتو"[2] على هذا الحال فأشفقت عليه، وقالت في نفسها : إنني سأسعى في نفع هذا الولد عند السيد لعل الله يثقل ميزاني بذلك! وفي الحال دخلت على زوجها سيدي أبي محمد الصغير قائلة : يا سيدي ! تنظر من حال عبد العزيز فإني أشفقت عليه! فقال الشيخ : إن شاء الله ! فلما دخل عبد العزيز رائحا مساء اليوم ببهائمه وحطبه خاطبه الشيخ قائلا : يا عبد العزيز! إن أمك أشفقت عليك! فاذهب إلى مدينة مراكش ينتفع الناس بك! وزاد : اذهب إلى أمك تاتُّو فادع لها! فدعا لها، وهكذا أطلق الشيخ تلميذه النجيب التباع من ثقاف الإرادة، بعد اكتمال وتنور

---

[1] – جمع بهيمة وهو تعبير مغربي خاص عن الأبقار وما ولدت في الغالب.

[2] – "لــلاَّ" لقب تشريفي للمرأة المتميزة بخصال الشرف ونحوه في المغرب.

وانفتاح، ووصول واعتمار، فسار سيره الجديد وقد تحول من حال إلى حال وارتقى من مقام على مقام، وإذا هو بمراكش مخلوق جديد ونبع قادم إليها بعد جدب ومحل للسقيا والإحياء والتجديد، فما كاد يستقر بمراكش حتى انتشر سره في الآفاق، وعطر ذكره القلوب والأجساد والأرواح، فظهرت منه كل كرامة وعم خبره من المغرب الزاوية والأركان، وكيف لا وقد تمحضت له الهداية والاقتداء من جهة شيخه سيدي محمد بن سليمان أول أمره، وأخذ في صحبة سيدي محمد الصغير ولبس على يديه خرقة التواضع واختراق العادات الراسبة، وهكذا انتقل الشيخ التباع من موضع سكن والديه بالقصور[1] ليستقر بحومة النجارين برابطة الصالحين، وليفد عليه من الراغبين في الصحبة والوصول، تلامذة صادقو الطلب والعزيمة، وراغبون في التحلي بكل مكرمة وكرامة.

وها هو يحيي مراسم الطريقة الجزولية والمنطلقة في أصولها من الطريقة الشاذلية التي قامت على المفتاح المسهل لفتح كل منغلق (لا إله إلا الله) ؛ مع المواظبة على الأذكار، والصلاة على النبي المختار، بدءا باللسان وانتهاء بمرتبة الفناء في التوحيد مع إسقاط التدبير مع الخلق، لم يزدها الجزولي إلا تفصيلا وتفهيما بكلماته الجامعة اللامعة، وسواطع عباراته المشرقة المشوقة للعين الدامعة! فما شئت من حث على التوحيد وحث على معرفة الذات الإلهية ومن جمع بين علم الظاهر المأخوذ من مشكاة النبوة وأصله الوحي وبين علم الباطن المأخوذ من الله تعالى بواسطة الإلهام وسواطع الأنوار، وما شئت من حث على الارتقاء من مقامات الإسلام إلى مقامات الإيمان إلى الإحسان، وما شئت من ترغيب على التمسك بشيخ التربية والسير إليه مهما اعترضت طريق المريد في

---

[1] – حي ملكي وإداري بمراكش السعدية وما بعدها.

ذلـك المتاعـب والمصـاعب، لأن في ذلـك وصـولا إلى مراكـز النـور والرحمـة والاهتداء! وما شئت من حرص على تجنيب المريد طريق المجاهدة المتعبة إلى طريق الشكر والمشاهدة، المسعفة والموصلة اللاحبة المعالم، المحمية بتجربة الشيخ المربي ومراقبته وحدبه واحتضانه، مع صدق الطلب ولزوم التوبة وصدق الرجوع، سالكة في ذلك جملة من آداب المريد مع الشيخ المربي ومع رفاقه في الطريق باختيار الجليس الصالح وتفادي العموم في فترة التلقين والتجربة، ولزوم الصدق في الحال والمآل، والإخلاص في كل عمل وحركة في استقامة الذاكر الخاشع وزهد في القلب وإن كان المريد ذا رياش ومتاع.

● **وها هو ذا الشيخ التباع الخبير بصناعة خيوط الحرير وتقيمتها وبرقتها وجمال ألوانها يحول الأتباع من مادة خام تأكلها دودة القز لتخرج منها بدل الفضلات** خيوطا جميلة الملمس والألوان والنظرات، وهو الموصوف بحجر الكيماء في تحويل المواد الخسيسة إلى المواد النفيسة ضاربا الأمثلة الحية لمريديه الصادقين من صميم البيئة المغربية المراكشية.

● **وها هو أحد تلامذة شيخه الجزولي بالوساطة يتركه شيخه بعد الوفاة** في حيز الإرادة غير مكتمل السير! فيمر بالشيخ التباع بمراكش يشكو إليه حاله ونقصه، وعندما سأله الشيخ التباع كيف يجده بالمقارنة مع شيخه يجيبه سيدي محمد بن عيسى هذا بان شيخه السابق أحسن من التباع، فينظر إليه التباع فرحا باعترافه بفضل شيخه الأول وتفضيله عليه غير عاتب عليه ولا لائم، ومع ذلك يقول له : إن أخي أحمد الحراشي هذا وإن كان صفى درهمك ولكنه تركه بغير طابع والدرهم غير المطبوع لا يجوز في الأسواق! وها أنا أطبعه لك فاذهب ينتفع بك الناس ! فذهب إلى بلدته مارا بسيدي محمد الصغير السهلي آنف الذكر وهو

في بعض مواشيه، فلما أخبره بقصته مع التباع وعرف الشيخ الصغير أنه بحاجة إلى نقلة تنهيه إلى الكمال، دار دورة ربانية ورمى بعكازه إلى السماء قائلا : هلا قال لك : ها أنت وربك؟ فأمده بهذه الدورة والكلمة بمدد آخر ظهر له به سر الملكوت ونور الجبروت، فذهب لينتفع به الناس؛ وبهاتين الترقيتين؛ في كل قطر حل به!

● <u>ومن مكارم تحويل الشيخ التباع المواد الخام بالكلمة المحيية للقلوب والمحولة للمعادن الخسيسة إلى مواد ذهبية ما حصل لأحد أشياخ الشاوية</u> العتاة بسبب إرسال الشيخ إليه سيدي عبد الله الغزواني تلميذه النجيب قائلا له : قل لمحمد بن داوود قد احتجنا للإدام[1]! فلما باتا إلى الصباح تحول هذا الحاكم إلى حالة جديدة ونزع ثياب الحكم ولبس ثياب الفقر وكسر رمحه وحوله إلى عكاز، وقدم بين يديه ثروته إلى الشيخ بمراكش فلما وصل إلى الشيخ التباع قبله وأقبل عليه وقال : لقد قبلت مالك ورددته عليك ! فاعمل لك زاوية ! فرجع إلى بلدته الشاوية وعمل زاويته وصار من أهل الخصوصية، وانخرط في ديوان الجزولية.

● <u>ومن هذه التحويلات العجيبة للمعادن الخام المستعدة للاكتمال بطول التجربة والافتتان ما وقع لسيدي عبد الكريم بن عمر الفلاح عندما قدم إلى</u> مراكش بعد مقتل والده من بلدة حاحة في فتنة عمر السياف المُعيطي حيث ألجأته هذه الحادثة إلى مراكش في حيرة واضطراب واضطرار، وها هو على هذه الحالة إذ سمع بانتقال الشيخ الجزولي إلى حومة النجارين برابطة الصالحين آنفة الذكر.

---

[1]- الإدام: عام في كل ما يؤتدم به لإساغة الخبز أو الدقيق كما في حديث " نعم الإدام الخل " وفي عرف المغاربة الزيت أو الهرجان المسمى بأركان خاصة.

قدم عبد الكريم الفلاح هذا من باب أغمات في طلب لقاء الشيخ ، فلما استاذن عليه سكت عنه الشيخ ولم ياذن له حتى عاوده مرارا وأكثر المراجعة والإلحاح ! والشيخ يهيئ له في نفسه ما يهيئ ! فلما طالت المدة قال الشيخ للخادم : ائذن له وأدخله ، فلما أدخله جاء فقبل يد الشيخ ! فرفع فيه الشيخ بصره ، فكان في نظرته هذه كل فتح وقبول بعد اضطرار وحيرة والتجاء ! وكان الشيخ التباع بعد ذلك ينوه به في مجالسه مرات وهو يقول : نْرْفدْ عبد الكريم من العسل ونغمسه في السمن ! ونْرْفْدُ من السمن ونْغْمْسُهْ في العسل[1] ، كناية عن وضع القبول له في القلوب على أية حالة كان ! فكان له ذلك : فما من أحد رآه إلا أحبه ، وما من احد سمع باسم عبد الكريم الفلاح إلا هش له واشتاق لرؤياه !

● <u>ولا غرو فإن ما وصل إليه الفلاح من خدمة بعد ذلك للفقراء وإطعامهم وإكرامهم</u> جعل الشيخ التباع يقول معلقا ذات ليلة على سبب خلو الزاوية من المريدين والأذكار بعد أن استفهم أهله عن انقطاع السماع والذكر الذي ألفوه من الزاوية : " الفقراء ! ذهب بهم عبد الكريم الفلاح ! الفقراء ! ذهب بهم عبد الكريم الفلاح ! الفقراء ! ذهب بهم عبد الكريم الفلاح ! فكأن قولته هاته صادرة من حضرة المالك ودالة على أشرف المسالك ! ولا غرو فإن باب الكرم والعطاء من أقصر الأبواب للوصول إلى المكرمات والوقاية من الشح والبخل والآفات ، لذلك نقل عن الشيخ التباع قوله : تمنيت أن أسوي بين من أتى بشيء وبين من لم يأت بشيء فلم أجد ! وهو تفسير للحديث الشريف في

---

[1] – نرفـد: فعل عامي في أصله الفصيح: أ رفده بمعنى : اتولى رفده وحمله وضيافته ثم استعمل بمعنى الحمل للشيء عامة.

قصة شكوى فقراء الصحابة من أغنيائهم وأن ذلك فضل الله يوتيه من يشاء، والله ذو الفضل العظيم[1].

• وإذا كان من علامات الكمال في الشيوخ التزكية بالنظرة الأولى فإن الشيخ التباع الملقب بالشيخ الكامل يوثر عنه في هذا الباب مع تلامذة آخرين ومع عامة محبيه ما يعجب له المتعجب، من مثل ما تقدم مع الشيخ عبد الكريم الفلاح وما قيل من تبشيره زائريه بعد خروجه من اعتكاف وخلوة واحتجاب بداره، فكان في نظرته إليهم تحول إلى ذوي الخصوصية والولاية، ولا غرو فقد قيل : لأن النظرة فيه تغني ! وها هو يسافر إلى فاس متحملا مشاق الطريق ليكمل أحد علماء فاس بعد أن نزل بمدرسة العطارين فانحشر أهل فاس للتبرك به.

ساير الشيخ الجمهور الفاسي وهو يحول نظره بينهم إلى أن رآى العالم الفاسي سيدي أبا الحسن علي بن محمد صالح الأندلسي يهم بالخروج! فقام إليه متخطيا، وتلقاه آخذا بيده صاعدا به إلى درج المدرسة حيث مكثا هنيهة ثم نزلا إلى الناس، وحينئذ أخبر الشيخ التباع تلميذه الجديد في الطريق الذي وصل إلى الاكتمال وبعد أن طلب منه الإقامة وامتنع - بأنه إنما جاء لأداء أمانة كانت عنده وها هو قد أداها! وكان هذا العالم الغرناطي الأصل والمشهور بالأندلسي لقبا قد تطلب شيخا في التربية يلقي إليه قياده ! وكان يقال له : شيخك في العدوة، أي عدوة فاس، لذلك انتقل إلى فاس، وفتح بها دكانا حتى إذا ما لقي التباع وحصل له الفتح والارتفاع كان ذلك آخر عهده بالحانوت! وتأهل بذلك

---

[1] - حديث أبي ذر وفيه " إن فقراء المهاجرين أتوا رسول الله صلى الله عليه وسلم فقالوا يا رسول الله! ذهب أهل الدثور بالأجور الحديث كما عند أحمد في المسند وفي الأدب المفرد للبخاري وفي صحيح مسلم وعند أبي داوود وغيرهم.

اللقاء المحول المغير، وبتلك النظرة التباعية المكملة إلى شيخ متبوع، فنعم التابع ونعم المتبوع بعد لقاء الشيخ التباع، وانتشرت بذلك الطريقة الجزولية التباعية في فاس، بسبب هذا اللقاء الرباني بين شيخ مراكش والجنوب وعالم الأندلس وفاس والشمال وبقيت في الأحفاد تابعا عن تابع وكابرا عن كابر[1].

● وإذا كان السامع اليوم إلى هذه التحولات الكيميائية القريبة من الخوارق والتأثير المغناطيسي قد يستغرب تحويل شخص مسلم عادي إلى عارف رباني مكتمل فإن الأغرب من ذلك تحويل شخص عبري شديد التمسك بشريعته وملته إلى مسلم مومن ومحسن وعارف مثلما نقل في ترجمة السرار الغازي دفين الرميلة بطريق القصور بمراكش، إذ كان الشيخ التباع يوما قد أمر خادمه أن ينظر من الباب! فخرج فلم يجد إلا يهوديا عبريا ! عطارا يبيع سلعته خلال الديار، فرجع الخادم وأخبر الشيخ، ثم مكث هنيهة ثم قال للخادم : اخرج فانظر من الباب، فلم يجد الخادم إلا العطار اليهودي! وفي الثالثة قال له : ايت به ! فأتي به فدخل وقد تحول بمجرد النظر إلى الشيخ من حال إلى آخر ! فأسلم لحينه كما في الرواية الشفوية المراكشية والتي نقلها صاحب الممتع حفيد أبي المحاسن الفاسي المجاهد الصوفي الكبير[2].

● ومن ترقيات التباع الخارقة للشاب أحمد بن موسى التارزواتي الذي ما إن وصل إلى سوق مراكش حتى أخرج التباع من يأتيه به ولما أوصله إلى الباب، أمره بالانتظار خارجا، وظل الشاب التارزواتي السوسي (ت 958هـ) على هذه

---

[1] – ممتع الأسماع في ذكر الجزولي والتَّباع وما لهما من الاتباع ص46 محمد المهدي الفاسي ط حجرية؛ فاس؛ 1305هـ وأعيد طبعه .

[2] – ممتع الأسماع في ذكر الجزولي والتباع وما لهما من الأتباع ص45 ط حجرية آنفة الذكر.

الحال منتظرا بإحدى أماكن النفايات ثلاثة أيام لا يبرح مكانه خوفا من أن يتفقده الشيخ فلا يجده، وبعد ذلك أرسل إليه بأن ينصرف لينام، هذه النومة التي لم يستفق منها إلا وقد تغير من حال إلى حال بعد أن مر بالتجربة اللائقة به كما أشار بذلك عليه الشيخ الكامل المتبوع! فكان بعد ذلك شيخ سوس كلها والجنوب غير منازع إلى اليوم؛ وهو فتى جزولة وفارسها ومنظم الفتوة فيها تحت اسم (رماة سيدي أحمد أُموسى) دفاعا عن الثغور تطوعا

● إذا كان الشيوخ يربون بالهمة وهي أزكى أنواع التأثير الروحي بين الشيخ ومريديه وإذا كان بعضهم كالشيخ التباع يربي بالنظرة فإن كلمات المربين من المشايخ العارفين هي ربيع القلوب لأنها مقتبسة من الحضرة الربانية ومن أنوار التنزيل ودالة بعبارتها الدارجة أو العربية أو الأمازيغية – ذات الإيقاع المحلي والألفاظ واللهجة الخاصة الدالة على أقرب الطرق الكلامية لإرشاد الخلق ورفع هممهم إلى حضرة الحبيب المصطفى صلى الله عليه وسلم، وإلى حضرة الرب تعالى، وهو قد اشتقت منه لفظة التربية ولفظة الشيخ المربي والمريد المتربي، ولم تخل مجالس التباع العامة والخاصة من هذه الدلائل المنثورة وأحيانا من الأبيات المنظومة!

من كلمات العاطرة الأنفاس ببعض ذلك ليعرف به ما هنالك :

❖ رأى الشيخ ذات يوم مريده المقرب إلى نفسه عبد الكريم الفلاح مهموما خاليا بنفسه إلى ركن من أركان الزاوية فناداه وقربه وقال له :

" دع همك وغمك،

واصرف وساوس نفسك عن نفسك

فإن الهم باب يدخل منه الشيطان اللعين إلى النفس الأمارة بالسوء!

لينسيها نعم ربها على المهموم المغموم!

واعلم بأن الإيمان ....

يطرد هم المومن، ولا يترك له قراراً في النفس.

لان المومن يصدق بقضاء الله وقدره أو كما قال [1]

❖ وها هو الشيخ الشهير دفين مكناسة الزيتون وفي باب المحبة والمحبوبية يسجل كلمات شيخه ويجمعها ثم يحكيها حكمة تتلى ونصائح تجتلى يقول:

« سمعت شيخي التباع وأنا بزاويته بمراكش يقول لأصحابه :

لا يدخل النار رجل أحبه عباد الله

ولا يكون الرجل محبوبا عند الناس إلا إذا اقترب من قلوبهم بمودته،

وبالتغاضي عن أخطائهم، وهفواتهم،

فالمودة إكسير القلوب ودواؤها

والمحبة عنوان صفائها وخلاصة سريرتها

والمحبون أكثر الناس تفاؤلا بالحياة

وأعقلهم في الملمات

وأثبتهم قدما في الصدمات

وحبنا، ألفه ألفة، ولامه لذة، وحاؤه: حلم

وباؤه الأولى بر عيال الله وخلقه وباؤه الثانية : براءة من الشرك والشك»

[1] – الشيخ سيدي عبد العزيز التباع : المشهد الصوفي من خلال سيرته وأدبياته ونبش في معارف الأجيال / ص 153 ط/ دار المنصور مراكش عبد الرحمان الملحوني.

● وها هو ذا احد المواظبين على مجالس الشيخ يسأله عن سبب كثرة ما يوصي به الشيخ التباع من الحضور الدائم في مجالسه : فيجيبه الشيخ رحمه الله ورضي عنه :

«مجالس العلم فضاء من فضاءات الرحمان

تحضرها الملائكة، ويذهب عنها الشيطان

والمرء فيها يجالس الأخيار

فإذا واظب على صحبتهم، والاستماع إلى أحاديثهم

فإنه يجد نفسه قدرة على فعل الخير

وإرادة على الاستمرار فيه، والتلذذ بنتائجه ...

فيقوى بهذه المجالس العلمية طلبك

و تسمو بها روحك

فتتجنب طواعية شرور الكبر والاستعلاء على الناس!

وإذا جالست الأرذال، وواظبت على مجالس أحاديثهم

فإنك تجد في نفسك أيضا قدرة على فعل الشر

فيقوى بها طلبك، وبها تسفل نفسك، وتتدنى مشاعرك أو كما قال»[1]، وكأنه يشرح بعبارات سهلة محلية أحاديث اختيار الجليس الصالح وحديث بائع العطر ونافخ الكير مما صح عنه صلى الله عليه وسلم في باب الصحبة للأخيار وتجنب صحبة الأشرار[2].

---

[1] – فيما نقل عنه أحد الباحثين عبد الرحمان الملحوني ص 160 آنف الذكر.

[2] – أخرجه الإمام مسلم وأوله « إنما مثل الجليس الصالح والجليس السوء كحامل المسك ونافخ الكير » – الحديث – ورواه البخاري في موضعين من صحيحه وأخرجه أبو داوود وغيره.

❖ وها هو ذا الشيخ يشكو إليه أحد الحاضرين من عامة أهل مجلسه من أثر رؤيا رآها في نومه قائلا :

« أيها الشيخ الفاضل : رأيت مناما – وأنا بين مجموعة من علية القوم – أن في وجهي أثرا بارزا من ضربة الشمس ! فخفت أن يتحول إلى برص فذعرت وأصابني فزع فاستيقظت فزعا فما ذا يعني ذلك جزاك الله خيرا؟

فأجابه الشيخ قائلا بعد تأمل :

" أعرض عن تشاؤمك هذا ! وتفاءل خيرا !

فإن في حياتك شيئا يكرهه الناس منك، وما عليك إلا أن تكبح جماح نفسك، وتقهرها قهرا، حتى يكون ظاهرك كباطنك، و ﴿ كل امرئ بما كسب رهين ﴾[1] وصدق الله !

ثم زاد قائلا : وإياك ان تصبح أسير النفس الأمارة بالسوء!

ولكن انشرح بالمواعظ ومناجاة النفس اللوامة.

وأفسح لها مجالا رحبا لمحاسبتك، حتى لا تقع في عثرات النفس الأولى بل تبقى مغمورا برحمة الثانية.

واعلم أن قلوبنا أحواضنا![2]"

فلتزرع في تربتها كل طيب وحسن من الأعمال

﴿ و البلد الطيب يخرج نباته بإذن ربه!

[1] – سورة الطور : 21.

[2] – المقصود بالحوض في العامية المغربية " الحوط " على رقعة من الأرض صغيرة يقع الاعتناء بها حرثا وسقيا وصونا وحفظا وزرعـاً.

والذي خبث لا يخرج إلا نكدا﴾[1].

ثم قال مخاطبا الفقراء:

« الله الله في قلوبكم !

قو أنفسكم وأهليكم بالمحبة !

واعلموا بأن الكراهية والبغضاء داء عضال!

لا يصيب عباده المخلصين، الذين خلص إيمانهم بحبهم الصادق لله تعالى ولرسوله ولعامة المسلمين» أو كما قال رضي الله عنه[2].

❖ ❖ ❖ ❖ ❖ ❖

❖ ومن كثرة ما يوصي الشيخ بالمحبة في الله ويعتبرها المفتاح الأول لكل خير، وأنها شيء يملك كل واحد أن يوجهه الوجهة الصالحة النافعة دنيا وأخرى؛ يقول غير ما مرة لمريديه، أيها المريدون !

« خذوا مني ثلاثة

وأعطوني من حياتكم واحدة فقط !

خذوا ما شئتم من وقتي

ومن عملي أو علمي

ومن مالي

وأعطوني مقابل ذلك محبتكم الخالصة

نعم ! فبالمحبة تنجو النفوس من ضلالها و تيهها

---

[1] – سورة الأعراف : 58.

[2] – الملحوني 178.

وبالمحبة تسمو أرواحكم، فتندرج في مدارج السالكين الواصلين »أو كما قال[1]

❖ ❖ ❖ ❖ ❖ ❖

❖ وهاهو ذا طيب النفوس ومحول المعادن الخسيسة والنفوس الخائفة إلى معادن نفيسة ونفوس مطمئنة يزيل ما علق بباطن احد المريدين وهو يحكي رؤياه التي أرقته وشغلت باله قائلا :

« أيها الشيخ الفاضل : رأيت مناما أنني أسعى بين الصفا والمروة، وعلى ظهري أمي العجوز! فلما انتهيت من السعي طلبت مني وبإلحاح أن امكنها من الدخول إلى البيت لتتبرك به فاقتربت من الباب ولكنه أغلق في وجهي! فأنا لذلك حزين حزنا لا مزيد عليه! وقد استيقظت فزعا مضطربا ! فما هو تأويلكم سيدي أزال الله همكم وغمكم!؟

وبعد تأمل وإطراق أجابه الشيخ مؤولا رؤياه إلى أحسن تأويلاتها :

إن السعي بين الصفا والمروة علامة على ترددك بين فعله وتركه، وحملك لأمك على ظهرك يرمز إلى هم كبير ! لاتطيق فعله، ولا تقوى نفسك على حمله، أما عدم تلبية رغبة أمك فعلامة على شيء بينكما لا يزال يحز في نفسك وينغص عليك لذائد حياتك!

فبكى الرجل ثم قال للشيخ : لقد اضطرت يوما إلى السفر في تجارة وتركت امي وحيدة وهي في أشد الحاجة إلي، فلما حضرت وجدتها توفيت! رحمها الله ! فندمت على ما فعلت، وقلت : والله لأكفرن على ذلك بالإقامة

---

1 - الملحوني 152.

الدائمة إلى جوارها، أقرأ عليها ما تيسر من القرآن وأتصدق عليها من تجارتي التي حالت بيني وبين حضور وفاتها إلى أن يشاء الله! فقال الشيخ التباع مبتسما :

إنك بهذا أيها الرجل – إنما تكيل لنفسك الصاع صاعين! فبما تفعله من ترك تجارتك تبور ومن قهر نفسك ولومها وشدة حزنك على ذلك! بل تواصل عملك في تجارتك وتتقرب إلى روح والدتك بالصدقات، وتحارب بذلك الوسواس الخناس بالأذكار وتلاوة القرآن، وحضور مجالس الذاكرين ومحافلهم يغنك ذلك عن إسار نفسك لنفسك، وأكثر من الصلاة على الرسول صلى الله عليه وسلم، فهي أمحق للذنوب من البارد للنار، واعلم بأن الإقرار بالذنب باب من أبواب المغفرة المفتوح يفتحه الله لعباده الصالحين المخلصين وأنت منهم ما دمت في حمانا تقتدي بهدينا وطريقتنا ﴿إن ربي على صراط مستقيم﴾[1] وبالله توفيقك!»[2].

❖ ❖ ❖ ❖ ❖ ❖

هذه بعض جماليات الشيخ الفتى المتلاعب بخيوط الحرير الرقيقة الناعمة الملمس الصعبة النسج في رفع الحرج والضيق عن نفوس حائرة أو مستفزة أو مضطربة، من مريديه أو زائريه أو مستفسريه أو مجالسيه، في تفاؤل الواثق بالله وبعفوه وعنايته بحسن تأويل رؤاهم وهواجسهم وأمراضهم النفسية إلى أحسن تأويلاتها، كاشفا للهموم، رافعا للحرج، وميسرا لا معسرا، وهو في ذلك على قدم المتبوع صلى الله عليه وسلم الرحمة المهداة العزيز عليه عنتنا، والحريص علينا، والذي هو من أنفسنا، الرؤوف الرحيم مصداقا لقوله تعالى﴿ لقد جاءكم

---

[1] – سورة هود : 56.

[2] – الملحوني 125 – 126.

رسـول مـن أنفسـكم عزيـز عليـه مـا عنـتم حـريص علـيكم بـالمومنين رؤوف رحيم ﴾[1]

❖ ولم تخل دعوات الشيخ رحمه الله كذلك من هذا المنحى التبشيري المتفائل الجميل.

❖ من مثل قوله :

« ربنا هب لنا من سمعك ما نسمع به ، ومن بصرك ما ترى به عيوبنا ، ومن قدرتك ما نغالب به شهوات نفوسنا ، ومن جلالك وعظمتك ، ما نسمو به على أعدائنا ، ومن أسمائك الحسنى ما نتحلى به من صفات حميدة في سيرتنا وأخلاقنا ، إنك تعلم ما نريد ، ولا نعلم ما يراد بنا ، فأنت العليم بذات لصدور»[2].

❖ ❖ ❖ ❖ ❖ ❖

❖ ومن لآلئ أدعية الشيخ الجوامع قوله وهو يحث على الدعاء ويعتبره رباطا قويا ، يربط الأحرار بربهم ، وهو مجاز لعبور السالكين الواصلين يقول في إحداها :

« اللهم باعد بيننا وبين مجالس السوء
واختم علينا بما ختمت به حياة حبيبك المصطفى ، ورسولك المرتضى
واجعل حياتنا نورا وهاجا يضيء الطريق إليك
كما جعلت حياة خليلك ، كلها هداية ونورا»[3]

❖ ❖ ❖ ❖ ❖ ❖

---

[1] - التوبة : 128 – 129.

[2] - الملحوني 118.

[3] - الملحوني 167.

❖ <u>وها هو ذا أحد أتباع الشيخ بدوره يودع طائفة من مريديه وقد عزموا على الخروج للتطواف ونشر الطريقة بحضور المسؤول عنها قائلا : أيها الناس! إني قد جمعتكم اليوم لآخذ العهد والميثاق الغليظ على ما تاخذون به نفوسكم،</u> وما توصون به أبناءكم، وعشائركم، وإخوانا لنا مقربين محبوبين، - الزموا أيها المريدون – وصيتنا وعهدنا، مجددين الميثاق المرسوم عند كل هلال شهري، وعليكم من ظهور الهلال بتلاوة الأذكار والأوراد وقراءة الأحزاب، والوظائف الخاصة؛ وهكذا إلى أن يدعو معهم عند التوديع قائلا :

« اللهم إنا قد تركنا راحتنا من أجل راحة عبادك الضالين عن هديك، وعن صراطك المستقيم، اللهم يسر لنا، ما يسرته لأصفيائك، وأوليائك، ورسلك، وأنبيائك .... واجعلنا من المحافظين على عهدك وودك، ولا تحل بيننا وبين السعي إلى ما يرضينا ويرضيك، اللهم تقبل أعمالنا خالصة لك دون غيرك، وجنبنا حظوظ نفوسنا، ولا تحاسبنا بما فعل السفهاء منا، يا ودود! وارحمنا برحمتك الدائمة ... فأنت الرحيم وأنت المستعان»[1]

❖ ❖ ❖ ❖ ❖ ❖

وكما جاد الله على الشيخ بكل هذه العيون المتفجرة من سر الملكوت يأبى إلا أنْ ينشد أبياتاً في غاية الجودة تلخص توجهه المتفائل لإخراج الخلق من ضيق النفوس ووقع الأحداث والفتن عليها إلى سعة الإيمان واليقين وانتظار الفرج والانتصار على دواعي التفرقة والشتات والتجزئة والهوان والضعف المادي والروحي قائلا :

---

[1] - نفسه 151-152.

لله في الخلـق مـا اختـارت مشيئته ... مـا الخيـر إلا الـذي يختـاره الله
إذا قضـى الله ، فاستسلـم لقـدرته ... فليـس مـن حيلـة فيمـا قضـى الله
تجـري الأمـور لأسبـاب لهـا علـل ... تجـري الأمـور ، علـى مـا قـدر الله
يـا صـاحب الهـم ! إن الهـم منفـرج ... أبشـر بخيـر ، فـإن الفـارج الله
تـا الله ! مـا لـك غيـر الله مـن أحـد ... ولا يصيبـك إلا مـا قضـى الله
اليـأس يقطـع أحيـانـا بصاحبـه ... لا تيـأسـن ، فـإن الصـانع الله
إن ابتليـت ، فثـق بـالله وارض بـه ... إن الـذي يكشـف البلـوى ، هـو الله
الله لـي عـدة فـي كـل نـازلة ... أقـول فـي كـل شـيء ، حسبي الله

والنموذج السادس: الفتوة في شكل مشروع حضـــاري دفاعي عن الوجــود والحدود عند الشيخ عبد القادر الجيلاني أستاذ الجميــع ورائد أهــل السنة والجماعة في نشر أخلاق الفتــوة في الآفاق والأقطــار حياته وبعد وفاته في مدارس ونماذج ورجالات حملوا مشروعــه إلــى النــاس

❖ **الفتى الغريب الأطوار عبد القادر الجيلاني على خطى تجربة وتعاليم الإمام الغزالي :**

كان من آثار مدرسة الغزالي في آفاق الدولة العباسية ونفوذها وخارجها نهضة شاملة في الأفكار والسلوك والمؤسسات والقادة والأفراد ؛ وذلك باستلهام روح منهاج الغزالي التكاملي والنقدي الشامل الأصيل والإسلامي الطابع والروح ، والذي تكاملت فيه ميادين :

- العقيدة
- والتزكية
- والفقه

فتضافرت جهود العاملين لمعالجة الأمراض التي جسدها نقد الغزالي سواء في المجال الفكري أو النفسي والتي ضربت المجتمعات الإسلامية آنذاك ، فأفرزت مضاعفات خطيرة على السياسة والاجتماع والثقافة والاقتصاد والعسكرية.[1]

❖ **فروع المدرسة النظامية الغزالية في العاصمة والامصار تنشر الفكر الجديد وتهيء الفتيان الجدد والعامة للمهمات التاريخية المنتظرة إنقاذا للأمة وللأرض المهددة.**

انقسمت فروع المدرسة النظامية المتأثرة بالفكر الجديد للغزالي إلى قسمين متخصصين :

[1] – تفصيلات هذه المرحلة عند دكتور ماجد عرسان الكيلاني : هكذا ظهر جيل صلاح الدين وهكذا عادت القدس ص ص 99 – 197، ط المعهد العالمي للفكر الإسلامي فيرجينيا، الولايات المتحدة، 1995/1416.

- أحدهما في العواصم الكبرى لتخريج الفتيان النابهين للقيادة التربوية والسياسة الاجتماعية.

- والثاني لتربية العامة من الفلاحين الأكراد والبدو وعوام الأحياء الشعبية في المدن ليعتنوا بالناشئة على ضوء تعاليم الحركة الإصلاحية الجديدة، وليحولوا ولاءهم لأفكار القادة الجدد المصلحين بدلا من الخضوع التام للفكر السكوني السائد في الخضوع والطاعة للمواقع والراكد على جميع الأصعدة، فوجد الناس في هذه المدارس فكرا جديدا ونفسا قويا للانفكاك من الركود والخضوع للواقع الساكن بشكل دفعهم إلى الإكثار من هذه المدارس الجديدة أساسا بعيد المدى لإنشاء جيل جديد مغاير![1].

❖ الفتى الشريف النسب عبد القادر في خطى الغزالي في الانتقال من فارس إلى العراق استكمالا واكتشافا للذات في بوتقة العاصمة التي تمور بالأحداث مورا :

كما انتقل أبو حامد الغزالي من « طوس» الفارسية إلى العاصمة بغداد ليستكمل المسيرة العلمية والتربوية وليخرج بمشروعه الشمولي كذلك كتب للفتى المراهق الشريف النسب عبد القادر بن أبي صالح موسى جنكي دوست الذي يرتفع نسب والده وكذا نسب والدته إلى كل من الحسن والحسين بن علي بن أبي طالب كما يحمل اجداده صفات الاستقلال ومحاولة الاستقلال عن الدولة المركزة حيث أقام أحدهم بتأسيس دولة علوية «بطبرستان» ضمت جيلان بلدة عبد القادر حتى قضى عليها السامانيون سنة 214هـ/926 م[2].

---

[1] - المرجع آنف الذكر ص 202. نقله المرجع آنف الذكر عنه.

[2] - ابن الأثير الكامل 7/ 130 - 131.

❖ إرث عبد القادر المعنوي من أسرته الشريفة الزاهدة السلوك والمتصفة بالصلاح وسط جيلان :

ورث الصبي عبد القادر بن ابي صالح موسى جنكي دوست من والده الذي توفي مبكرا ومن والدته فاطمة أم الخير بنت ابي عبد الله الصومعي الحسيني صفات الزهد والصلاح والمكانة الخاصة بين أهل مدينة جيلان وكذا من عمته أم عائشة نفس الصفات ومن جده لوالدته الشيخ أبي عبد الله الصومعي وهو من زهاد جيلان المشهورين، هذه الهالة التي جعلت أهل جيلان يسترشدون بهم في شؤونهم وأحوالهم.[1]

فكان موت والده المبكر فرصة لجده لأمه : الصومعي ليشرف عليه تربويا، فيطبعه بطابع الزهد حتى نسب إليه، فعرف بسبط أبي عبد الله الصومعي[2]، بالإضافة إلى ما تلقاه من كتاتيب جيلان منذ ولادته 1077/470 إلى حين بلوغه الثامنة عشرة عام 1095/488م .

❖ الفتى عبد القادر بن موسى جنكي دوست يتشبع بروح أسرته وكرامات جده ووالدته وجدته ليتشوف إلى علوم العاصمة وجوها المليئ بالعطاء العلمي رغم الاضطراب السياسي والاجتماعي والثقافي بها

قدم الفتى عبد القادر بن موسى جنكي دوست، مزودا بدعوات والدته ومساعدتها المادية القليلة ونصائح جده ووالدته، يلزمه الصدق والصراحة على كل حال إلى بيئة محتاجة إلى كثير من أخلاق الالتواء والنفاق والمجاملات إذا أراد الطالب أن يسلك الطريق الأقل صعوبة في الاندماج بها.

---

[1] – ابن العماد شذرات الذهب 199/4 والشعراني في الطبقات 140/1 واليافعي في مرآة الجنان 356/3.

[2] – ابن فضل الله العمري : مسالك الأبصار 5/ق1 ص 5. نقله عنه المرجع آنف الذكـر.

● <u>وكانت بغداد تمور بالفتن السياسية</u> والتناحر بين السلاطين المتحكمين في القرار التنفيذي، مما أتاح للجند استغلال هذا الجو لمصادرة الأموال ونهب المتاجر واستباحة سواد العراق وفلاحيه، حتى ذاق الناس آلام الجوع والخوف! يضاف إليه ما أشاعه الباطنية من الذعر وما عمدوا إليه من الاغتيالات، حتى وصل الامر إلى اغتيال الوزيرين: "بركيا روق" و "فخر الملك بن نظام الملك"، فإذا أضيف إليه ما عرفته العاصمة من تمرد "العيارين" واحتلالهم بغداد في فتوة متمردة مستعصية على السلطة وبين أعوام 490 – 510 شاهد الطالب عبد القادر بنفسه منها هذه الخصومات والأعمال، وكذا التعصبات المستمرة بين السنة والشيعة[1].

❖ <u>الطالب عبد القادر القادم من بيئة سليمة فطرية ومن أسرة شريفة زاهدة يلتزم بالصدق والزهد والإقبال على العلم مهما كلفه ذلك من شطف ومشقة، حتى لا يذوب في هذا الخضم من الصراعات والأطماع واللذات</u>:

استعصم عبد القادر وزهد في لذات أسواق بغداد المليئة بكل ألوان الطعام والشراب، وهو يرسم لنفسه حياة الزهد والاقتصاد ويشعر بعجز أسرته عن النفقات الزائدة فاكتفى بالقليل، وهو يتذكر ان والده لما توفي لم يترك للأسرة إلا ثمانين دينارا ناله منها النصف على سبيل التزود بها، فكان لا يزيد غذاؤه في اليوم ببغداد عن رغيف وقبضة من الرشاد[2] بانتظار أن يصله شيء![3].

ولحسن الحظ فقد كانت بغداد تعج بكبار المتخصصين في المدارس والمجالس والمساجد في تنافس بين ذوي السلطة والنخب على الإنفاق على هذه

[1] – ابن الجوزي: المنتظم 141/9، 148، 216، 221.

[2] – الرشاد أو حب الرشاد أحمر اللون مستطيل رقيق فيه حلاوة ممزوجة بشيء من المرارة.

[3] – ابن رجب، الذيل على طبقات الحنابلة 298/1. نقله عنه مجيد عرسان آنف الذكر.

المراكز، يضاف إلى ذلك نخبة الصوفية الجنيدية الناشطين في دعم التصوف السني أمام الاتجاهات المنحرفة.

❖ **الطالب عبد القادر يقبل على العلم النافع وعلى الزهد وأهله بكليته بعيدا عن السقوط في حمأة النفاق الاجتماعي الذي سقط فيه الكثير من طلاب وفقهاء العصر.**

عاش عبد القادر تجارب مرة والتقط من خلالها، رغم مرارتها، أفضل ما في بيئة بغداد من عناصر علمية وسلوكية ومذهبية، وكان من حسن حظه الجمع بين زبدة العلوم وزبدة التصوف والزهد والمزج بينهما في مركب جديد أنشأ به بعد ذلك مدرسة تربوية واتجاها في تكوين الطلاب والقادة من جهة، وفي توجيه الخاصة نحو الاستقامة والإقبال على إصلاح الذات والأسرة من جهة أخرى.

● **وهكذا درس الفقه الحنبلي وأحكم الأصول والفروع والخلاف**، وانغمس في ثنايا الكتاب العزيز، والإعجاز، والآداب، كما اطلع على الأفكار والآراء الاعتقادية التي تتصارع في الميدان، الأمر الذي أتاح له ان يبرز في ميدان جامع لهذه الخبرات كلها، في نفس جديد وإبداع متجدد، وهو ميدان الوعظ والإرشاد، الجامع بين الطبقات كلها وبين مختلف العقليات؛ وقد جمع الطلاب دروسه في الوعظ في " مجاميع " أصبحت دستورا لتقويم الأخلاق وعلاج النفوس[1].

---

[1] – **من أشهرها " الفتح الرباني والفيض الرحماني" و "الغنية لطالبي الحق" و"فتوح الغيب" ويواقيت الحكم" و"المواهب الرحمانية" و"بهجة الأسرار" و"كيمياء السعادة" وغيرها كثير تكون مكتبة في الوعظ والسلوك والحكمة والفقه والتفسير والعقائد والفتاوى والوصايا وجملة منها مطبوعة طباعة شعبية!!**

● **وساعده على الوصول إلى هذا المركب الكيميائي الجديد، الجامع بين الفقه الحنبلي وتجربة السلوك الزهدي، ما عرفه على يد شيخيه "حماد الدباس" ثم "أبي سعد المخرِّمي"** من أخذه له بقوة وحزم لسلوك طريق المجاهدة التي لا يستطيعها إلا الفحول، حتى استطاع أن يخلف بعد ذلك شيخه المخرمي في مدرسته[1].

❖ **الأستاذ القدوة والواعظ المؤثر عبد القادر يتجاوز الواقع المفروض في بغداد إلى إنشاء جيل جديد ومدرسة جديدة ناهضة ومغيرة من أثر تربية شيوخه من جهة وأثر النهضة الجديدة التي نشرها الغزالي بمجموعة رسائله وكتبه ونقده الجذري :**

● كان في طبع عبد القادر، ولا يزال، نفور من النفاق والتظاهر والشكليات، وغوص في أعماق التجربة الوجودية الروحية وممارسة التحكم في النفس ورغبات الجسد بدون حدود، حتى صفت نفسه من الكدورات، وفتحت له أبواب من الإبداع الروحي والتربوي والسلوكي في الخلق عامة والطلاب خاصة، وكان مما عزز ذلك اكتشافه وسط هذا الشغب الفكري والسلوكي ينابيع الحقيقة بواسطة ثلاثة من الشيوخ جمعوا بين العلم والتزكية ذكرنا منهم كلا من :

- **حماد الدباس**: كان أميا ومع ذلك شهد له أمثال الذهبي وابن عبد الحليم بالمعرفة والاستقامة وزاول أكثر المهن في طلب الحلال.
- **وأبي سعيد المخرمي** : شيخ الحنابلة تفقه بابي يعلى وبنى مدرسة باب الأزج[2] وكان نزيها عفيفا ذا أعمال خيرية.

---

[1] – ماجد عرسان : نشأة القادرية 62 – 65.

[2] – الإسم الأول لموقع المدرسة القادرية والمسماة بباب الشيخ نسبة إليه. والأزَج هو الممر الذي يبنى طولاً وهو بفتح الزاي جمعه آزاج.

- **يضاف إليهم شيخه في الفقه** الحنبلي علي بن عقيل شيخ الحنابلة في زمنه، وكان شيوخه ينفرون من الثقافة السائدة بين فقهاء عصرهم ونخبتها، حيث إن الثقة بهؤلاء الفقهاء خيبة كبرى والغنى بهم إفلاس، وانه لا ينبغي أن يعول على غير الله[1] وهكذا وصف عبد القادر غير ما مرة هؤلاء "بقطاع الطرق" يمنعون الناس من الله[2].

● أما المؤثر الثاني فيتعلق بالإرث الذي عاصره عبد القادر من تجارب الإمام الحجة أبي حامد الذي عاصره أواخر عطائه وتأثر به طيلة أعوامه السبعة عشر و هو في بغداد قبل وفاة الغزالي عام 505، ويدل لذلك نقله عنه ابوابا من الإحياء في مدونته الوعظية«الغنية لطالبي الحق » وهو على نسق الإحياء كما تشابهت حياة عبد القادر في «السياحة » و الزهد مع بتجربة الغزالي الأخيرة طيلة عشر سنوات، قبل ان يجلس للتدريس و الوعظ ؛ في مبدإ تربوي من الانسحاب من المجتمع للنظر إليه من خارجه لاكتشاف ايجابياته وسلبياته، وللعودة إليه بنظرة جديدة ومنهج جديد! وهو ما فعله الغزالي حين قام بسياحته في الشام والحجاز[3].

فكانت المراحل التي مر منها الجيلاني قريبة الشبه بالمراحل التي مر منها أبوحامد في إدراكهما إفلاس العلم الظاهر دون التوغل في أعماقه وفي بحثهما عن شيخ روحي متبوع وفي بحثهما عن الاستقلال بعد الاكتمال في تجربة جامعة متكاملة بعيدا عن خصومات المتكلمين و الفقهاء في عصرهما الشاغلة للأمة عن رؤية المخاطر الكبرى الحالة والقادمة والمهددة للكيان كله!

---

[1] – هكذا ظهر جيل صلاح الدين 209.

[2] – عبد القادر الجيلاني : الفتح الرباني 173.

[3] – نفس المرجع آنف الذكر ص210.

قرن من الفتوة المتكاملة والتجديد الشامل في مدارس الشيخ الفتى الصفات عبد القادر الجيلاني وتلامذته وجمهوره ومدارسه الممتدة عبر القارات وفي المستقبل بعد وفاته

شملت النهضة الجيلانية القادرية في الآفاق ميادين طالما ألح عليها الغزالي وأنشأ في نقد سلبياتها عبر يقظة علمية وروحية وبناء منظومة من المفاهيم والمقولات جاءت مفصلة في رسائله و كتبه و تدريسه ومواقفه الوجودية واجتهاداته لتجاوز نفسه والإطار العلمي و المؤسسي الذي وصل إليه بواسطة أعلى منصب علمي رئيسا للمدارس النظامية و مشرفا على مناهجها و برامجها وأطرها ومقرراتها وخريجيها.

❖ **وهكذا توخى عبد القادر الناحية العملية التوجيهية الوعظية والمدرسية لينشئ أجيالا من القيادات الفكرية والتربوية ونماذج سلوكية تترجم هذه التعليمات إلى سلوكات عملية شملت القطاعات الآتية:**

❖ **قطاع التربية والتعليم في مؤسستين** : مدرسة ورباط داخلي للطلاب وبمنهج شامل للجوانب العلمية والروحية والاجتماعية لتخريج فتيان المهمات الصعبة وقادة الشأن العام لمواجهة الأخطار الأجنبية الجرافة على حدود أمة الإسلام.

❖ <u>المدرسـة القادريـة</u> : وفـق الله عامـة بغـداد ونخبهـا إلى تمويـل مؤسسـتي الجيلاني وتوسيع مساحتهما في صور من البذل والعطاء أسهمت فيهما المرأة ولـو مع فقرها وقلة ذات يدها في قصة تروى[1]

فأصـبحت بعـد اكتمالهـا سـنة 528 هــ / 1133 م تمـارس بإشـرافه وتدريسه مختلف العلوم والمستويات في صبر الأنبياء والأولياء طيلة ثلاثـة وثلاثـين سنة (528 – 561) إلى حين وفاته، يصف نشاطها المستمر ابن قدامة المقدسي سـنة 561 وهـي سـنة وفـاة الشيخ يقـول : « دخلنـا بغـداد سـنة إحـدى وسـتين وخمسمائة، فإذا بالشيخ عبد القادر ممن انتهت إليه الرئاسة بهـا : علمـا وعمـلا، وحالا، واستفتاء!

وكـان يكفـي طالـب العـلم عـن قصـد غيره مـن كثرة مـا اجتمـع فيه مـن العلوم! والصبر على المشتغلين، وسعة الصدر، وكان ملء العين، وجمع الله فيـه أوصافا جميلة وأحوالا عزيزة،. ما رأيت بعده مثله»[2]

❖ <u>الإعداد العلمي للأطر الكفؤة ذات المستويات المتعددة بإشراف الشيخ المباشر، حيث راعى الشيخ الجيلاني مستويات وأعمـار ومواهـب المقبلين علـى التعلم، فقسمهم بحسب ذلك إلى ثلاث طبقات</u> :

<u>أولا</u> : طبقة العامة والكبار والعارفين من الطلاب، ممن يقصدون تصـحيح العبادة والاعتقاد، حيث يدرسهم الشيخ تبعا لذلك عقيـدة السنة وفقـه العبـادات كما يظهر ذلك كتابه " الغنية لطالبي طريق الحق " وهو على نمـط الإحيـاء للغزالـي مع الاختصار في التحليل وطلب الخلاصات.

[1] – ابن رجب طبقات الحنابلة 1 /391.

[2] – ابن رجب 1/293-294.

ثانيا : طبقة المبتدئين من الطلاب الذين كرس لهم الشيخ معظم أوقاته بالمدرسة لا يخرج منها إلا يوم الجمعة للمسجد أو الرباط[1] يعدهم الشيخ إعدادًا مطولا في نحو ثلاثة عشر علما من علوم الآلة والشريعة! ولا يستثني من ذلك إلا علم الكلام والفلسفة لموقف الغزالي قبله من هذين العلمين اللذين أفسد بهما المتعاطون الجو التربوي كله بسبب تسخيرهما في استغلال الشبوب والزج به نحو التطرف والتخريب الإسماعيليين والشكلية.

ثالثا : طبقة النابهين المميزين من الدارسين المعدين لممارسة وظائف التوجيه والإرشاد والوعظ والخطابة والتدريس في تداريب مستمرة مكثفة[2].

❖ **الإعداد التربوي والروحي للطالب المريد عن طريق التخلية والتحلية لاكتساب أعلى صفات الفتوة المتفانية في خدمة الخلق بدون أنانية .**

وكان الشيخ ينقل الطالب المريد إلى مقامات الفتوة العليا عن طريق مجاهدة النفس في الأقوال والأفعال والمعاملة والتحكم في الرغبات! حتى يصل إلى رتبة التواضع للخلق فيصير فتى حقا راضيا في جميع أحواله !وذلك بالتخلي والتحلي في هذه الأمور :

1- اجتناب **الحلف** مطلقا فينفتح له باب من الأنوار يدرك أثره في قلبه ويمنحه الرفعة والكرامة عند الله والناس.

2 - ثم اجتناب **الكذب مطلقا**، فيشرح الله صدره ويصفو علمه ويصير حاله كله صدقا يظهر أثره عليه.

---

[1] – سبط ابن الجوزي: مرآة الزمان 264/8.

[2] – ماجد عرسان الكيلاني 216 –217.

3- ثم **الوفاء بالعهود** مع ترك الوعود أصلا لأنه أضمن من الوقوع في الحلف والكذب فيفتح له باب السخاء والحياء ويعطي مودة في الخلق.

4- **ثم اجتناب لعن شيء من المخلوقات** وعدم إيذاء درة فما فوقها وذلك من أخلاق الأبرار والصديقين، وثمرته الحفظ من مصارع الهلاك والسلامة ويورث محبة العباد مع مواهب ربانية من رفع الدرجات والقربى إليه.

5- ثم أن يجتنب الدعاء على أحد وإن ظلمه! فلا يقابله بقول ولا فعل!! فيرتفع في عين الله وينال محبة الخلق جميعا.

6- ثم ألا يشهد على أحد من أهل القبلة بشرك أو كفر أو نفاق لأن ذلك أقرب إلى الرحمة وأخلاق السنة وأبعد من ادعاء العلم وأقرب إلى رضى الرب، وهو باب شريف يورث العبد رحمة الخلق أجمعين.

7- ثم أن يجتنب النظر إلى المعاصي وان يكف جوارحه عنها لأنه أسرع في ترقية النفس إلى مقامات أعلى، ومؤد إلى سهولة استعمال الجوارح في الطاعة.

8- ثم بعد ذلك يجتنب الاعتماد على الخلق في حاجة صغرت أم كبرت! وهو تمام العزة للعابدين وشرف للمتقين، وبه يقوى على الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، والاستغناء بالله والثقة به وبعطائه! فيصير الخلق عنده في الحق سواء، وهو أقرب بذلك إلى الإخلاص.

9- ثم بعد ذلك يقطع طمعه من الآدميين، وهو بذلك يصل إلى الغنى الخالص والعز الأكبر والتوكل الصحيح ويدخل في أعظم أبواب الزهد وينال الورع المطلوب.

10- ثم يترقي أخيرا إلى تمام التواضع فتعلو منزلته بألا يلقى احدا من الناس إلا ويرى له الفضل عليه! فإن كان صغيرا فهو أفضل منه بعدم التكليف واقتراف المعصية، وإن كان كبيرا فهو قد سبقه إلى عبادة الله قبله، وإن كان عالما اعتقد فيه من أثر العلم ما ليس يبالغه هو! وإن كان جاهلا اعتبره عاصيا لله بجهل بينما هو يعصي الله بعلم ولا يدري بم يختم الله عليه! وهو باب من أبواب الشفقة والوجل[1].

❖ <u>الإعداد الاجتماعي والفتوة والخدمة</u> :

يتحدث أحد الذين تخرجوا في مؤسستي الشيخ عبد القادر الجيلاني : المدرسة والرباط، عن الدور الاجتماعي للرباط الذي خصصه الشيخ إلى جانب المدرسة العمومية لمجموعة من المستقرين الساكنين به من مختلف الأعمار ومختلف التخصصات :

أ – ما بين أصحاب خدمة من المبتدئين.

ب – ومتفرغين للعبادة شريطة ألا يضر هذا التفرغ ببقية واجباتهم.

ج- وشباب ملتزم ببرامج خالية من اللغو واللغط[2]

بحيث يكمل الرباط دور المدرسة النظري بالسلوك المثالي المراد إشاعته ما بين الأطراف كلها: الشيخ، والمريدين، والمجتمع الداخلي، والمجتمع الخارجي.

● <u>وتبتدئ هذه العلاقة الاجتماعية بالشيخ</u>: طاعة في الظاهر والباطن وأن لا ينقطع عنه[3] وأن يستشيره في جميع اموره، وعلى الشيخ أن يعامل المريد

---

[1] – عبد القادر الجيلاني : فتوح الغيب 171 – 174 والغزالي في الهداية 34.

[2] – عوارف المعارف 107-110.

[3] – الغنية 143.

بالحكمة والشفقة والتأديب! وان يكون ملجأ وسندا وراعيا، فإذا لم تتوفر هذه الشروط في الشيخ فمن الأفضل البحث عن شيخ آخر ليكمل المريد.[1].

● وتستمر هذه العلاقة الاجتماعية بين المريدين بالحرص على الآداب ودقائق :

1- السلوك اليومي في اللباس والزينة.

2- والطعام والشراب.

3- والنوم والجلوس والسير والدخول والخروج.

● والتعامل فيما بينهم على أساس الفتوة والإيثار: وذلك :

- بخدمة الآخرين في جميع حالاتهم وقضاء حاجاتهم.

- وألا يرى لنفسه على احد منهم حقا وألا يطالب أحدا منهم بذلك.

- وأن يظهر الموافقة لهم في جميع الأقوال والأفعال.

- وأن يتأول مخالفاتهم، ملتمسا لهم الأعذار، دون منافرة أو جدال، متعاميا عن عيوبهم حتى يجعل نفسه أقل رتبة!

- وأن يتجنب، لذلك، فعل ما يكرهون، مع حفظ مودتهم والحرص على عدم إغضابهم.

- وألا يحقد مع ذلك على أحد منهم، وأن يتودد لمن أحسن منه بنفور حتى يزول ذلك!

- مع الحرص على وصلهم والإحسان إليهم ويحس بأنه قد ذاب فيهم.

- ومن تمام ذلك عدم اغتيابهم، بل وبالأحرى إيذائهم.

---

[1] - الفتح الرباني 232.

- فإذا كان غنيا آثر فقراءهم على نفسه في كل شيء دون أن يرى ذلك منه فضلا ومنة، بل يشكر اله الذي جعله أهلا لخدمتهم، لان ذلك هو الطريق الأقرب لأن يحبه أهل الله وخاصته، فيرتقي بالصبر والخدمة سريعا.

- ومن تمام الخدمة بذل الماعون والأدوات ورد المستعار واعتبار ما في يده ملكا لهم وما في يدهم في ملكهم ملتزما فيه بالشرع والآداب.

- ومن تمام الخدمة ألا يكثر النوافل بين أيديهم وألا يشغلهم بأمور الدنيا.

ولا شك أن هذه التدريبات الاجتماعية ستؤهله استقبالا لخدمة الخلق أينما حل وارتحل، فيصبح محبوبا مقبولا عند الناس وعند الله ويربح سريعا في طريق التجارة مع الله أضعافا مضاعفة[1].

● أما التعامل مع المجتمع أثناء ذلك وبعد ذلك، وهو الميدان التطبيقي لما مارسه نظريا وعمليا في المدرسة والزاوية، وقد وضع الشيخ للمريد في ذلك آدابا وضوابط فيها قصد لتمام الفتوة بالخدمة.

1- أن يوالي الخلق بقلبه بحسب طاعاتهم لله لا بحسب الهوى.

2- وأن يحرص على عدم مخالطة المقصرين لئلا يعدوه بهذا السلوك.

3- وأن ينفر من البطالة والبطالين.

4- وأن لا يعتاد العيش على هبات الناس وسؤالهم فتذل نفسه ويفقد القدرة على كمال الفتوة بعدم الاستغناء عن الخلق.

5- لذلك عليه بالكسب والتجارة مع مراعاة قواعد الأخلاق في ذلك.

6- فإذا فعل ذلك فعليه بالشفقة على الخلق والرحمة.

---

[1] - المرجع آنف الذكر 222 – 223.

7- وأن يتحمل سوء أخلاقهم.

8- وبالتالي يكتم ذلك فلا يستغيبهم ولا يتتبع عوراتهم.

9- وأن يصلي أربع ركعات يجعل ثوابها لمن خاصمه منهم آملا أن يكفيه الله أمره يوم القيامة.

10- وإذا كان له زوجة وأبناء ووالد ووالدة فليعاملهم بالحسنى والمودة والعناية والرعاية.

11- وليحرص على ألا يضعف أمام الأغنياء وان يظهر العزة لهم فلا يتملقهم ولا يحقد عليهم في الوقت نفسه وأن يحسن الظن بهم دون ان يظهر التعالي عليهم والكبرياء.

12- وليصحب الفقراء والمساكين في تواضع وسخاء، حتى تتم له أعظم مكارم الفتوة المحمدية المصطفوية في أقصر مدة، وبالتدريب على هذه الدرجات شيئا فشيئا وخطوة خطوة، وكلما تقدم في خطوة حرص على استصحاب ما قبلها واستدماجها حتى يدفعه ذلك كلما تراكم إلى أعالي المنازل في السير[1].

❖ قطاع الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر : أو نهوض المريد الكامل برسالة الإصلاح في جميع الميادين :

رغم تفرغ الشيخ للتربية والتعليم والتنشئة البطيئة للقادة والشباب الفتي في كل من المدرسة والرباط كما تقدم وبمنهج متعدد الجوانب والاختصاصات :

---

[1] - نفس المرجع 222 – 223.

شامل للعقل والوجدان والممارسة الحركية والعبادة والذكر والخدمة، فقد اتجه في منهجه التكاملي إلى عامة المجتمع بمختلف فئاته في لقاءات أسبوعية ثلاث مرات :

- إحداها في صباح الجمعة بالمدرسة.
- والثاني في مساء الثلاثاء بنفس المكان.
- والثالث في صباح الأحد بالرباط.

❖ **المواعظ الموقظة الشاملة لعبد القادر تتجه إلى فئات الجمهور نخبة أو عامة! وتمس جميع ميادين الضعف النفسي والاجتماعي والسياسي في أساليب مخترعة وعبارات مسبوكة تحفظ وتكتب، وإلقاء حماسي نابع من القلب، في عمليات جراحية عظيمة الأثر في استعادة العافية للجسم الإسلامي المتدهور :**

● اختراق عبد القادر أعماق قلوب الناس وفك رقابهم من إسار نفوسهم وشهوات النقد والانتقاد فيهم، غير منتظر منهم جزاء ولا شكورا، بقول متجردا من كل شيء:

« سبحان من ألقى في قلبي نصح الخلق وجعله أكبر همي!

وإني ناصح، ولا أريد من ذلك جزاء!

آخرتي قد حصلت لي عند ربي عز وجل!

وما أنا بطالب دنيا، ما أنا عبد الدنيا ولا الآخرة! ولا سوى الحق عز وجل!

فرحي بفلاحكم! وغمي لصلاحكم!

إذا رأيت وجه مريد صادق قد أفلح على يدي شبعت وارتويت واكتسيت! وفرحت! كيف خرج تحت يدي!»[1].

---

[1] – عبد القادر الجيلاني : الفتح الرباني 27.

❖ استنفار همم الخلق إلى مشروع إعادة بناء ما انهدم من حيطان الدين :

ألقى الشيخ بمشروعه في قلوب الكافة وأوضح لهم الخطر واستنفرهم للخدمة فقال : « دين محمد صلى الله عليه وسلم- تتواقع حيطانه ، ويتناثر أساسه !

هلموا يا أهل الأرض !
نشيد ما تهدم ، ونقيم ما وقع !
هذا شيء ما يتم ! ! ! !
يا شمس
ويا قمر
ويا نهار !
تعالوا »[1]
« إقبالي عليكم لله !
وأخذي منكم لله !
لو أمكنني دخلت مع كل منكم القبر!
وجاوبت عنه منكرا ونكيرا
رحمة وشفقت عليكم»[2].

[1] – الفتح الرباني 90.
[2] – الفتح الرباني 297.

● تنفير العامة والطلاب من الاغترار بالمظاهر العلمية والتدين المصنوع :

شعر عبد القادر بامتلاء الجو بالمواعظ المصنوعة الشكلية المظهرية وما تحتها من شهوات نفوس ورغبات قلوب في ما عند الخلق والسلطان، فما كان منه إلا أن أخلُص النصح للطلاب بالابتعاد عن هذا النمط، إذ يقول لهم في إحدى مواعظه :

- « يا غلام !

لا تغتر بهؤلاء العلماء!

الجهال بالله عز وجل !

كل علمهم عليهم ! لا لهم !

هم علماء بحكم الله عز وجل !

جهال بالله عز وجل !

وهم يفرون منه !

يبارزونه بمعاصيهم وزلاتهم !

أسماؤهم عندي !

مؤرخة !

مكتوبة !

معدودة !»(1)

- وفي التفاتة إلى الجمهور والكافة يقول محذرا من هؤلاء المتظاهرين بالتدين :

[1] - الفتح الرباني 46.

« يا عباد الله !

لا تسمعوا من هؤلاء الدين يفرحون أنفسكم؟

يذلون للملوك !

ويصيرون بين أيديهم كالذر ! (أي النمل الصغير)

لا يأمرونهم بأمره !

ولا ينهونهم عن نهيه !

إن فعلوا ذلك فعلوه تكلفا !

طهر الله الأرض منهم !

ومن كل منافق !

أو يتوب عليهم ويهديهم إلى بابه !

إني أغار إذا سمعت واحدا يقول :

الله ! الله ! وهو يرى غيره !»[1]

● تحدي علماء السوء رغم قوتهم جعل المخلصين منهم يقبلون عليه أخيرا بعد أن سمعوا المقارع المقرعة والدعوات القاصمة للنفاق ! !

دخل عبد القادر في صراع حاسم مع العلماء الخائفين من إصلاحاته الجذرية ! فشن عليهم ما أوغر صدور الحاقدين عليه ، وجعل المخلصين يراجعون أنفسهم فيسكتون أو يقبلون عليه وذلك كقوله :

« يا عالم !

كلامك من لسانك ! لا من قلبك !

---

[1] - الفتح الرباني 245.

اللهم سلطني على رؤوسهم حتى أطهر الأرض منهم.

كيف تبنون وليست لكم صنعة البناء ولا آلته !؟

يا جهال ! ابنوا حيطان دينكم !

ثم تفرغوا لبناء غيركم !

لا تبغوا فإن الله غالب على أمره!

اجتهد إخوة يوسف على قتله فلم يقدروا ...

تريدون أن تهلكوني !؟

لا كرامة لكم !

أيديكم تقصر عن ذلك»[1]

● <u>عبد القادر ينتقد عبادة السلطة والشرك الخفي في تعظيم الجاه قصد إخراج الخلق من هذا الجحر الذي يقع فيه أغلب الخلق، فقال مما قال</u> :

« صارت الملوك لكثير من الخلق آلهة ! !

فقد صارت الدنيا والغنى والعافية والحول والقوى آلهة!

ويحكم ! !

جعلتم الفرع أصلا ؟

المرزوق رازقا !

المملوك مالكا !

الفقير غنيا !

العاجز قويا !

[1] - الفتح الرباني 87.

الميت حيا !

إذا عظمت جبابرة الدنيا وفراعينها وملوكها وأغنياءها !

ونسيت الله عز وجل ولم تعظمه

فحكمك حكم من عبد الأصنام ...

يصير من عظمت صنمك !»[1].

● <u>رجال السلطة يهابون عبد القادر الذي يخاف الله ولا يخاف منهم، فيستجيبون لمواعظه وانتقاداته</u> :

حرص الشيخ على البقاء بعيدا عن مواطن الشبهات والشهوات، فكان يقطع كل صلة مشبوهة مع حاكم أو مسؤول، حتى إذا وردت له هدايا منهم تبرع بها مباشرة على الفقراء قبل أن تتناولها يده![2]

ووصل نقده أحيانا إلى الخليفة نفسه عندما ولى الخليفة العباسي المقتفي أحد المعروفين بالظلم القضاء! فما كان من الشيخ إلا أنه وجه إنذارا حاسما بعد توجيه الرسائل والشكاوى إليه وتعليقها في المساجد والشوارع، فقال للخليفة من على المنبر:

« وليت على المسلمين أظلم الظالمين! وما جوابك غدا عند رب العالمين»[3] فعزل الخليفة القاضي المشار إليه !

---

[1] – الفتح الرباني 246.

[2] – التادفي : قلائد الجواهر 19 – 20، نقله عنه المرجع آنف الذكر.

[3] – سبط ابن الجوزي، مرآة الزمان 265/8.

● <u>توجيه النقد اللاذع إلى التدين العامي المتصنع الرخيص</u> :

يفضح الشيخ هذه المظاهر المتصنعة التي هي مجرد رياء ونفاق بشدة إذ يقول في إحدى مواعظه :

« قد كثر من يصلي ويصوم ويحج ويزكي !

ويفعل أفعال الخير للخلق ! ! !

لا للخالق ! ! !

فقد صار معظم الناس بلا خالق !

كلكم موتى القلوب !

أحياء النفوس والأهوية ! ! !

طالبون للدنيا»[1].

● <u>انتقاد انغماس العامة في الدنيويات وانتقاد الآخرين وتصيد النقائص</u> :

رآى الشيخ من أمراض العامة الفضول والانتقاد والتظاهر بالذكاء والمعرفة بالسياسة والأحوال! وأن ذلك أمر يغطون به مساوئهم ويلفتون الأنظار عنهم! فكان يقرع آذانهم بمثل قوله :

« كل حديثكم في الغلاء والرخص !

وأحوال السلطان والأغنياء!

أكل فلان! لبس فلان! تزوج فلان! استغنى فلان! افتقر فلان!

كل هذا هوس، ومقت، وعقوبة!

توبوا واتركوا ذنوبكم!

---

[1] – الجيلاني : الفتح الرباني 9.

وارجعوا إلى ربكم دون غيره!

اذكروه !

وانسوا غيره!»[1].

● الدعوة لإنصاف الفقراء والعامة من الأغنياء والمسؤولين وضرب المثل بنفسه للفتيان في الإطعام والإنفاق عليهم وعلى الفقراء وابن السبيل:

وصل الشيخ إلى رتبة الخدمة والإنفاق بدون خشية من الفقر، ففتح أبوابه للفقراء، والغرباء،

وقدم الطعام والغذاء

والإقامة

والمال

وهو يرى أن هذا الأسلوب من أعظم الأعمال إذ يقول :

« فتشت الأعمال كلها

فما وجدت فيها أفضل من إطعام الطعام !

ولا أشرف من حسن الخلق !

أود لو كانت الدنيا بيدي

أطعمها الجائع

كفي مثقوبة

لا تضبط شيئا !

لو جاءني ألف دينار!

[1] - الفتح الرباني 241.

لم يبت عندي» [1]

● واعتبر الشيخ الغني الشحيح مجرد منتسب إلى الإسلام بدعوى كاذبة وذريعة إلى حقن دمه بمجرد النطق بالشهادتين، وهم يخصون أنفسهم بأطايب الأطعمة والمنازل وأحسن الكسوة والوجوه والأموال [2].

● <u>التصدي للتطرف والإرهاب الباطني المنحرف المخيف</u> :

تبعا للغزالي رحمه الله في كتابه " فضائح الباطنية " سار عبد القادر على نهج هذا الإمام، فشن النقد اللاذع المخلص على الأفكار المنحرفة المتسربة من التيارات الشيعية، وخاصة في مجالات " المهدوية " والموقف من الخلفاء الراشدين! ومع ذلك أقبل عليه من علماء الشيعة للمناقشة والاستفادة وخاصة من رأى الإخلاص والصدق في لهجته ومواقفه، وكذلك الإنصاف [3].

● <u>ومحاربة الخصومات المذهبية المزقة لجسم الجماعة</u> :

كان الشيخ حريصا على خلق الفتيان وصناعة الداعية الذي ينزه نفسه عن حمأة الخوض في الخصومات المذهبية والقضايا الاعتقادية الخلافية وكذلك القضايا الفروعية المذهبية :

- مستهلا ذلك ببعض الأمثلة من الواقع مثل تعصب الحنابلة في الموقف من لعب الشطرنجات والشافعية على خلاف ذلك، وتساهل الأحناف في النبيذ،

---

[1] - ابن فضل الله العمري: مسالك الأبصار 1/ق 1، ص 104. فيما نقله عنه المرجع آنف الذكر، وهذا حال الفتى أبي العباس آنف الذكر وهو اقتداء بالحبيب صلى الله عليه وسلم ولا يصل إلى ذلك إلا المستخلصون من أهل الله وما كان أحد منهم بخيلاً ! انظر سيرتهم في التشوف للتادلي وحقق غير مرة أخرى من طرف أحمد التوفيق.

[2] - الفتح الرباني 64 – 65.

[3] - ماجد عرسان آنف الذكر 237.

وأن الواجب على الواعظ ألا يتعرض لمثل هذه المآزق فيثير بذلك النقاش والخصومة المحبوبة إلى الناس حين يرون العلماء يتناوشون فيما بينهم[1].

- وترى الشيخ لذلك لا يتعصب مذهبيا ناظرا إلى هذا الواقع، فيفتي تارة من المذهب الحنبلي وأخرى من المذهب الشافعي حتى وصفه الإمام النووي رحمه الله بذلك فقال عنه « كان شيخ السادة الشافعية والسادة الحنابلة»[2]، واعتبره سبط ابن الجوزي الحنفي نموذجا للتقوى والكرامات العلية[3]، كما اعتبره الذهبي الشافعي قدوة العارفين[4] وهو عند ابن رجب الحنبلي شيخ العصر وقدوة العارفين وسلطان المشايخ[5] وعند ابن تيمية « من أعظم الناس لزوما للأمر والنهي، وتوصية باتباع ذلك مع المشي مع القدر»[6].

وبذلك اجتمع عليه اهل السنة والجماعة قاطبة لارتفاعه عن النزول إلى التعصب وإثارة الخلافات حتى وصفه ابن رجب بأنه :

« حصل له القبول التام، وانتصر اهل السنة بظهوره، وهابه الملوك فمن دونهم»[7].

---

[1] - الغنية 1/ 47 – 48.

[2] - ماجد عرسان الكيلاني آنف الذكر 238.

[3] - مرآة الزمان 8/ 264 – 265.

[4] - الذهبي العبر 175/4.

[5] - الذيل 290/1.

[6] - الفتاوى 369/8.

[7] - ذيل طبقات الحنابلة 1/ 291 – 292.

● **وتجديد حقول التصوف والتزكية :**

بالإضـافة إلى انتقـاد الشـيخ للمظـاهر التعبديـة عنـد متصـوفة العامـة وتظاهرهم بشعارات التصوف دون تعمق وان التصوف الحق لا يتحقق بتغيير الخرقة، وتصفير الوجوه، وجمع الاكتاف، ولقلقة اللسان، بحكايات الصالحين، وتحريك الأصابع بالتسبيح والتهليل، وإنما يجيء بالصدق في طلب الحق عز وجل والزهد في الدنيا، وإخراج الخلق من القلب، وتجريدهما عما سوى مولاه عز وجل [1].

كما شن الحملة على استغلال الأصوات الحسنة والصراخ والتظاهر بالتواجد؛ والفتى فارغ الأعماق تابع لكل ناعق وزاعق راكب لهواه مطيع لنفسه وطباعه، ليس له إلا مجرد الأشعار والأصوات والصراخ! [2]

فقد جدد الشيخ في كل من :

▪ تعميق التوحيد ونفي الشرك الأكبر الواقعة فيه معظم نفوس الخلق كما تقدم.

▪ وفي مفهوم دفع القدر بالقدر وعدم التواكل والاستسلام، فيدفع المريد قدر الشر بقدر الخير والكفر بالإيمان والبدعة بالسنة والمعصية بالطاعة والمرض بالدواء والجهل بالمعرفة والعدوان بالجهاد والفقر بالعمل.

ويصرح بأن الكثير من الناس إذا وصلوا إلى مسألة القضاء والقدر امسكوا يقول :

« إن كثيرا من الرجال إذا وصلوا إلى القضاء والقدر أمسكوا

---

[1] – الفتح الرباني 90.

[2] – الغنية 2 / 146.

إلا أنا ! وصلت إليه ! وفتح لي منه " روزنة " [1]

فأولجت فيها

ونازعت أقدار الحق بالحق للحق !

فالرجل هو :

المنازع للقدر

لا الموافق له !»[2].

وبذلك انتشل الجماهير من الاستسلام للقدرية السلبيين المستسلمين كالإسماعيلية والفاطميين وظلمة السلاطين وأصحاب الانحلال والمفاسد والمرتشين في عصره، لتستعد الأمة لصنع قدرها بنفسها ولتدفع عنها بعد ذلك عدوان العدو المتربص بالحدود بالجهاد، وذلك كان ابتداء من عصر صلاح الدين نتيجة لهذه التربية وخلاصتها ومعه الأجيال الجديدة الحاملة لهذا الفكر الإيجابي البناء وللمشروع الحضاري الكبير.

● وجدد مفهوم الإيمان حيث قرنه بالعمل الذي ينفي عن المومن النفاق والرياء بأن يتوجه المومن بعمله إلى الله وحده وأن الإيمان فاعل في الفرد والمجتمع، فلا يصح إيمان عبد جاره جائع[3] وبذلك أخرج الإيمان من دائرة الاعتقاد بمجرده والقول بمجرده لتظهر نتيجته في الميدان، وإلا فهو مجرد دعوى، وقد اتفق

---

[1] - الروزنة: الكوة معربة (انظر: وزن في المعجم).

[2] - فتاوى ابن تيمية 30/1.

[3] - الفتح الرباني 10. والحديث ورد فيه " ليس المومن الذي يشبع وجاره جائع إلى حينه " وهو عند الطبراني والبيهقي عن ابن عباس.

مع الغزالي رحمه الله في اعتبار الغني مجرد تاجر لصالح الفقير ومسخر للجميع في توفير الرزق[1].

● **وفي ميدان تجديد الإصلاح بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر** :

وضع الشيخ حدود وشروط الداعية حتى لا يتعرض كل من هب ودب لذلك، فاشترط العلم بالموضوع بتفصيل والعلم بتحقق المنكر والمجمع عليه والقدرة الكاملة على وجه لا يؤدي إلى فساد أعظم أو مساو وأن يكون معه في الصف إجماع من أهل الصلاح وعدالة من السلطان وإعانة من أهل الخير حتى لا يشذ وينحرف أو يضعف! مع التحلي بالعزيمة والصبر وعدم الخوف من أن يحل به الأذى حتى لا يذل نفسه او يتعرض لما لا يمكنه، كما في الحديث وان يصحب الإخلاص لله دون شهوة نفسية او بحث عن شهرة وإن كان عبد القادر والغزالي لم يصلا بهذه الوسيلة في حينها إلى الدعوة إلى النفير العام والجهاد العسكري وإن كان في مواعظه يحذر أهل بغداد من سوط الله الزاحف عليهم من الشرق والمتمثل في زحف الجيوش المغولية، وتفسير ذلك أن هذه المرحلة مرحلة إعداد شامل واستعداد كبير لما بعدها لان الجهاد ثمرة إخراج هذه الأجيال الجديدة المتوازنة نفسيا والقوية فكريا وعقديا وعمليا للسمو إلى ذروة سنام الإسلام في الأخير والذي هو الجهاد الذي لا يعلنه إلا الأمة في مظلة الحاكم واجتهاده وتنسيقه وأدواته![2].

---

[1] - عرسان آنف الذكر 246 – 247.

[2] - ماجد عرسان الكيلاني 250–251. وهو أمر مقرر في أمهات كتب الفقه والإمارة وكتب الإمامة والسياسة؛ وإسقاط هذه الشرط موقع في الفوضى والتجارب والفتنة والهرج والمرج كما هو مشاهد عبر العصور وعند جميع الأمـم.

● وتجديد مفهوم الزهد وأنه ليس تركا للأموال والكسب بل هو زهد نفسي قلبي في الدنيا ليكون الزاهد مستعدا للتدخل وعلاج الأمراض الاجتماعية والاقتصادية بما كسب من مال لا يشح به أو يبخل، بل يبذل جهده الفكري والعضلي لصالح الأمة.

ولذلك فالمومن « لا تضره عمارة الدنيا ولو بنى ألفا من الدور لأنه يبني لغيره لا له! يمتثل أمر الله عز وجل في ذلك ويوافق قضاءه وقدره، يقيمه في خدمة الخلق وإيصال الراحة إليهم، ويواصل الضياء بالظلام في الطبخ والخبز – لهم – ولا يأكل من ذلك ذرة! يصير له طعام يخصه، لا يشاركه فيه غيره، فيكون مضطرا عند طعامه، صائما مجوعا عند غيره!»[1].

● <u>وتجديد الدعوة إلى أمة الدعوة من غير المسلمين</u> حيث أقبلت طوائف من أهل الكتاب على دروسه من أهل بغداد فأسلم على يده كما روى تلميذه الجبائي أكثر من خمسة آلاف من اليهود والنصارى[2].

وكان الجبائي آنف الذكر من قرية " جبة " بجبل لبنان فسبي ونقل إلى دمشق حيث أسلم هناك فاشتراه أحد أصحاب عبد القادر واعتقه ثم أرسله إلى بغداد عام 540 هـ فلازم الشيخ وصحب ابن قدامة[3].

كما نقل أن عددا من مسيحيي اليمن أسلموا على يد الشيخ، ولعل ذلك تم بواسطة دعاة القادرية باليمن لأن معظم متصوفة اليمن ينتمون إلى الطريقة[4].

---

1 - الفتح الرباني 253-254.

2 - ماجد عرسان الكيلاني 254.

3 - ابن رجب الذيل 2/ 45-47.

4 - مرآة الجنان 355/3.

نتائج غراس عبد القادر في الآفاق والأنفس من فتوة وتزكية وأعمال حضارية :

كما ان الكلمة الطيبة كالشجرة الطيبة أصلها ثابت وفرعها في السماء توتي أكلها كل حين بإذن ربها فقد شعت كلمات الشيخ وسلوكه ومواقفه على الآفاق والأنفس فأحيت الموات وجددت المندرس، وأنهضت الهمم، وفتحت قلوبا غلفا وآذانا صما اقتداء بجده صلى الله عليه وسلم في هذا المنهج المحمدي الذي أنشأ مدرسة الفتوة في الصحابة الشباب الذين كانوا أكثر من صحبه واستجاب لدعوته وأقبل على الدرس والقرآن والعمل حوله حتى ترك لنا تقاليد تحتذى في باب الفتوة ومكارم الأخلاق.

فقد واصلت مدرسة الشيخ بواسطة الأجيال والقادة الذين حملوا مشعل الشيخ إلى الآفاق من التلامذة النابهين والأقران المخلصين ومن أشهرهم : أبناء الشيخ وكوكبة من طلبته ومن بعدهم من انشأوا مدارس ومعاهد ومؤسسات.

❖ **ومن النتائج والعوائد عبر الأجيال** :

أولا : بضع وعشرون مدرسة عبر الأقاليم : بالعراق والشام وفارس ومصر واليمن والمغرب وامتدت بعد ذلك عبر الزمان إلى القارات كلها.

ثانيا : تخريج كوكبة من الأعلام في التزكية والتربية والعلم والوعظ حملوا مشروع المدرسة الأم إلى القارات ابتداء من الجيل الأول من طلابه وبنيه إلى كواكب من الأعلام في العلوم والتزكية[1] المتخرجين في مظاهر الوعظ والتدريس

[1] - قارن جملة من أسماء الأعلام.

والسلوك الظاهر وغيرهم ممن تخرج في الباطن عند احد حفدة الشيخ من المغاربة[1].

ثالثا : إعداد جيل من الفتيان الفرسان لمواجهة الخطر الصليبي في الشام من أبناء النازحين الفارين من الاحتلال الصليبي إلى مدارس الشيخ ثم إعادتهم إلى مناطقهم تحت القيادة الزنكية اشتهر من بينهم ابن نجا الواعظ الذي أصبح فيما بعد مستشارا لصلاح الدين الأيوبي والموفق ابن قدامة صاحب كتاب المغني وأحد مستشاري صلاح الدين وقرينه الحافظ عبد الغني المقدسي وغيرهم من أهل الشام[2].

رابعا : إعادة تنظيم المدارس القادرية الموزع إلى قيادة هرمية لها ممثلون على قمتهم :

1- الشيخ القطب عبد القادر الغوث قائد ركب المحسنين الصادقين وإليه تنتهي رئاسة علوم المعارف ودلالة القطب مركزية وكذلك الغوث والإغاثة بالرأي والمشورة والهمة والفتوة الكاملة.

2- وتحته الأبدال العشرة معروفون بأسمائهم : ذكر من بينهم الشيخ أبو مدين من المغرب[3]. وهم نواب الشيخ في الإشراف الإقليمي.

ويعود الجميع في مدارسهم ومناطقهم كخلفاء للشيخ إلى قيادة الشيخ نفسه. كما يفهم من مصطلح بديل وأبدال.

---

1 - أبو بكر القادري : الشيخ عبد القادر الجيلاني ودوره في الدعوة الإسلامية في أنحاء العالمين الآسيوي والإفريقي ص 287 – 290، مطبعة النجاح الجديدة المغرب 1999.

2 - ابن رجب: طبقات الحنابلة 63/2.

3 - اليافعي: نشر المحاسن الغالية 122.

3- ثـم يلـيهم المسـيرون المتولـون للاتصـال والإدارة، وهـم الأوتـاد[1] وأولياء المناطق النائية والمنسقون لنشاطات مدارس الإصلاح والمربون للأجيال تربية مباشرة والوتد تابع للبديل في المصطلح الإداري الإسلامي.

خامسا : وصول مشروع الغزالي وعبد القادر إلى تجسيم في الواقع والشأن العـام في دولـة ترتقـي بهـذا المشـروع إلى مستوى التشـخيص والتنفيـذ في " الدولـة الزنكيـة" المعاصـرة لتجديـد عبـد القـادر ومدارسـه والـتي قامـت باسـتغلال الأطـر المتخرجة في المدارس النظامية والمدارس القادرية للقيام بمشروع الإصلاح المتكامـل في قياداته المدنية والعسكرية وتـولي المـدارس النوريـة والصـلاحية اسـتغلال الأطـر من العلماء العاملين المصلحين.

سادسـا : وتـوج ذلـك كلـه بالوصـول إلى بنـاء وحـدة إسـلامية لتحريـر المقدسات والأراضي المحتلة ومحاولة استيناف الفتوحات الإسلامية من جديد.

[1] - تقدم التعريف ببعض هذه المصطلحات الدالة على المهام التي عينها المشايخ لمن ارتقى في العلم والعمل فوصل إلى مراتب تتدرج من الأعلى إلى من دونه تقريبا للفهم وتوزيعا للمهمات عند الشيوخ الأعلين وقد ألف السيوطي رحمه الله حول الخبر الدال على وجود القطب والأوتاد والنجباء والأبدال انطلاقا من حديث عمر وعلي وأنس وحذيفة وعبادة بن الصامت وابن مسعود وعوف بن مالك ومعاذ ووائلة وابن سعيد وأبي هريرة وأبي الدرداء وأم سلمة موقوفا ومرفوعا وورد في المراسيل وأخرجه أحمد وابن عساكر وابن أبي الدنيا وقديما قيل: لا مشاحة في الإصطلاح خصوصاً إذا حُدِّد المعنى وفهم القصد والمهمات والرسالة والمنهج.

خاتمة ونقد :

ولـولا غيـاب النقـد السياسـي والإداري في شـكل اجتهـادات ومؤسسـات تصحيح المسيرة باستمرار لاستمرت أنفاس هذه المدارس التي كانت مشروعا حقا من الصدق والإخلاص والتفاني والبطولات الفردية ما جعله عند غياب هذه الأنفـاس أو ضـعفها يضـعف ولا تُسـتأنف المسـيرة لغيـاب المؤسسـات السياسـية المستقلة بـالقرارات الحاسمـة وكـذا الإداريـة المستقلة بالإصلاح الإداري، فرجع المجتمع إلى الوراء مرة أخرى عند غياب أو ضعف التحكم في أزمة القرار بغياب البطل الفردي القائد وعدم قدرة الأجيال على الانخراط في مؤسسات مستقلة تسير بالمشروع وتقترح البدائل وتقدم الكشف والحساب وتراقب المسؤولين وهي نقطة الضعف الكبرى في مجتمع الإسلام المشرقي المتهم بإنتاج الاستبداد السياسي والطاعة العمياء والاستسلام للقادة ومغادرة ميدان الإصلاح أمرا بمعروف ونهيا عن منكر عند أول انتكاسة.

وبالله تعالى التوفيق والهداية وعليه التكلان ولا حول ولا قوة إلا به، وهو حسبنا ونعم الوكيل والعاصم من الزلل والخطإ وسوء الفهم والقصد.

وكتبه العبد الضعيف العاجز المتفقر إلى عون ربه وإلهامه وتسديده ومغفرته محمد بن عبد الله البايك صبيحة الأحد تاسع رمضان الأبرك 1433هـ / 29 غشت 2012.

ببليوغرافيـــا

- ✓ الإحسان بترتيب صحيح ابن حبان ؛ابن بلبان الفارسي ؛ط اولى؛ بيروت؛ دار الكتب العلمية؛1407
- ✓ إحياء علوم الدين؛ أبو حامد محمد بن محمد الغزالي؛ وبذيله المغني عن حمل الأسفار في الأسفار؛ ابو الفضل العراقي؛ بيروت؛دت.
- ✓ أخبار القضاة؛ وكيع محمد بن خلف بن حيان ؛ مراجعة محمد اللحام؛عالم الكتب؛دت؛دم.
- ✓ آداب الحسن البصري؛تحقيق سليمان الحرش؛ دار النوادر ؛ الكويت؛ بيروت2007/1420؛ط4.
- ✓ الإصابة في تمييز الصحابة؛الحافظ ابن حجر العسقلاني؛ وبهامشه الاستيعاب في معرفة الأصحاب؛ ابن عبد البر؛مطبعة السعادة؛مصر؛
- ✓ ط اولى ؛1328
- ✓ الأعلام؛ خير الدين الزركلي؛ط 3؛بيروت؛ دار العلم للملايين؛ 1989
- ✓ الإعلام بمن حل بمراكش واغمات من الأعلام؛ السملالي التعارجي؛ط2 المطبعة الملكية؛ الرباط؛ 1993
- ✓ الاقتصاد في الاعتقاد؛لأبي حامد الغزالي؛ تقديم الدكتور عادل العوا؛ بيروت؛ دار الأمانة؛ 1388/1969
- ✓ الإمامة والسياسة ؛للدينوري؛ ط مصر ؛ 1904
- ✓ انساب الأشراف ؛البلاذري؛ تحقيق سهيل زكار ورياض الزركلي ط.اولى؛ 1417/1996
- ✓ البداية والنهاية ؛ابن كثير؛عبد الرحمان ؛ط اولى؛بيروت؛ 1401
- ✓ تاج العروس من جواهر القاموس؛ محمد مرتضى الزبيدي؛ ط اولى؛ بيروت؛ دار الحياة؛ 1309

- ✓ تاريخ الطبري (تاريخ الأمم والملوك) محمد بن جرير الطبري؛ ط اولى؛بيروت؛ دار الكتب العلمية؛ 1407
- ✓ تاريخ خليفة بن خياط؛ تحقيق أكرم ضياء العمري؛ دار طيبة الرياض؛ دت؛
- ✓ تاريخ التمدن الإسلامي ؛جورجي زيدان؛ منشورات دار مكتبة الحياة؛ بيروت؛ دت؛
- ✓ تحفة الأشراف بمعرفة الأطراف؛ ابو الحجاج جمال الدين يوسف؛ حققه بشار عواد معروف؛ دار الغرب الإسلامي؛ 1999.
- ✓ تذكرة الحفاظ؛ الذهبي محمد بن احمد؛ دار إحياء التراث العربي؛ بيروت؛ دت.
- ✓ تهافت الفلاسفة؛ أبو حامد الغزالي؛ تحقيق سليمان دنيا؛ القاهرة؛ دار المأرف؛ 1392/1972
- ✓ تهذيب التهذيب؛ الحافظ ابن حجر العسقلاني؛ ط.أولى؛ بيروت ؛دار الفكر؛ 1404
- ✓ الجامع الصحيح؛ لأبي عبد الله محمد بن إسماعيل البخاري؛ ط.اولي؛القاهرة ؛المطبعة السلفية؛ 1400
- ✓ الجامع المختصر في عنوان التواريخ وعيون السير؛ابن الساعي علي بن أنجب؛تحقيق مصطفى جواد؛بغداد؛ 1353/1934
- ✓ حركة الحشاشين محمد عثمان الخشت؛ موقع: (boks.googl.)
- ✓ حكايات الشطار؛ محمد رجب النجار؛ القاهرة؛ دت.
- ✓ حلية الأولباء وطبقات الأصفياء؛ أبو نعيم الأصبهاني؛ ط3؛ بيروت؛ دار الكتاب العربي؛ 1400
- ✓ الحوادث الجامعة والتجارب النافعة في المئة السابعة؛عبد الرزاق بن الفوطي؛ تحقيق مصطى جواد ؛بغداد؛ المكتبة العربية؛ 1351
- ✓ الدر المنثور؛ الحافظ جلال الدين عبد الرحمان السيوطي؛دار الفكر؛بيروت؛دت.

- ✓ دعامة اليقين في زعامة المتقين؛ أبو العباس العزفي؛تحقيق احمد التوفيق ؛مكتبة خدمة الكتاب؛ الرباط؛ 1989
- ✓ ديوان الأعشى ميمون بن قيس؛تحقيق وإضافة الدكتور محمود الرضواني؛ الدوحة ؛ قطر؛2012
- ✓ ديوان السموأل بن عاديا؛ شرح ابي عبد الله نفطويه؛دار الجيل؛ بيروت؛ 1996
- ✓ الذيل على طبقات الحنابلة؛ ابن رجب زين الدين عبد الرحمان؛ القاهرة؛ 1372/1952
- ✓ رحلة ابن بطوطة؛ تحقيق عبد الهادي التازي؛ اكاديمية المملكة المغربية؛ ط1417/1997
- ✓ رحلة ابن جبير محمد بن احمد؛ بيروت؛ دار صادر؛ 1379/1956
- ✓ رسالة المراحل في مناقب ابي يعزى الراحل؛ ط وانادو؛ الدارالبيضاء؛ المغرب؛ دت
- ✓ الروض الأنف؛ عبد الرحمان السهيلي؛تحقيق وتعليق وشرح عبد الرحمان الوكيل؛ط اولى؛ القاهرة؛ دار النصر؛ 1378
- ✓ سلسلة الأحاديث الصحيحة ؛ محمد ناصر الألباني؛ ط4 بيروت؛ المكتب الإسلامي؛ 1405
- ✓ سلسلة الأحاديث الضعيفة؛ محمد ناصر الألباني؛ ط4؛ مكتبة المعارف؛1408
- ✓ سنن ابن ماجة؛ نرقيم وتعليق محمد فؤاد عبد الباقي؛ اسطمبول؛ المكتبة الإسلامية؛ دت
- ✓ سنن أبي داوود ومعه معالم السنن للخطابي؛ إعداد وتعليق عزت عبيد الدباس؛ وعادل السيد؛ طاولى؛ بيروت؛ دار الحديث؛ 1388
- ✓ سير اعلام النبلاء؛ الذهبي؛ط اولى؛ بيروت؛ مؤسسة الرسالة؛ 1409
- ✓ السيرة النبوية؛ ابن هشام؛ تحقيق وضبط وشرح مصطفى السقا وزملائه؛ بيروت؛ دار المعرفة؛ دت.

✓ شذرات الذهب في اخبار من ذهب؛ عبد الحي بن العماد الحنبلي؛ القاهرة؛ مكتبة القدسي؛ 1351-1350
✓ الشيخ عبد القادر الجيلاني ودوره في الدعوة الإسلامية ؛ في أنحاء العالمين الأسيوي والإفريقي؛ ابو بكر القادري؛ مطبعة النجاح؛الدار البيضاء؛ 1999
✓ الصحاح؛اسماعيل بن حماد الجوهري.تحقيق احمد عبد الغفور عطار؛ط4؛بيروت؛دار العلم للملايين؛ 1990
✓ صحيح الجامع الصغير وزياداته؛تحقيق محمد ناصر الألباني؛ط اولى؛ بيروت؛المكتب الإسلامي؛ 1388
✓ صحيح سنن ابن ماجه؛ محمد ناصر الألباني؛ط اولى؛ بيروت؛ 1407
✓ صحيح سنن أبي داوود؛ محمد ناصر الألباني؛ ط اولى؛ بيروت؛ المكتبالإسلامي؛ 1409
✓ صحيح سنن الترمذي؛ محمد ناصر الألباني؛ط اولى ؛بيروت؛ 1408
✓ صحيح سنن النسائي؛محمد ناصر الألباني؛ط اولى؛بيروت، 1409
✓ صحيح مسلم؛ تحقيق وترقيم محمد فؤاد عبد الباقي؛دم؛ 1400
✓ صحيح مسلم؛ شرح النووي؛ بيروت؛ دار احياء التراث العربي؛ دت
✓ الصعلكة والفتوة في الإسلام؛ احمد أمين؛ دار الكتب العلمية؛ بيروت؛ 2009
✓ صفة الصفوة: أبو الفرج ابن الجوزي، دائرة المعارف العثمانية: حيد أباد الدكن؛ 1356-1355
✓ ضعيف الجامع الصغير وزياداته؛ محمد ناصر الألباني؛ ط 2؛ بيروت؛: المكتب الإسلامي؛ 1399
✓ طبقات الحنابلة؛ محمد بن أبي يعلى؛ تصحيح محمد حامد الفقي؛ الباهرة؛ 1371/1952
✓ طبقات الشافعية الكبرى؛ عبد الوهاب السبكي؛ القاهرة؛ ط الحلبي؛ 1384/1965

- ✓ طبقات الصوفية؛ أبو عبد الرحمان السلمي ؛ القاهرة 1373/1953
- ✓ الطبقات الكبرى؛ابن سعد ؛ بيروت؛ دار صادر؛ دت،
- ✓ العبر في خبر من غبر؛ الحافظ الذهبي. تحقيق صلاح الدين المنجد. الكويت؛وزارة الإرشاد والأنباء؛ 1963
- ✓ عوارف المعارف؛ عمر السهروردي ؛ بيروت؛دار الكتاب العربي؛ 1966
- ✓ الغنية لطالبي طريق الحق؛عبد القادر الجيلاني ؛مكة المكرمة؛ 1374
- ✓ فتوح الغيب؛عبد القادر الجيلاني؛ط مصطفى البابي الحلبي؛ 1357
- ✓ الفتح الرباني والفيض الرحماني؛ عبد القادر الجيلاني؛ ط.الحلبي؛ 1387/1968
- ✓ فتوات تحت الطلب؛ موقع(الاصدقاء المصريون)
- ✓ الفتوة والفتيان قديما؛مصطفى جواد؛مجلة لغة العرب؛مجلد8؛ 1930
- ✓ فضائح الباطنية؛ أبو حامد الغزالي؛ تحقيق عبد الرحمان بدوي؛ الدار التونسية للطباعة والنشر؛ 1964/ 1383
- ✓ فيض القدير بشرح الجامع الصغير؛ عبد الرؤوف المناوي؛ط اولى؛ مصطفى البابي الحلبي ؛مصر؛ 1357
- ✓ القاموس المحيط؛ مجد الدين الفيروزبادي؛ مصر؛ مصطفى البابي الحلبي؛ 1372
- ✓ قلائد الجواهرفي مناقب الشيخ عبد القاهر؛التادفي محمد بن يحي؛ مصطفى البابي الحلبي؛ 1375/1956
- ✓ الكامل في التاريخ؛ابن الأثير؛بيروت؛ دار صادر؛ 1966-1965
- ✓ الكامل ؛ابو العباس المبرد؛حققه محمد احمد الدالي؛ ط 3؛مؤسسة الرسالة؛ بيروت؛1418/1997
- ✓ كتاب الروضتين في اخبار الدولتين؛ شهاب الدين ابو شامة؛ القاهرة؛ المؤشة المصرية للتأليف والنشر؛ 1962
- ✓ لسان العرب؛ابن منظور الإفريقي؛ بيروت؛ دار صادر؛ دت.

- ✓ مجمع الزوائد ومنبع الفوائد؛ علي بن ابي بكر الهيثمي؛ بيروت؛ دار الكتب العلمية؛ 1408
- ✓ مجاة المورد؛مجلد 2ع1974 / 2
- ✓ مجاة كلية الآداب؛ جامعة بغداد؛ع ": (1959) 1 نشوء الأصناف والحرف في الإسلام "عبد العريز الدوري.
- ✓ محاضرات الأدباء؛الرغب الأصفهاني؛ط اولى؛دار الأرقم؛بيروت؛1420
- ✓ محيط المحيط؛المعلم بطرس البستاني؛مكتبة لبنان ناشرون؛دت
- ✓ مرآة الجنان؛ اليافعي عبد الله بن اسعد؛ بيروت؛ مؤشة الأعلمي؛1390/1970
- ✓ مرآة الزمان؛سبط ابن الجوزي؛ يوسف؛ دائرة المعارف العثمانية؛ حيدآباد الدكن؛دت
- ✓ مسالك الأبصار في ممالك الأمصار؛ ابن فضل الله العمري احمد بن يحي؛ بيروت؛ مكتبة الجامعة الأمريكية؛ مخطوطةms-915-/13mia
- ✓ المستدرك على الصحيحين؛ الحاكم النيسابوري؛ بذيله التلخيص للذهبي؛ بيروت؛ المكتب الإسلامي؛ 1399
- ✓ المسند؛احمد بن حنبل؛ بهامشه منتخب كنز العمال؛ المتقي الهندي؛ بيروت؛ المكتب الإسلامي؛ 1399
- ✓ المشهد الصوفي؛صورته وأدبياته؛ ونبش (كذا) في معارف الأجيال؛ عبد الرحمان الملحوني ؛دار المنصور؛ مراكش دت
- ✓ معجم البلدان؛ ياقوت الحموي المستعصمي؛ بيروت؛ دار صادر؛ دت
- ✓ المعجم المفهرسلألفاظ الحديث ؛ترتيب وتنظيم لفيف من المستشرقين، ونشرإ ونسنك؛ ليدن ؛مكتبة أبريل 1936
- ✓ معجم مقاييس اللغة؛احمد بن فارس الرازي؛ تحقيق وضبط عبد السلام هرون ؛ط أُولى القاهرة؛ دار إحياء الكتب العربية؛ 1368
- ✓ المعجم الوسيط؛ مجمع اللغة العربية؛القاهرة؛دت
- ✓ معجم المؤلفين ؛احمد رضا كحالة؛مطبعة الترقي؛ 1377/1958

- ✓ المعرفة والتاريخ؛الفسوي؛ ابو يعقوب يوسف بن سفيان؛تحقيق اكرم ضياء العمري؛ط اولى؛ 1410؛ مكتبة الدار؛المدينة المنورة.
- ✓ الملامتية والصوفية واهل الفتوة؛ حققه الدكتور ابو العلاء عفيفي؛ مصر؛1334
- ✓ مماليك مصر؛موقع ويكيبديا (الموسوعة الحرة)
- ✓ ممتع الأسماع في ذكر الجزولي والتباع،،،،؛ محمد المهدي الفاسي؛ طبعة حجرية؛ فاس؛ المغرب؛ دت.
- ✓ المنتظم في تاريخ الملوك والأمم؛أبو الفرج ابن الجوزي؛ دائرة المعارف العثمانية؛حيدر آباد الدكن؛ 1395
- ✓ موقع شباب أهل السنة على الأنترنيت؛ الدولة العباسية وتاريخ الخلافة
- ✓ الموسوعة العربية الميسرة؛ ط2؛ دار الشعب؛ 1972
- ✓ موطأ الإمام مالك؛ رواية يحي بن يحي؛ إعداد احمد راتب عرموش؛ ط6؛ بيروت؛ دار النفائس ؛1402
- ✓ نشأة القادرية؛ ماجد عقلة عرسان الكيلاني؛ ط الجامعة الأردنية 1997 ؛الأردن.
- ✓ نشر المحاسن الغالية؛ اليافعي؛ عفيف الدين عبد الله بن سعد؛ دار الكتب العلمية؛ بيروت؛ 1999
- ✓ هكذا ظهر جيل صلاح الدين وهكذا ردت القدس؛ ماجد عرسان كيلاني؛ المعهد الإسلامي للفكر العالمي؛ فرجينيا؛ الولايات المتحدة؛ 1416/1995
- ✓ وقعة صفين؛ نصر بن مزاحم ؛ تحقيق عبد السلام هرون؛ ط اولى؛ دار الجيل؛ بيروت 1410/1990 .

المطبعة والوراقة الوطنية
IMPRIMERIE PAPETERIE EL WATANYA
زنقة أبو عبيدة الحي المحمدي الداوديات
مراكش – الهاتف : 05 24 30 37 74 - 05 24 30 25 91
الفاكس : 05 24 30 49 23 e-mail: iwatanya@gmail.com



يحيي المغرب ملكاً وشعبا ذكرى عيد الشباب اهتماماً بهذا العنصر الحيوي من الأمة يضيف إليه مؤسسات موازية عديدة لتأطير الشباب على الصعيدين : الرسمي والشعبي.

وهذه إضاءات لجوانب من تاريخ الفتوة والشباب بين الجاهلية والإسلام في المشارب الإيجابية البناءة المنطلقة من المدرسة المحمدية التربوية وخريجيها من الصحابة والتابعين ومن بعدهم من السلف والخلف في نماذج شخصية تارة ومدارس وخريجين أخرى لازال عطاؤها مستمراً عبْر العصور قوة وتوسطاً وضعفاً وبإزائها مشارب أخرى شكلها الشباب والفتيان ذات الشمال وذات اليمين بعيداً عن الوسط المحمدي المعتدل المتوازن في نماذج معظمها تيارات وأمواج متضاربة متصارعة لاتزال نماذج منها تهُب ساخنة على معظم المسلمين قَدَراً إليها للاختبار وتمييز الغثاء من الزَّبد وضَرْباً للحق بالباطل تارةً وللباطل بالحق أخرى يسر الله إعدادها في تؤدة وزمن غير قليل أبي السيد رئيس المجلس العلمي المحلي لمراكش إلا أن يزينها بمقدمة نفيسة شكر الله صَنيعه محفزاً على التأليف والإبداع والطبع والنشر.